الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجلفة

كليّة الآداب واللّغات والفنون

قسم اللّغة العربية وآدابها

تخصّص: البلاغة وتحليل الخطاب

المشروع البلاغي عند محمد العمري

بحث في بلاغة الحجاج – دراسة تفاضلية–

بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في إطار مدرسة الدّكتوراه

إعداد الطّالب:

عبد الباسط ضيف

إشراف:

د.أحمد بوصبيعات

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الهيئة
عبد القادر بن زيان	أستاذ محاضر أ	جامعة الجلفة	رئيسًا
أحمد بوصبيعات	أستاذ محاضر أ	جامعة الجلفة	مشرِفا ومقرِّرا
بوعيشة بوعمارة	أستاذ محاضر أ	جامعة الجلفة	عضوا مناقشا
بايزيد جاب الله	أستاذ محاضر ب	جامعة الجلفة	عضوا مناقشا

السّنة الجامعيّة: 2017/2016

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجلفة

كليّة الآداب واللّغّات والفنون

قسم اللّغة العربية وآدابها

تخصّص: البلاغة وتحليل الخطاب

المشروع البلاغي عند محمد العمري

بحث في بلاغة الحجاج – دراسة تفاضلية–

بحث مقدّم لنيل شهادة الماجستير في إطار مدرسة الدّكتوراه

إعداد الطّالب:

عبد الباسط ضيف

إشراف:

د.أحمد بوصبيعات

السّنة الجامعيّة: 2017/2016

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبي الفاضل رحمه الله...

إلى أمي الغالية ...

إلى جميع أفراد أسرتي الكريمة ...

إلى كل الأصدقاء ...

إليهم جميعا أهدي هذا العمل.

شكر

الحمد لله، له الحمد الحسن والثناء الجميل.

الشكر لكل من قدم لي يد العون من قريب أو بعيد .

مقدمة

مقدمة

يُعدّ البحث في طبيعة الكلام البشري وما ينطوي عليه من المقاصد والدّلالات من المباحث والدّراسات التي شغلت البلاغيين منذ القديم، فكانت عنايتهم منصبّة حول اللسان وما ينتجه من مفردات وتراكيب تُشكِّل بنية الكلام ومادَّته. هذه المادة التي تتيح للباحث الوقوف على أحوال ومزايا اللفظ وماهيته داخل السياق النّصي الذي ينتظم ويأخذ أشكالا ضمن الحقل الخطابي. وذلك لما يؤديه من وظائف لغوية ودلالية تعين على صناعة الخطاب الهادف، ذلك الخطاب الذي يكون الإقناع فيه سمة بارزة تميزه عن أي خطاب آخر.

وإذا ما تأملنا البلاغة القديمة عند اليونان وجدناها قد نشأت ضمن فضاء سياسي خطابي فهي بذلك بلاغة بيانية تعليمية تساعد الخطيب وترسم له الخطوط العريضة التي يتبعها لتصل به إلى دائرة الخطابة التي لقيت رواجا كبيرا في الأوساط اليونانية، وباتت صنعة يُروّج لها ويكون الخطيب فيها صانع القرار، فأضحت بذلك وسيلة إبداعية وآلية من آليات التفنن في صناعة القول الذي مرجعيته في ذلك الإبداع. أما "أرسطو" فقد نظر للبلاغة كونها خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتي التأثير والإقناع ويتوجه إلى الجمهور السامع بهدف توجيهه أو إقناعه، وبهذا يُعد "أرسطو" من المؤسسين للبلاغة بما قدمه من آراء في مجال الحجاج والإقناع. أما عن البلاغة العربية القديمة فقد عرفت حضورا بارزا للحجاج، وإن ظهر بتسميات مختلفة. فظهر عند الجاحظ وربطه بالخطاب الإقناعي الشفوي. أما "الجرجاني" فقد جعل البلاغة وثيقة الصلة بنظرية النظم والمعنى، كما استخدم آليات حجاجية لوصف الاستعارة. في حين أن "السكاكي" أشار إلى أدوات إدراك الحجاج في البلاغة العربية وأكّد على أن الحَسن من الكلام هو المطابق لمقتضى الحال، وأهم ما ركز عليه البلاغيون العرب القدامى في تناولهم للحجاج هو فكرة المقام الذي يستدعي مراعاة حال المتلقي.

أما عن الدارسين الغربيين المحدثين فقد اعتبروا البلاغة القديمة بلاغة محدودة نظرا لاعتمادها على المحسنات البديعية ورونق الكلام، وأوردوها موردا حجاجيا يقوم على وسائل الإقناع الذي بات مطلبا أساسيا في كل عملية فكرية معينة، وأبرز من تناول بلاغة الحجاج "برلمان" وزميله "تيتكاه" إضافة إلى أعمال باحثين آخرين كـ "ديكرو" و "مايير". أما عن الباحثين العرب فنجد أسماء كثيرة من أمثال : "طه عبد الرحمن"، "أبو بكر العزاوي". إلا أن اسم البلاغي "محمد العمري" يعتبر من الذين أضافوا للدرس البلاغي إضافات أعادت الاعتبار لخصوصيات التراث، وكشف الستار عن جماليات شكلية ومضمونية

احتجبت بين طيات الكتب، وانتقل بالبلاغة إلى وضعها الطبيعي كنظرية في الكتابة، وسلطة إبداعية حجاجية، ونظرية في القراءة وتحليل الخطاب.

إن ما قام به الباحث البلاغي "محمد العمري" في ميدان البلاغة والحجاج، وما أسس له من المفاهيم والتصورات لَيَدْفع بكل باحث إلى الغوص في أعمال هذا الرجل لاستخراج الدُرر الكامنة التي حوت مؤلفاته. ومن هنا كانت فكرة موضوع البحث تدور حول المشروع البلاغي لـ "محمد العمري"، هذا المشروع الذي يعد من صميم الدراسات البلاغية الحجاجية المعاصرة التي قنّنت واستحدثت مفهوما جديدا للبلاغة يقوم على الإقناع وإقامة الحجج والبراهين، فكان حريا بنا أن نتناول هذا المشروع بالدراسة لتسليط الضوء على أهم القضايا البلاغية الحجاجية التي نظر وقعّد لها الباحث"محمد العمري". فكان بحثنا موسوما بـ : **المشروع البلاغي عند محمد العمري، بحثٌ في بلاغة الحجاج – دراسة تفاضلية–** والذي يتألف من مدخل وثلاثة فصول وخاتمة. أما المدخل فتناول تعريفا بالعمري أديبا وناقدا.

أما الفصل الأول فعُنون بـ : "ماهية الحجاج قديما" تناولنا فيه أولا بلاغة الحجاج عند الغرب، مبتدئين بالرؤية السفسطائية للحجاج، وكيف تمت ممارسته تحت سلطة القول، مرورا إلى القول الخطبي عند أفلاطون وما رسمه من حدود للخطابة وأركانها، وصولا إلى أرسطو وما عرفته الخطابة وهي بين يديه من تقسيم لأجناسها وصورها وقوفا على أهم أصناف الحجاج فيها.

ثم عالجنا ثانيا بلاغة الحجاج عند العرب، حيث قدمنا تصورات الجاحظ للبلاغة وأهم صور الحجاج التي طرقها، ثم نقلنا حديثنا عن الجرجاني وما أضافه من الشروحات التي أغنت الدرس البلاغي من خلال نظرية النظم وأهم الآليات الحجاجية التي مست الاستعارة، ثم أعقبنا بالكلام عن السكاكي وما شهدته البلاغة من التقسيمات في عصره وأهم الركائز التي قامت عليها.

أما الفصل الثاني فقد كان موسوما بـ: "ماهية الحجاج حديثا". تكلمنا فيه أولا عن بلاغة الحجاج عند العرب بداية بالنموذج الحجاجي عند برلمان وتيكتاه، وماقدماه من التصورات حول معقولية الحجاج وملامحه لإخراجه من دائرتي الخطابة والجدل معا، لنمر إلى آراء ميشال مايير من خلال نظريته الجديدة – نظرية المساءلة– حيث جعل مفهوم الحجاج متصلا بتحديد طبيعة الكلام في وظيفته التساؤلية، لنصل أخيرا إلى الحجاج عند ديكرو وانسكومبر، حيث حدّدا مكمن الحجاج وأهم مراتبه من خلال السلم الحجاجي. لنتطرق ثانيا إلى بلاغة الحجاج عند العرب مع النظرة الفلسفية للحجاج عند طه عبد الرحمن وما عرفه من الأصناف والاعتبارات، لنعرّج إلى الحجاجية عند أبي بكر العزاوي وأهم الدلالات الحجاجية التي تضمنها الخطاب، لنقف على بلاغة الحجاج عند محمد العمري وأبرز الاتجاهات التي نحاها الباحث ليصل إلى بلاغة جديدة.

وأما الفصل الثالث، فقد أفردناه للمشروع البلاغي عند الباحث محمد العمري. بدأناه بالحديث عن طبيعة المشروع، وأهم الآراء والأفكار التي حملها الباحث انطلاقا من تشبعه بالآراء الأرسطية والتراثية العربية التي كانت له معينا في إقامة فكرة المشروع، إلى الحديث عن أبعاده التي تمثلت في دراسة الباحث للخطاب الشعري ثم الخطاب الإقناعي وصولا إلى تأرجح البلاغة بين التخييل والتداول.

وقد عُنون العنصر الثاني من هذا الفصل بـ: "البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي" حيث حاولنا فيه أن نقدم تصورات وقراءات لما جاء فيه من خلال تعرضنا لبلاغة الإقناع وما تشغله داخل الحيز الخطابي متناولين في ذلك مقام الخطب(الدينية والسياسية والاجتماعية) وأهم صور الحجاج (القياس، المثل، الشاهد).

أما العنصر الثالث فقد كان موسوما بـ:"البلاغة بين التخييل والتداول" فتطرقنا إلى مفهوم كل منهما، حيث وُظفت كلمة الشعرية لتقابل التخييل، والخطابية لتحل محل التداول، كما أشرنا إلى منطقة التقاطع بينهما، هذا التقاطع الذي من شأنه أن يصل أو يفصل بينهما، ليفرز لنا بلاغات فرعية تقوم بداخلها بلاغات جزئية تتمثل في بلاغة السخرية التي تعد مبحثا فلسفيا حجاجيا من جهة، ومبحثا أدبيا تعبيريا من جهة أخرى. إضافة إلى بلاغة السيرة التي تتأرجح بين التخييل والتاريخ، ليسوقنا ذلك إلى الحديث عن آلية من الآليات البلاغية ألا وهي المجاز الذي يتميز ببعديه التخييلي والتداولي وطبيعة كل بعد داخل العملية الحجاجية. لنصل أخيرا إلى استجماع النتائج المتحصل عليها في خاتمة.

أما عن المنهج المتبع في البحث، فقد عرف تباينا في ذلك، إذ موضوع بحثنا يقتضي هذا التنوع الذي يرجع أساسا إلى المزج المعرفي بين ما هو قديم يمثل مرجعية لا مناص من تناولها، وما هو حديث يمثل أفقا حاضرا ينشد كل جديد، إلا أن المنهج الوصفي التحليلي هو الغالب في البحث، وذلك لطبيعة الموضوع، إلى جانب المنهج التاريخي والتداولي ونظريات نقد النقد.

أما عن إشكالية الموضوع فتتمحور أساسا حول الرؤية البلاغية العمرية للحجاج كإشكال عام ضم بين طياته تساؤلات تعلقت بنظرة العمري العميقة للبلاغة، ومرجعيته في ذلك، وأهم الجوانب الحجاجية التي راح يطيل البحث فيها، ومدى تحقق درجة الحجاج في بناء البلاغة الجديدة، وإلى أي سبيل جنحت البلاغة وهي في عهدة العمري، وما قدمه من إضافات نقلت البلاغة من جانبها الإبداعي إلى جانبها التداولي الحجاجي، وطبيعة المنهج الذي اتبعه في تعاطيه مع النص، وكيف تعامل مع المصطلح البلاغي.

وسبب اختيارينا لهذا البحث عنوانه الذي يستهوي كل طالب علم مقبل على فهم بلاغة الحجاج، وما تقوم عليه من الأسس والمفاهيم، إيمانا منا بضرورة القيام بمثل هذا النوع من الدراسة التي لا يزال البحث

فيها قائما في الفكر البلاغي العربي الحديث. وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع كان من أهمها كتب العمري كـ:

- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة.
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول.
- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.
- في بلاغة الخطاب الإقناعي.
- تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر.

أما عن الصعوبات التي واجهتنا، فتتمثل أساسا في نداخل مفهوم الحجاج مع مفاهيم لسانية ومنطقية وفلسفية... مما ينعكس على الدور الوظيفي له، زد على ذلك تباين المشارب والاتجاهات بين القديم والحديث في تناولها وتعاطيها مع النص البلاغي، لذلك حاولنا قدر المستطاع أن نستجمع آراء القدماء والمحدثين (من الغرب والعرب) ونظرتهم التي انتهجوها في تأسيسهم لآلية الحجاج، قناعة منا بضرورة العودة إلى مثل هذه التعريفات وما أسست له من الرؤى البلاغية والحجاجية، التي تعد معينا لنا ولكل باحث في فهم واستيعاب المشروع البلاغي للباحث "محمد العمري".

مدخل

مدخل: العمري أديبا وناقدا

الحياة العلمية والمهنية:

محمد بن عبد الله بن حمو العمري. من مواليد سنة 1945 م بقرية "الحارة" على ضفاف وادي درعة جنوب المغرب. تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وبعض المتون والمنظومات على يد والده بقرية"الحارة". وعند استقلال المغرب التحق بالمعهد الإسلامي بمدينة تارودانت (معهد محمد الخامس حاليا).

حصل من المعهد المذكور (من سنة 1958 إلى سنة 1968) على الشهادة الابتدائية والثانوية والباكالوريا الأصلية بميزة حسن (وهي ميزة نادرة وقتذاك في مستوى الباكالوريا المغربية).

في سنة 1968 التحق بجامعة محمد الخامس (فرع فاس) حيث حصل على الإجازة في الأدب العربي (من سنة 1968 إلى سنة 1972) بأربع ميزات (أي ميزة عن كل سنة). وحصل في نفس السنة على شهادة الكفاءة التربوية للتدريس بالمدارس الثانوية. واشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية من سنة 1972 إلى سنة 1981، متابعا تكوينه الجامعي بموازاة التدريس.

في سنة 1974 حصل على شهادة استكمال الدروس (شهادة الدروس المعمقة) من جامعة محمد الخامس بالرباط.

وفي سنة 1981 حصل على دبلوم الدراسات العليا من الجامعة السالفة الذكر. والتحق بالتدريس أستاذا مساعدا بكلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس إلى سنة 1999.

وفي سنة 1989 ناقش أطروحة دكتوراه الدولة في الأدب العربي من نفس الجامعة فرقي إثره إلى درجة أستاذ محاضر، ثم رقي سنة 1993 إلى درجة أستاذ التعليم العالي.

التحق خلال السنة الجامعية 1995 – 1996 بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض أستاذا للبلاغة والنقد الأدبي.

عمل أستاذا للبلاغة والنقد الأدبي بكلية الآداب، ابتداء من غشت 2005.

المجالس العلمية والجمعيات:

- الإشراف على وحدة التواصل وتحليل الخطاب/ مكونات الخطاب وآليات اشتغاله.
- الدراسات المعمقة 97 – 99 والدكتوراه 97– 2002. كلية الآداب/ فاس/ المغرب.
- خبير معتمد لدى اللجنة الوطنية لمنح الاعتماد (في الدراسات العليا والدكتوراه) التابعة لوزارة التعليم العالي. ابتداء من 1997.
- عضو منتخب باللجنة العلمية لكلية الآداب ظهر المهراز/ فاس. 1997/5/22 – 1999/9/16.

-عضو مجلس جامعة سيدي محمد بن عبد الله 1990-1992 ثم 1996-1998.

-عضو اللجنة العلمية لشعبة اللغة العربية في أواخر الثمانينات، ثم في الفترة 1996-1998.

-عضو اتحاد كتاب المغرب.

-إنشاء وتسيير لجنة الحوار الثقافي والبحث العلمي بكلية الآداب بفاس بمشاركة مجموعة من الأساتذة.

-الإشراف على إلقاء محاضرات عامة من جميع التخصصات، لعموم طلبة الكلية، طوال السنة الدراسية 1998-1999.

-عضو مكتب جمعية مدرسي اللغة العربية بالدار البيضاء في أواخر السبعينات.

-مدير مجلتي دراسات أدبية ولسانية. ودراسات سيميائية أدبية لسانية.

الجوائز التقديرية:

- 1990. جائزة المغرب الكبرى للكتاب، عن كتاب تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية.

- 2007. جائزة الملك فيصل العالمية، فرع اللغة والأدب. في موضوع: الأبحاث التي تناولت البلاغة العربية.

المشاركة في اللقاءات العلمية:

- شارك في العديد من الندوات واللقاءات الثقافية في المغرب والعالم العربي.

- تقديم ورقة حول الإيقاع في القصيدة العربية الحديثة في الملتقى الأول للشعراء العرب المنعقد بتونس بتاريخ 23-25 أكتوبر 1997.

- المشاركة في ندوة تكريم الأديب المفكر التونسي محمود المسعدي المنعقدة بجامعة تونس بتاريخ : 11-97/10/12، بموضوع: الإيقاع تنظيرا وممارسة في أعمال محمود المسعدي.

- المشاركة في يومين دراسيين نظمتهما شعبة الفلسفة بكلية الآداب بفاس في موضوع: الفلسفة والشعر والتاريخ. 20-97/11/21.

- المشاركة في ندوة: الحجاج والإقناع في البلاغتين العربية والغربية. كلية الآداب. مكناس. 12-13 مارس 1998. بموضوع: السخرية آلية حجاجية.

- المشاركة في يوم دراسي حول : حي بن يقظان، لابن طفيل. تنظيم وحدة التواصل وتحليل الخطاب بكلية الآداب بفاس بتاريخ 98/11/10.

– المشاركة في ندوة: العلوم الإنسانية، الجامعة والشراكة. نظمتها كلية الآداب بالمحمدية بالتعاون مع جامعة محمد الخامس بالرباط ومؤسسة كونراد الألمانية. 12–1998/11/13. مداخلة بعنوان: انفصال الدرس الأدبي عن المحيط المعرفي الفاعل.

– المشاركة في ندوة: المفاهيم نشأتها وتطورها. نظمت بالتعاون بين جامعة محمد الخامس بالرباط ومؤسسة كونراد الألمانية بمراكش 26–98/11/29. عنوان المداخلة: المجاز في البلاغة العربية.

– ندوة: ابن رشد، تنظيم جامعة القاضي عياض بمراكش بتعاون الجامعة الفلسفية المغربية. 15–98/12/17. عنوان المداخلة: من المحاكاة إلى التغيير.

– إلقاء محاضرة ضمن أنشطة جمعية الطلبة الباحثين بكلية الآداب بفاس يوم: 99/2/19. في موضوع: مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعرفي.

– المشاركة في ندوة: المفاهيم نشأتها وتطورها. نظمت بالتعاون بين جامعة محمد الخامس بالرباط ومؤسسة كونراد الألمانية بمراكش 25–99/11/28.

– المشاركة في ندوة حول الصورة من تنظيم شعبة الفلسفة بالرباط. بإشراف الأستاذ محمد المصباحي. 2000. بموضوع: مفهوم الصورة في البلاغة العربية.

– المشاركة في ندوة رؤساء شعبة اللغة العربية لتدارس وضعية التدريس الراهنة وآفاق الإصلاح في ضوء مقترحات إصلاح التعليم العالي. انعقدت بكلية الآداب بالرباط يوم 2000/9/29.(المساهمة في المناقشة والاقتراح).

– إلقاء المحاضرة الافتتاحية للموسم الثقافي 2000–2001: لرابطة أدباء المغرب، يوم 2000/10/6. بقاعة المعهد العالي للمسرح بالرباط. بعنوان: دائرة الحوار، وتدبير الاختلاف.

– المشاركة في يوم دراسي من تنظيم: المركز المغربي للدراسات والنشر والإعلام. يوم 2000/6/20. نظم بفندق بالدار البيضاء (المساهمة في المناقشة والاقتراح).

– المشاركة في ندوة حول: المواطنة والحداثة، تنظيم: نادي المواطنة. 2000. بفندق الدار البيضاء (المساهمة في المناقشة والاقتراح).

– كما أشرف على طلبة باحثين في مستوى الدكتوراه. في إطار وحدة التواصل.

– المشاركة في فحص الأطروحات الجامعية ومناقشتها[1].

[1] من موقع الأستاذ محمد العمري : www.medelomari.net

الحوارات[2]:

كانت للباحث المغربي "محمد العمري" جملة من الحوارات، نذكر منها:

- محاورة مع "حميد لحمداني". موضوعها: "البلاغة العربية بين المقصدية والتخييل".
- محاورة مع "محمد مشبال". موضوعها: "البلاغة والنقد الأدبي".
- محاورة مع "حسن المودن". موضوعها: " في قراءة التراث البلاغي العربي، علاقة حوارية نقدية".
- محاورة مع "محمد الولي" و "إدريس جبري". موضوعها: "مشروع قراءة نسقية للبلاغة العربية".
- محاورة مع "نور الدين أفاية" في إطار البرنامج التلفزي مدارات . موضوعها: "تخليق الخطاب. دائرة الحوار ومزالق العنف".
- محاورة مع المرحوم "المختار الزياني". موضوعها: " بلاغة الخطاب السياسي المغربي".
- محاورة مع "محمد المرشد الكميم". موضوعها: " في البحث عن بلاغة عربية حديثة".

المؤلفات:

له عدة مؤلفات ودراسات في البلاغة وتحليل الخطاب، تأليفا وتحقيقا وترجمة. نذكر منها:

- في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية. 1986.
- بنية اللغة الشعرية– جان كوهن– ترجم بمشاركة د.محمد الولي. 1986.
- الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. مارسيلو داسكال (بالاشتراك مع آخرين). 1987.
- ترجمة "البلاغة والأسلوبية" لـ : هنريش بليث. 1989.
- تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية. 1990.
- اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم. 1990.
- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية. 1991.
- الإفراني وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين. 17 م و 18 م. 1992.
- نظرية الأدب في القرن العشرين (مقالات مترجمة). 1996.
- تحقيق: المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل. محمد الإفراني. 1997.
- البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها. 1997
- دائرة الحوار ومزالق العنف. 2002.
- ترجمة: النص، بنيته ووظائفه. لـ فان ديك. 2005.

[2] ينظر تفصيل هذه الحوارات في الفصل الثالث من كتاب: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة لـ "محمد العمري".

- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، 2012.
- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة. 2013.

الفصل الأول

ماهية الحجاج قديما

الفصل الأول: ماهية الحجاج قديما

نظرا لما تكتسيه بلاغة الحجاج في الدراسات البلاغية المعاصرة، فقد ارتأينا أن نسلط الضوء أولا على ماهيته قديما، فابتدأنا بالغرب، وذلك حتى نقف على أهم المفاهيم والمصطلحات التي عرفها الحجاج، فتناولناه عند السفسطائيين وكيف تمت ممارستهم له، وإلى أي مدى اعتبر القول سلطة عندهم، وما مدى علاقته بالوجود، لنتعرض إلى أفلاطون واعتماده القول الخطبي صناعة موجهة لبناء المعرفة والقيم، ومن ثم ضبط حدود الخطابة وأركانها، لنصل إلى أرسطو وتقسيمه لأجناس الخطابة، وأصناف الحجاج، إلى حديثه عن الوحدات والأقاويل الحجاجية. أما عند العرب فقد انتقينا ثلاثة نماذج – حسب رأينا– تصلح أن تكون محل نظر ودراسة. فتطرقنا إلى الجاحظ وتصوره للبلاغة، وأهم صور البيان التي اقترحها، وقوفا على الصور التي اتخذها الحجاج في رأيه، لنعرج بعد ذلك إلى الجرجاني ونظريته في النظم، إلى حديثه عن الآليات الحجاجية التي طبعت الاستعارة، لنمر إلى السكاكي وتحديده لمركز البلاغة، ثم تقسيمه الكلام إلى مقامات، وصولا إلى تبيينه لفكرة المقام التي ارتبطت بمقتضى الحال.

إن التطرق للتنوع المفاهيمي الذي عرفته بلاغة الحجاج عند الغرب والعرب أمر لا مناص منه في فهم آلية الحجاج وكيف تم تناوله قديما، لأن ذلك يعد مدخلا ضروريا لاستيعاب أهم مصطلحاته في العصر الحديث.

أولا: بلاغة الحجاج عند الغرب

1 -الرؤية السفسطائية للحجاج

1 -1السفسطائيون وتعليم الناس الحجاج:

تعد السفسطائية تيارا فكريا برز منذ القديم في الحضرة الإغريقية، وذلك لما حملته في ثناياها من الخطب والمحاورات التي كانت تعقد آنذاك مما أسهم في تفعيل دور الخطابة وما لها من تأثير في قلوب وعقول العامة من الناس الذين أقبلوا عليها إن قبولا بها لأنها وافقت أهواءهم ومظنوناتهم، أو دفعهم إلى التسليم بها عن طريق المغالطة والإيهام. لذلك اشتهر السفسطائي بأنه رجل شديد الذكاء وواسع المعرفة والاطلاع، له من القدرات ما تؤهله أن يكون صاحب القرار في كل شيء، وبذلك تصبح الخطابة هي المنهل الذي يستقي منه السفسطائيون سلطتهم القولية التي تكون الحجة دعامتها ومرجعها الأول الذي لا غنى لهم عنه بغض النظر عن ماهية هاته الحجة صادقة كانت أم كاذبة، فراحوا يعلمون أهل أثينا والشبان منهم خاصة الخطابة وأصول امتلاكها.

(وما كانوا يعلمون شباب أهل أثينا من طرق الإحسان في الخطابة وما دربوهم عليه من الغلبة على الخصوم، بحق أو بغير حق، بل لقد دربوهم كيف يزيفون الحق ويقبحونه وكيف يزينون الباطل ويحسنونه...)[3]. واعتمد السفسطائيون بداية على توجيه الناس وإرشادهم إلى التفنن في أصناف القول، وحتى يتأتى لهم ذلك كان الحجاج وسيلتهم التي لا بديل عنها. وقد كانت قضايا الفكر ووجود الإنسان هي المعين الأول لظهور الحجاج عند السفسطائيين، فأعملوا كل تفكيرهم في معرفة ماهية القول وأهم ما يرمز إليه، لذلك حرصوا كل الحرص على الخطابة واتخذوها صناعة تتصدر كل الصنائع الإنسانية، فخاضوا في أدق المسائل الفلسفية وكانت لهم مواجهات مع أشهر الفلاسفة من أمثال "أفلاطون" و "أرسطو".(لقد كان للسفسطائيين ببلاغتهم أثر حاسم في تحريك التفكير حول العديد من المعضلات الفلسفية، فضلا عن الإثارة المنتجة لأبوي الفلسفة الغربية أفلاطون وأرسطو. وليس أدل على ذلك من أن نسقي هذين الأخيرين قد انشغلا، وضمن مساحة هامة فيهما، بالإجابة عن أسئلة السفسطائيين واستشكالاتهم ومجادلاتهم. هذه القدرة الخاصة على النزال الكلامي والمساءلة، أمنها لدى السفسطائيين تمكنهم من فن القول وحيازتهم لآليات الإقناع)[4].

وحتى تكون حجتهم أقوى وأدعى لتفنيد حجج غيرهم أمعنوا تفكيرهم إلى العناية بالحجاج ودعوا الناس إلى ممارسته. وفي حاجة الناس إلى ممارسة الحجاج يقول الباجي أبو الوليد: (وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا

---

[3] شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، د ت، ص 39.

[4] عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2013، ص29.

وأعظمها شأنا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال؛ ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجَّة، ولا عُلم الصحيح من السقيم ولا المُعوج من المستقيم) [5]. لذلك تهافت أبناء الأغنياء من المجتمع الأثيني إلى تعلم فن الخطابة حتى يحوزوا على أعلى وأشرف المراتب في السلطة، وليحققوا ذلك التجؤوا إلى السفسطائيين الذين ظهروا كمعلمين مهنتهم تعليم الناس الخطابة وفن الجدل، فأضحت الفلسفة بذلك وهي في يد السفسطائيين جدلا غايته الكسب السريع للمال خصوصا وأن السواد الأعظم من المتعلمين كانوا أبناء الأغنياء ينشدون السلطة والسياسة. (وهنا ظهر السفسطائيون لكي يزودوا هؤلاء بأسلحة الجدل والخطابة، واستعمال بلاغة الكلمة في المرافعات والمناظرات الحجاجية والخطابية. وقد تحولت الفلسفة آنئذ إلى فن الجدل بامتياز..)[6].

1 2الممارسة السفسطائية للحجاج:

مارس السفسطائيون الحجاج عن طريق الخطابة والجدل، فهم أوّل من دعا إلى إعداد الخطباء وتزويدهم بفن الحوار، فكانوا يعلمون الناس مقابل أجر معلوم،ومن أشهرهم "بروتاغوراس". واتجهوا إلى العناية بالقول، فهو الآلية المثلى لإحداث التواصل مع الغير ومن ثم حمله على التسليم بما يتلقاه من الأفكار والتصورات. (فالسفسطائيون كانوا يستعملون في الغالب سلطة القول في فضاءات السلطة بـ"المدينة"...)[7].

وكان اهتمام السفسطائيين منصبا حول تزيين القول ليؤدي الخطاب وظيفته، وحتى إن كان القول يؤدي في النهاية إلى الوقوع في المغالطة، وهذا ما أوقعهم في معاداة مع الفلاسفة الذين يرون بأن البلاغة الراقية هي البلاغة التي ترقى بالنفوس عن طريق القول الذي لا زيف فيه ولا خداع، وفي هذا إشارة إلى بلاغة السفسطائيين الذين بدورهم يرون أن الفلاسفة لا ينظرون إلى الحجاج بكونه صناعة للقول، وإنما هو قول موجه لصناعة الإنسان والمجتمع.

كان السفسطائيون يمارسون الحجاج في أثينا ويعدونه سلطة، وهم بذلك يرون فيه وسيلة إلى تحقيق الغاية التي ينشدها كل من يريد سلطة في المجتمع، فهذا "بروتاغوراس" وهو من أشهر السفسطائيين كان يعلم الشباب البلاغة وممارسة الحجاج، وبالتعليم نشر السفسطائيون الحجاج واتخذوه وجها يعكس الأحوال

---

[5] أبو الوليد الباجي : كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص8.

[6] جميل لحمداوي: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، دار إفريقيا الشرق، المغرب،2014، ص13.

[7] فريق البحث في البلاغة والحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منشورات فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس ا، 1998، ص51.

السياسية التي لها دور بارز في بناء المدينة. ولم يكن تعليمهم الناس صرفا، بل كانوا يشترطون أجرا معلوما مقابل ذلك. (كان السفسطائيون يمارسون سلطة الحجاج حينئذ ويقصدون بذلك إلى الحصول على سلطة في المجتمع وكانوا يعلمون الشباب من ذوي اليسار مسالك الاقتدار على الخطابة ويهيئونهم بذلك للسلطة وعلى ذلك كانوا يتقاضون مالا وفيرا حسب ما ذكر بعض الدارسين.)[8].

وبفضل هذه الممارسة للحجاج أخصبت البلاغة السفسطائية وأنتجت فن الجدل، فشاع الجدل بين المتجادلين وأضحى شغل كل مجادل أن يدحض ويفند رأي من يخالفه ويناقضه في قضية ما. (وهذا الضرب من المجادلة كان السفسطائيون يلقنونه للمتعلمين بغية الانتصار على خصومهم ضمن نقاش مليء بالتناقضات والمغالطات)[9].

وبهذا فإن الممارسة السفسطائية للحجاج كانت ممارسة تتجه إلى الجدل وتضليل الخصم، وتعتمد اعتمادا كليا على الشك للوصول إلى الغاية. (والغرض من ذلك هو إفحام الخصوم ذهنيا ووجدانيا، والتفوق عليهم في فن الخطابة والجدل السياسي والقضائي.)[10].

1 3سلطة القول:

اعتمد السفسطائيون كثيرا في إحكام تواجدهم داخل المجتمع الإغريقي على ما يسعفهم به اللسان الذي كان بمثابة السلاح في وجه الخصوم. (لأن السفسطائيين كانوا معلمي الخطابة وفن الإلقاء وتلقين المعارف يعتمدون على سلطة المنطوق، ولا يبالون بسلطة المكتوب. ولعل السبب في شيوع الثقافة الشفوية يرجع إلى ذلك النقاش "الديمقراطي" الذي كان يعتمل في ساحات أثينا؛ وتلك المرافعات القضائية التي كانت تجري في قاعات المحاكم (محاكمة سقراط مثلا) وكذا الخطب السياسية والعسكرية تُضاف إليها الأعمال الدرامية التي كانت تعرض على مسارح اليونان. ولهذا نلحظ أن الخطاب الشفوي كانت له سلطة ضاربة في ثقافة الإغريق...)[11].

وقد يكون آلية من آليات الإقناع التي بها يثيرون الجدل من أجل الجدل لا غير، وحتى تكون لهم كلمة الفصل في أي نقاش أو جدل كان يدار أو يعقد في المجالس، ولا سيما المدرجات اليونانية، اتجه السفسطائي إلى التشبث بالقول، وإلجامه بتقنيات وآليات حتى يكون مطابقا لحال المقام، ومن ثمة إقامة

---

[8] مرجع سابق، ص 61.

[9] مجموعة من المؤلفين: الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013 ، ج1، ص653.

[10] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص67.

[11] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص647.

الحجة والبرهان على من يقارعه السفسطائيون. (من هنا أخذت الخطابة (البلاغة) تمتلك ،من حيث هي خطاب، القدرة على تعبئة النفوس وتحريك العواطف واستمالة الوجدان؛ لأن السفسطائيين اصطنعوها مسلكا لإشاعة الثقافة الديمقراطية عن طريق تعليم فن الخطابة(البلاغة)، وتربية القادة من أجل حمل المسؤولية التي تبدأ من حسن تدبير الكلام، وهو مظهر من مظاهر "سوفسطائية السلطة" كما يسميها صاحبا منطق بور روايال)[12].

وهذه دلالة واضحة على أن السفسطائيين أولوا قيمة كبرى لما يتفوهون به في كلامهم، وأن بنائية القول عندهم لم تكن عفوية اعتباطية، بل كانت مؤسسة على مفاهيم استمدوها من خلال نشأتهم في بيئة الإغريق التي كانت مسرحا يعرض فيه كل ما له علاقة بالحياة السياسية والاجتماعية آنذاك.

وقد اشتهر السفسطائيون بخوضهم في مسائل فكرية تعد من صميم الفلسفة، وأطالوا فيها التفكير، وراحوا يشحذون هممهم لتفعيل سلطة القول عندهم، فقارعوا كبار الفلاسفة في أثينا. (وفي القول ومآتيه نازلهم أبوا الفلسفة الإغريقية أي "أفلاطون" و "أرسطو" فكان بين هذين وأولئك نوعان من الحجاج، حجاج بحجاج في مسائل فلسفية مختلفة، وحجاج في ما به ينبغي أن يكون الحجاج، خطابان متقابلان ناشران لنظرتين مختلفتين إلى وضع القول في علاقته بمسألتي المعرف والقيم الحاضنة للاجتماع الإنساني.)[13].

وعليه فإن السفسطائيين ساهموا في إعمال الفكر الإنساني ودعوته إلى التأمل في معضلات كثيرة شاعت في أوساط الإغريق لتكون سببا في حيرة كبار الفلاسفة الذين باروا السفسطائيين في ذلك. (والحيرة منشأ الفلسفة وغذاؤها الأول كما هو معلوم.)[14].

لقد أسهمت السفسطة –كتيار ظهر بأثينا– في خلق وإيجاد حركة فكرية كان فيها القول نواة أي جدال قائم ليتحول هذا القول إلى سلطة تفرض نفسها على أي خطيب أراد أن يخوض في أي مسألة من المسائل كانت، فبات السفسطائي صاحب السلطة مادام قوله هو القول الراجح فأحكم سلطته على الخطابة وصار ينعت بلقب الخطيب في أي مجلس قصده، ولا ريب في ذلك مادام يحسن فن القول ويفعِّله في محاججته مع الخصوم. لذلك كان السفسطائيون أصحاب صنعة، إنها صناعة القول إلى حد التسلط به، وميدانها هو الخطابة. (ولا عجب فقد جعلوا "الخطابة" في صدر الصنائع الإنسانية واعتبروا أن الصنائع

---

[12] مرجع سابق، ص47.

[13] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 51.

[14] المرجع نفسه، ص54.

جميعا من طب وهندسة ومعمار وغيرها لا يمكن أن يتحقق بها للإنسان والمدنية خير أو ترفدها سلطة القول.)[15].

1 4التسلط بالقول:

اعتمد السفسطائيون كما أشرنا سابقا على سلطة القول في محاججاتهم التي كانت تعقد بأثينا، إلا أنهم في كثير من الأحيان يعمدون إلى التسلط بالقول في ما يطرحونه من المعضلات والقضايا التي ينفردون بها دون غيرهم من الناس، متخذين القول وسيلة لتحقيق الغايات والمآرب التي يتطلعون إليها، ولكن أحيانا أخرى لا يجد السفسطائي نفسه قد انتهى إلى النتيجة التي يرضى وقوعها وينشد تحصيلها، ويتمنى رسوخها في الأذهان، فيلجأ إلى التسلط بالقول حتى تكون له السلطة العليا في المجتمع. (لقد وصلت البلاغة إلى قمة الغرور والأنانية مع السوفسطائيين؛ إذ صارت تعتقد السيطرة على العالم ومنفاعه من خلال الكلام.)[16].

كما قد يلجأ السفسطائي إلى ممارسة الكثير من الحجاج ليعزز مواقفه حتى تكون له الغلبة في مقابل إضعاف موقف الخصم حتى يدفعه إلى الرضوخ والاستسلام لما يسمع.(فالسفسطائي يمارس في الكثير الحجاج ليحقق غلبة ويظهر في صورة الفيلسوف أو ليبخس من شخص منافسه.)[17].

وقد كان هدف السفسطائي في ذلك أن يبدي وجهات نظره التي تقوم على إثبات دعواه في مقابل نفي وإبطال دعوى الخصم، من خلال عرض الحجة تلو الحجة دون تلكؤ أو تردد، وحتى يحصل له ذلك كان لزاما ان يمتلك القدرة على الارتجال في الكلام فهذا لوحده كفيل بأن يجعل من قوله سلطانا يمارس سلطة على المنافس فيسلم بما يسمع، وهذا هو دأب السفسطائي إذ له من المهارات الكلامية ما تؤهله للإجابة عن كل سؤال يطرح في مختلف المقامات وحول شتى الموضوعات. (وهذا ما تمثله مقامات الارتجال، التي يعد "بروتاغوراس" أول من ابتدعها.)[18].

وهذا ما أثار حفيظة الفلاسفة فكانت هناك صراعات كبيرة بين الفيلسوف والسفسطائي في مجال القول وسلطته، إذ كان يراه هذا الأخير أداة فعالة في التحكم بأمور السياسة وعنصرا مؤثرا في قلوب وأذهان العامة من الناس، ولا يمكن أن تنشأ الخطابة دون تواجد القول، قول فيه من السلطة ما فيه، وقد تصبح السلطة في القول تسلطا ينعكس على الخطابة فتبدو واحدة في مضمونها لا تتعدد مواضيعها بقدر ما

---

[15] المرجع نفسه، ص55.

[16] محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص178.

[17] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص130.

[18] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص693.

تكون هي سلطة في حد ذاتها موجهة لخدمة السياسة، وهذا ما جعل الفيلسوف يدعو إلى محاربة هذه السلطة التي حصرت الخطابة في زاوية ضيقة وتوجيهها إلى وجهة مثلى تقوم على خدمة المواطن وبناء صرح المدينة. (فالقول الخطبي (السفسطائي) لا ينحصر –حسب أفلاطون– في جنس الخطابة وإنما هو قول زئبقي يمكن له أن يتسلل لتحرر الخطابة من شرط تحديد الموضوع إلى فضاءات أجناس من القول أخرى...)[19].

وبذلك فإن الحجاج الذي اعتمده السفسطائيون في تناولهم للخطابة هو حجاج استهواء لا يقيم معرفة بقدر ما يبحث عن نفع خاص.

1 5علاقة القول بالوجود:

إذا ما تأملنا الآراء التي حملها السفسطائيون نجدها مركزة على الخطابة إذ يعدونها متصدرة لكل الصنائع الإنسانية، وبطبيعة الحال فإن الخطيب إذا ما هم بإلقاء خطابه فإنه يحرص كل الحرص على أن يكون قوله ملازما للوجود الإنساني وفيه من النفع ما فيه. (ومن قراءة فقرات للسفسطائيين معروفة أمكن لنا أن نستشف بعض خيوط تصل –حسب رأينا– وجهتهم في ممارسة الحجاج بتصورهم لعلاقة القول بالوجود والمعرفة والنافع ولعلاقة الإنسان بالإنسان في "المدينة" وهذه الخيوط تكشف لنا باجتماعها جوانب هامة من الأفق الفلسفي الذي أثيرت فيه مسألية الحجاج عند الإغريق.)[20].

وهذا يقود إلى اعتبار القول وثيق الصلة بالوجود وهو يعبر عنه ويقول عنه –حسب بعض السفسطائيين– فـ وهو من السفسطائيين لم يفصل بين القول والوجود واعتبرهما متداخلين في آن واحد.(وفي ذلك قال: كل خطاب كائن في الحق فالذي يتكلم يقول شيئا والذي يقول شيئا يقول الوجود والذي يقول الوجود كائن في الحق.)[21].

فهذه إشارة واحدة من "أنتيستان" على أن القول تعبير صادق عما يحدث في الوجود، فلا قول يقوم دون قيام وجود يخبر عنه ويدل عليه، فالعلاقة بين القول والوجود هنا علاقة استلزامية فكلاهما يستلزم حضور الآخر، كما أن حضور الفاعلية في القول يشترط فعالية وحركية في الوجود.

أما "قرجياس" فلا يرى بأن القول مترجم للوجود ولا يقول عنه.(فالقول عند "قرجياس" لا يقول الوجود)[22].

---

[19] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 56.

[20] المرجع نفسه، ص 57.

[21] المرجع نفسه، ص57.

[22] المرجع نفسه، ص58.

فهناك بون واسع بينهما. وإذا ما أعدنا النظر في مقولة "قرجياس" عن علاقة القول بالوجود نجده لا يعتدُّ بالقول في حد ذاته، وإنما في الأثر الذي يتركه ويخلفه. (فالقول عنده ليس فضاء لبناء المعرفة، معرفة الوجود وإنما هو فضاء التعامل بين الإنسان والإنسان ومن هنا نفهم أولوية الخطابة عنده، والخطابة هي بالأساس قول التفاعل بين الإنسان والإنسان بالقياس إلى الأقاويل الأخرى التي يهتم فيها أصحابها بالأساس بفحص جوانب مختلفة من الوجود. ومن مستلزمات هذا التصور أن لا يكون الهدف المقصود من الحجاج فحص الأفكار أو المواقف والبحث عن أقربها إلى الصواب بل التفاعل بين الإنسان والإنسان وبلوغ المقاصد المرسومة مسبقا لحركة الحجاج)[23].

إننا نستشف من هذا الكلام أن القول عن الوجود بنظر السفسطائيين مقياس حقيقي هو الإنسان، لأنه هو مصدره ومتلقيه في آن واحد.

2 الحجاج عند أفلاطون:

2-1 القول الخطبي:

شهدت أثينا تعاقب الكثير من الفلاسفة على مر العصور. ومن أشهرهم "أفلاطون" الذي ذاع صيته في اليونان لما قدمه من تصورات التي مست مسألة القول، ولم يدخر جهدا في مواجهته للسفسطائيين وإجابته عن الكثير من المعضلات التي ارتبطت بالخطابة وصناعة القول، فعدَّ الخطابة مواجهة لبناء أسس المعرفة والقيم خدمة للوجود الإنساني.(وانتهى "أفلاطون" –بعد الاستماع إلى مرافعات السفسطائيين والفلاسفة باسم "سقراط"– إلى تقسيم البلاغة إلى نوعين " إحداهما سيئة والأخرى جيدة": البلاغة السيئة هي التي تعنى بإنتاج الخطاب على أساس العرف والتوهيم "إنها بلاغة معلمي البلاغة والمدارس وبلاغة "جورجياس" والسفسطائيين". البلاغة الجيدة هي " البلاغة الفلسفية والجدل أيضا، وموضوعها هو الحقيقة ويسميها "أفلاطون" بسيخاغوجيا"، أي تربية النفوس بواسطة القول)[24].

إن طبيعة هذا القول –حسب "أفلاطون"– تتجسد في عمق الخطابة، ليكتسي القول سمة خطابية تستدعي معرفة تامة بالوجود، لذلك حصر "أفلاطون" القول الخطبي فيما يحقق المعرفة التامة بالوجود، ولفهم الوجود لزم إعمال العقل الذي به نتاج الفكر الموجه لخدمة الإنسان.(جاء"أفلاطون" ليقدم تصورا فلسفيا عقلانيا مجردا؛ إذ أعطى الأولوية للفكر والعقل والمثال، بينما لا وجود للمحسوس في فلسفته المفارقة

[23] مرجع سابق، ص 59.

[24] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص179.

لكل ما هو نسبي وعير حقيقي، ولأفلاطون –كما هو معروف– نسق فلسفي متكامل، يضم تصورات متماسكة حول الوجود والمعرفة والقيم)[25].

وحتى تتحقق هذه المعرفة بالوجود لابد من ممارسة الجدل في كل الأمور، وعلى رأسها الخطابة، فقد جعل "أفلاطون" القول الخطبي قولا ثابتا مخصوصا بموضوع بعينه ينشد منظومة من القيم المثلى وتحتضنه الحقيقة، لا كما حصره السفسطائيون بأنه قول يتخذ عدة أنساق. فالقول الخطبي –حسب"أفلاطون" – قول أصيل يستمد أصالته من جنس الخطابة على غرار القول الزئبقي السفسطائي الذي يعد حجاجا يبنى على الاستهواء والزيف والمغالطة لتحقيق اللذة للقارئ، وانسراب القول إلى أجناس من القول أخرى لا تمت للخطابة بأي صلة.(لقد اشتهر السفسطائيون باقتحامهم القول في الموضوعات دون عميق إلمام، لأن مقصدهم ارتبط بالإثارة والاستهواء، أما أفلاطون فلا يقر إلا الحجاج الذي يروم القيم ويتوخى الحقيقة)[26].

لذلك اعتمد "أفلاطون" في كل محاوراته مع السفسطائيين على الجدل فهو عنده بمثابة قول حجاجي، وسمة هذا القول أنه وسيلة للاتصال بالجماهير في المدينة.(والجدل عند "أفلاطون" منتهى العلم وكمال المعرفة وهو الوسيلة لبلوغ الحقيقة)[27].

وواضح أن هذه الحقيقة التي أشار إليها "أفلاطون" هي ما تتيح للنفس معرفة الخطاب الحقيقي الذي يقود إلى الخير الأسمى والفضيلة العليا.(إن موضوع القول الخطبي هو النفس، وهو لها بمنزلة الطبيب للجسم، إذ هو مطالب بمعرفة أنواعها وحالاتها ومعرفة الخطابات المناسبة لها أو المؤثرة فيها)[28].

وهذا على نقيض مع السفسطائيين حين جعلوا الخطاب الحقيقي مرتبطا بممارسة السلطة. وهذا ما دعا "ميشال فوكو" ينتقدهم بشدة حين قال:(لأن الخطاب الحقيقي بعد الآن لم يعد هو الخطاب القيم والمرغوب فيه، لأنه لم يعد هو الخطاب المرتبط بممارسة السلطة. لقد طرد السفسطائي)[29].

2-2 حدود الخطابة وأركانها:

إن الصراع بين السفسطائي والفيلسوف في أثينا عبر مراحل متعاقبة كانت طبيعته صراع قول لقول، فكانت الخطابة بذلك محل نزاع بين شقين متخاصمين، شق مثله السفسطائيون الذين جعلوا منها أداة

---

[25] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص14.

[26] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص43.

[27] المرجع نفسه، ص44.

[28] المرجع نفسه، ص44.

[29] ميشال فوكو: نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، التنوير، ص 08.

لتحقيق النفع المادي. وشق آخر مثله الفلاسفة الذين اتخذوا الخطابة أداة لتحقيق المعرفة والنفع العام للمجتمع في سبيل بناء المدينة.

فقد دعا "أفلاطون" في كل محاوراته إلى تخليص الخطابة من سطوة السفسطائيين الذين أساؤوا توظيف تقنياتها وربطوها بأفكار منحرفة شوهت جوهرها الذي يكمن في كونها ملكة بها نصل إلى تحقيق غايات سامية.

(فقد سعا "أفلاطون" سعيا حثيثا إلى محاربة كل أشكال التوظيف السلبي للملكة الخطابية (البلاغية) ولتقنياتها المتنوعة، وتخليص الخطابة من قبضة السوفسطائيين، والحرص على تنقيتها مما علق بها من "تصوراتهم الباطلة" و"ممارساتهم المنحرفة"، إنه بذلك يؤكد دعوة أستاذه إلى ضرورة " **تخليق**" الخطابة واستعمالها فقط للأغراض النبيلة والأهداف السامية)[30].

وهذا تصريح جلي من "أفلاطون" إلى تحديد الخطابة بحدود ترسم لها طريقا بينا يقيم أركانها ويضبط أهدافها. (وفي ضوء الطرح الأفلاطوني تحدد موقف الكثير من المفكرين في الغرب طوال قرون من "الخطابة" بما هي ممارسة لقول حجاجي وبناء لمعرفة في مجال القيم..)[31].

وهذا التعريف يقودنا إلى تحديد الحد الذي وصلت إليه الخطابة وهي في يد "أفلاطون" الذي يراها صناعة يكون فيها القول قائدا للنفس يوصلها إلى المراتب العليا من الأخلاق النبيلة، لا مجرد أقاويل مبثوثة بين الألسن لا تقيم وزنا للنفس ولا تحقق لها فضيلة. (فالخطابة عند "أفلاطون" ليست فضاء تفاعل قولي بين الإنسان والإنسان، بما في ذلك من علاقات معقدة ومقاصد مختلفة وتنوع في الرؤى وإنما هي فعل قولي"أخلاقي [...] فالسفسطائي يستعمل الخطابة لكسب قضية أما "أفلاطون" فذلك أمر لا يهمه وإنما يهمه تحقيق الفضيلة "للنفس" وإن كان ذلك على حساب الشخص)[32].

فنجاعة الخطابة تقاس بما تقدمه للنفس من شرف وفضيلة، ولها أركان تبنى عليها حصرها "أفلاطون" في ثلاثة هي: توظيف المنهج الجدلي، المعرفة التامة بالنفس وما يلائمها من القول، المعرفة بالأساليب التي توافق المقامات.

أما عن الجدل فهو يراه بأنه تقنية لا بديل عنها في بلوغ الحقيقة، وبه ينقل الحجاج من دائرة الظن والاحتمال إلى دائرة التثبيت واليقين. (وجملة القول أن "أفلاطون" أراد بالركن الأول من مشروعه أن يقصي

---

[30] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص49.

[31] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص53.

[32] المرجع نفسه، ص79.

من صناعة الخطابة "الظن" (أو المشهورات) و"المحتمل" وإذا كان "المحتمل" هو عمدة الخطابة عند السفسطائيين فهو أمر محتقر جدا عنده)[33].

أما الركن الثاني من أركان الخطابة عند "أفلاطون" فيتمثل في اختيار الأقاويل التي تناسب أنواع النفوس، فكل نفس لها قول مخصوص دون غيرها.(ومدار هذا الركن مبدأ التناسب (convenance) بين القول والسامع وهو مبدأ أساسي في الخطابة الإغريقية وفي البلاغة العربية كما هو معلوم)[34].

وأما الركن الثالث فيتمثل في صدقية القول وما يدل عليه وخلوه من الزيف والمغالطات التي اعتمدها السفسطائيون في استعمالهم للقول.

2-3 القول الحجاجي وصناعة القول:

لقد اشتهر "أفلاطون" بمعاداته القوية للسفسطائيين، معاداة تعددت أسبابها ونواحيها، لكنها غالبا ما ارتكزت حول صناعة القول وطرق وآليات بنائه، فشهدت أثينا بذلك حجاجا بلغ ذروته ومداه دفع بالفلاسفة إلى ضرورة تناول القول الحجاجي بالدراسة والتمحيص فجمعوا ما أمكنهم من الأقاويل والرؤى وراحوا يتعمقون في حيثيتها مما انعكس إيجابا على الحياة الفكرية والثقافية، فباتت أثينا حاضرة وقبلة تحتضن بين جنباتها الكثير من الحجاج.(ومن فضائل ذلك الحجاج على الفلسفة الإغريقية أنه كان لها بمثابة الخميرة كما ذكر مؤرخو الفلسفة ففلسفة "أفلاطون" تشكلت في جوانب أساسية منها)[35].

هذه الفلسفة هي التي جعلت "أفلاطون" يخشى على الخطابة من قبل السفسطائيين الذين أنزلوها منزلة حصرتها في جملة ما ينتجه الإنسان من الأقوال فالقول عندهم سلطة، لذلك رفض "أفلاطون" كل ما أنتجه السفسطائيون في مسألية القول فالجدل عندهم مقرون بالتوهيم والمقارنات التي تفضي إلى تضليل الناس، وبذلك اتخذ الحجاج مسارين اثنين: مسار مثله الفلاسفة يقود إلى الحق وتحقيق الخير المطلق، ومسار مثله السفسطائيون يقود إلى الوهم والنسبية.(رفض "أفلاطون" تصورات السوسفطائيين الجدلية لأنها مبنية على الخداع والتشكيك وتضليل الناس. ومن هنا، فقد ميز بين بلاغتين: بلاغة سفسطائية واهمة ونسبية خادعة وغير حقيقة. وبلاغة فلسفية حقيقية موضوعها إثبات الحق، وتفنيد الخطأ)[36].

فالقول الحجاجي عند "أفلاطون" قول سمته تحقيق المثالية للمجتمع على غرار القول الحجاجي السفسطائي فهو قول سمته تحقيق السلطة في المجتمع، ولفضح الممارسات السفسطائية للحجاج وتبيين أهم ما يقوم

---

[33] المرجع نفسه، ص82.

[34] المرجع نفسه، ص83.

[35] مرجع سابق، ص51.

[36] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص67.

عليه القول الحجاجي عقد "أفلاطون" عدة محاورات أهمها محاورتان اثنتان هما : "قرجياس" و"فيدر" حيث قدم فيهما نقدا لاذعا للقول السفسطائي. تناول في المحاورة الأولى (محاورة "قرجياس") الخطابة موضوعا ووظيفة.

(أما البحث في الموضوع فهو بحث عنده في مدى شرعية قيام هذا القول وأما البحث في الوظيفة فهو بحث فيما يقدمه هذا القول للإنسان في المدينة)[37].

وبذلك جعل موضوع الخطابة في مقابلة بين العلم والظن، فإذا ما اقترن القول الحجاجي بالعلم كان أدعى إلى تحقيق المعرفة للإنسان لما فيه من الصدق، وإذا ما اقترن بالظن كان غير مفيد لما فيه من الاحتمال والتوهم. كما أن وظيفة الخطابة هي الأخرى تمكن في شقين (اللذة والخير). والخير هو منبع الحق. فالقول الحجاجي مصدره قيمتان أساسيتان (العلم والخير). (وهكذا تتبين لنا مما سبق أبرز ملامح المنهج الذي اعتمده "أفلاطون" في تقييم القول. هو منهج بحث في صلة القول بالقيم)[38].

أما في المحاورة الثانية (محاورة "فيدر") فقد اشترط "أفلاطون" لصناعة القول شرطين هما: المعرفة التامة للحقيقة من لدن صاحب القول، وقدرته على جعل قوله نظاما متكاملا. (فالحجاج السفسطائي على أناقة شكله يقع –حسب الشرطين المذكورين– خارج ما تقتضيه صناعة القول الحقيقية و"أفلاطون" قصد حينئذ إلى إخراج ذلك الحجاج من فضاء القول تماما)[39].

ومما سبق يمكننا القول بأن نقد "أفلاطون" للسفسطائيين لم يكن منحصرا في أقوال حجاجية محضة فحسب، بل فيما يفرزه القول من أثر يسهم في بناء الإنسان والمدينة.

3 -النظرة الأرسطية للحجاج :

3-1 الخطابة عند "أرسطو" وأجناسها :

ارتبطت الخطابة قديما بالإغريق، وكان لهم باع طويل فيها وذلك لما لعبته من دور بارز في حياتهم القائمة على أجواء من الديمقراطية، جعلت "أرسطو" يبحث عن تعريف للخطابة، تعريف يزيل عنها الغموض لالتباسها بالجدل والشعر، فعرفها بأنها قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة. (وبهذا التعريف وما استتبعه من بحث في وسائل الإقناع والتأثير صار "أرسطو" أستاذا لمن بحث بعده في

---

[37] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 62.

[38] مرجع سابق، ص65.

[39] المرجع نفسه، ص74.

موضوع الخطابة من القدماء، واكتست نظريته في التأثير حسب الاحتمال، وما يقبله الجمهور أو يرفضه، أهمية كبيرة عند المحدثين)[40].

لقد رسم "أرسطو" للخطابة طريقها واعتبرها صناعة لا يمكن الاستغناء عنها. (فالخطابة عند "أرسطو" صناعة مدارها إنتاج قول تبني به الإقناع في مجال محتمل والمسائل الخلافية القابلة للنقاش بمعنى أنها علاقة بين طرفين تتأسس على لغة الخطاب)[41].

وتتألف الخطابة عند "أرسطو" من ركنين أساسيين: العرض والإقناع، وهناك من يضيف الاستهلال والخاتمة. (ربما كان "أرسطو" يرى أن العرض والحجاج لا غنى عنهما في الخطابة، ويعتبر الاستهلال والخاتمة مكملين يمكن للخطابة أو لأجناس منها أن تقوم بدونهما)[42].

ويقسم "أرسطو" الخطابة إلى ثلاثة أجناس: استشارية، احتفالية، قضائية. فأما الاستشارية فتكون في اللقاءات والمنابر السياسية والتجمعات الشعبية وموضوعها المستقبل وتعتمد على الشاهد، وأما الاحتفالية فتكون في المواسم والأعياد التي تقام في أولمب وموضوعها المدح لذلك تعمد إلى تفخيم العبارة وتزيينها فلا حاجة للحجاج فيها. (بل إن الخطيب يلقي خطابه على من يشاطرونه الرأي. وبسبب هذا التناغم ينتفي الدافع إلى للحجاج)[43].

وأما القضائية فيكون ميدانها المحاكم وتتميز بأنها خطابة تتعلق بالخاصة دون العامة، فهي تعتمد على القياس المضمر وكل هذه الأجناس من الخطابة يعد الإقناع عنصرا بارزا فيها، لذلك قسم "أرسطو" وسائل الإقناع إلى صناعية وغير صناعية. أما الثانية فهي وسائل توجد نفسها بنفسها ولا دخل للخطيب فيها(الشهود، الاعترافات،...). وأما الأولى فهي حجج صناعية تعد عصب الخطابة وتنقسم إلى:

- حجج المرسل (الإيتوس): ينبغي على الخطيب أن يكون موضوع ثقة عند المتلقي. يقول "أرسطو" :(العوامل التي تدعو إلى بعث الثقة في الخطيب ثلاثة، إذ أن هناك ثلاثة أسباب، من غير البراهين، تدفعنا إلى الثقة. هذه هي السداد والفضيلة والبر)[44].
- حجج المستقبِل(الباتوس): الغاية هنا هي التأثير على المتلقي حتى يميل إلى الخطاب.
- حجج الخطاب (اللوغوس): وهي ثلاثة أنواع: القياس المضمر، الشاهد،التفخيم.

---

[40] محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، دار إفريقيا للشرق، المغرب، ط2، 2002، ص19.

[41] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 12.

[42] محمد الولي: بناء الخطبة وترتيب الحجج عند أرسطو، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد 4، 2014، ص50.

[43] مرجع سابق، ص62.

[44] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص84.

ويمكن أن نمثل لهذه الأنواع بما يناسبها من أجناس الخطابة بالمخطط الآتي:

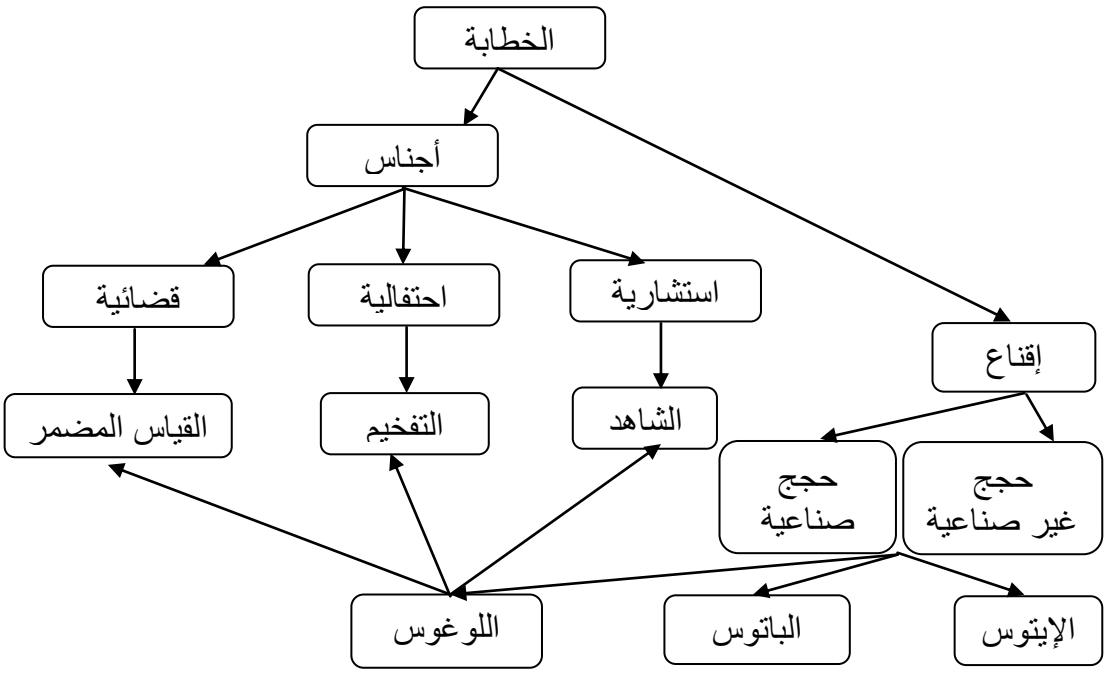

2-3 أصناف الحجاج :

يعد الحجاج مطلبا بلاغيا ضاربا بعمق في الحضارة اليونانية، إذ نشأ ضمن عمليات خطابية كانت له بمثابة المعين، فارتبط مفهومه بالخطابة والجدل على حد سواء، وتظهر نجاعته كونه فاسما مشتركا بينهما. فالخطابة هي فن يحيل إلى الإقناع ويكون الخطاب مسلكه، في حين أن الجدل ينطلق من دائرة الاحتمال ويكون الاستدلال مسلكه. (من هنا كان الحديث عن الحجاج عند "أرسطو" باعتباره فن الإقناع أو مجموعة التقنيات التي تحمل المتلقي على الاقتناع أو الإذعان وهو حديث يستدعي ضرورة مصطلحا آخر هو "الجدل" الذي عرفه "أرسطو" بكونه علم الاستدلال المنطقي..)[45].

وتجدر الإشارة إلى أن "أرسطو" قد قسم الحجاج إلى صنفين: حجج غير صناعية وحجج صناعية. أما عن الحجج غير الصناعية فهي حجج جاهزة حسب "أرسطو" لا دخل للخطيب أو المحاجج فيها وتتمثل أساسا في أدلة مصرح بها كالإقرارات والاعترافات والشهود والوثائق. أما عن الحجج الصناعية فجعلها ثلاثة أجناس. (وهي تعتمد إما على الباث وإما على المتلقي وإما على الخطاب ذاته أو اللوغوس)[46].

وسنركز حديثنا على النوع الثالث من الحجج الصناعية على اعتبار أن "اللوغوس" هو الذي يمثل روح الخطاب وماهيته، إذ يقسم بدوره حسب "أرسطو" إلى أنواع وهي القياس المضمر والشاهد والتفخيم.

---

[45] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011، ص ص 17-18.

[46] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص84.

يقول"أرسطو":(إنني أسمي المضمر قياسا خطابيا، وأسمي الشاهد استقراء خطابيا. كل الناس يبرهنون على إثبات إما بالشاهد أو بالمضمر، ولا يوجد غيرهما لأجل هذه الغاية)[47].

تلك الأنواع الثلاثة السابقة الذكر هي ما تعزز الحجاجية في الخطاب، ويتميز كل نوع منها بسمات نوجزها في الرسم التخطيطي الآتي:

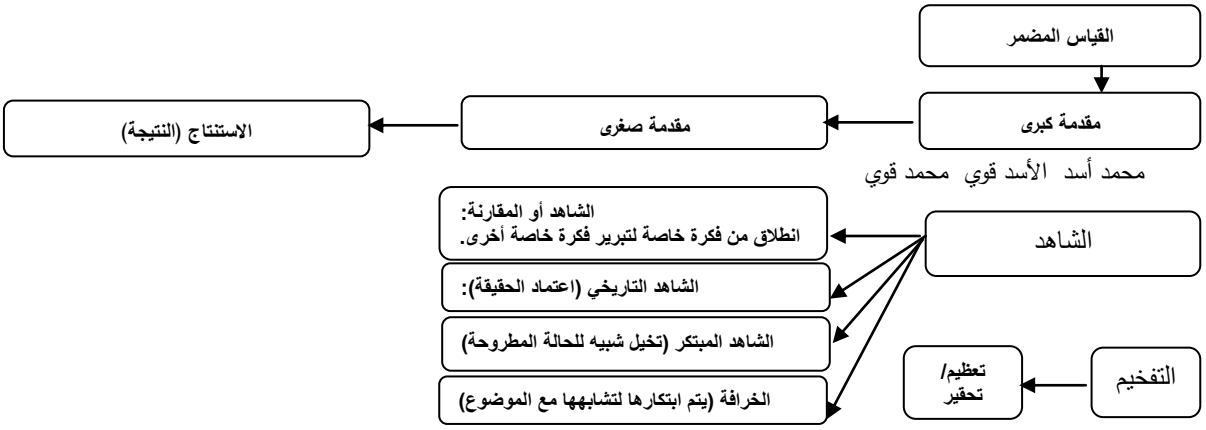

(والواقع أن ما نقوله عن المقومات الحجاجية النصية: المضمر والشاهد والتفخيم يمكن تعميمه أيضا حسب أرسطو على المقومات العاطفية: الإيتوس والباتوس)[48].

3-3 الوحدات الحجاجية :

اعتمد "أرسطو" على ما تمده به الخطابة والجدل، فتناول الخطابة بحجاج خطبي ضم حججا صناعية يسعى الخطيب سعيا لإيجادها واستحضارها، وحججا غير صناعية يعد الخطيب غير مسؤول عنها لأنها وجدت قبليا، ويشير "أرسطو" إلى أن الحجج الصناعية هي الأهم والأقدر على صناعة القول وتحقيق الإقناع. (لكن النوع الأول من التصديقات يبقى هو الأهم حسب "أرسطو" وبتتبع مستويات تحليله للحجاج المنتج بالقول أي الحجاج الصناعي في"المواضع" و"التبكيتات" و"الخطابة" نتبين أنه اشتغل على وحدتين حجاجيتين: وحدة حجاجية دنيا ووحدة حجاجية كبرى)[49].

ومن خلال هذا تنقسم الوحدات الحجاجية إلى قسمين:

- الوحدة الحجاجية الدنيا: وهي حسب "أرسطو" وحدة يتخذ فيها الحجاج شكلين من الاستدلال (القياس والاستقراء) اللذين يسمحان للباث (الإيتوس) ببناء تصوره أثناء عملية التخاطب، فيقيس كلاما بكلام إلى أن يصل إلى الحجة الأقوى والأقدر على الإقناع، ومن ثم تحدث عملية الاستقراء لما قيل وما يقال وما سوف

---

[47] Aristote,Rhétorique,éd, flammarion, Paris, 2007, p85.

نقلا عن: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 87.

[48] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص90.

[49] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص160.

يقال وذلك كله للوصول إلى بنية من الكلام جامعة. (وعلى هذه البنية المنطقية الجامعة يقوم حسب "أرسطو" البرهان والحجاج فالبرهان والحجاج عنده نمطان من الاستدلال لا يختلفان في الصورة بل يختلفان في المادة)[50].

فالحجاج والبرهان إنما هما أثران يبرزهما الاستدلال في التفاعليات الكلامية التي غالبا ما تكون ضمن فضاءات من الحوار والجدال لإبداء رأي واتخاذ قرار، فيتفق الحجاج والبرهان هيئة وشكلا ويتباينان جوهرا ومضمونا.

(فمجال تطبيق نظرية الحجاج يتجاوز مجال تطبيق نظرية البرهنة أيَّما تجاوز، ذلك أن الحجاجات تنهض على كل ما يمكن أن يكون موضوع إبداء رأي أو إصدار حكم قيمة أو حكم واقع أو موافقة نظرية، أو مناسبة قرار. توفر البرهنة أدلة ضرورية، أما الحجاج فيقدم أدلة لصالح أطروحة محددة أو ضدها)[51].

- الوحدة الحجاجية الكبرى: عد "أرسطو" الوحدات الحجاجية الدنيا السابقة هي الأساس لقيام الحجاج، لكنها لا توظَّف بمنأى عن الوحدات الحجاجية الكبرى التي تنطوي على مقدمات جدلية وخطابية تسهم بشكل كبير في تفعيل حركة الحجاج .

(وهكذا فإن مادة المقدمات في الجدل وفي الخطابة تسهم في بناء حركة اللزوم في الحجاج وهي حركة لا يقوم بدونها حجاج: المقدمات الجدلية تسهم في بناء حركة اللزوم بسلطة "المشهورات" و المقدمات الخطبية تسهم في بناء حركة اللزوم بسلطة "الضروري" أحيانا وسلطة "المحتمل" في الكثير)[52].

3-4 الأقاويل الحجاجية:

مسألية القول كانت هي الصنعة الرائجة وعلى مدارها كان الصراع قائما بين الفلاسفة والسفسطائيين، وهو صراع قول لقول، إلى أن جاء "أرسطو" الذي جعل القول صناعة موجهة إلى إنتاج أقاويل حجاجية فنقد من سبقوه، وعاب عليهم طريقة تعليمهم فنون القول للناس، فهم لا يعلمون الواحد من الناس كيفية إعداد القول بل يكتفون بأقوال جاهزة يلقنونها له فلا يزال على ذلك حتى يحفظها وهذا هو ممكن الخطر على القول، فيصبح الفرد مستهلكا له يجتره ليلا ونهارا فلا سبيل إلى إنتاجه وبذلك تضيع هاته الصنعة –صناعة القول– ويصيب اللسان العطب فيعجز عن إنتاج القول، وهذا ما حذر منه "أرسطو".

---

[50] المرجع نفسه، ص160

[51] صابر حباشة: التداولية والحجاج، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2008، ص69.

[52] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص165.

(فقد قال متحدثا عمن سبقه في تعليم الجدل: ما كانوا يعلمون الواحد من الناس صناعة عمل الأحذية ولا معرفة سبل الحصول على أشياء من هذا النوع بل كانوا يقتصرون على توفير أحذية متنوعة ويقدمون بذلك عونا عمليا لكنهم لا ينقلون إليه صناعة)[53].

وهذا القول متطابق مع المثل الشائع (لا تعط الفقير سمكة بل علمه الاصطياد) وحتى يكون القول قولا بحق كان لزاما تحقق سمة الحجاج فيه، هاته السمة التي تجعل منه قولا حجاجيا أصيلا يستمد هاته الأصالة من كونه يخاطب المتلقي (الباتوس) بحجج توافق آراءه وأهواءه.

(كانت البلاغة عند "أرسطو" نتاج فكر حر لا يلزم الجمهور بتلقي خطابات وقبولها، إلا بقدر تلاؤمها واعتقاداته وأفكاره استنادا إلى بنية مزدوجة تقبل الطرح والطرح المضاد..)[54].

وفي هذا النطاق يقول "أرسطو": (ويحصل الإقناع، حين يهيأ المستمعون ويستميلهم القول الخطابي، حتى يشعروا بانفعال ما، لأننا لا نصدر الأحكام على نحو واحد حسب ما نحس باللذة أو الألم، والحب والكراهية[...] والخطاب هو الذي ينتج الإقناع حينما نستخرج الصحيح والراجح من كل موضوع يحتمل أن يقع فيه الإقناع)[55].

لقد اهتم"أرسطو" كثيرا بصناعة القول في كتبه، وشدد على الآليات المنتجة للأقوال الحجاجية، فمثلا في كتابه "الخطابة" تناول آلية الإقناع، أما في كتابه "التبكيتات السفسطائية" فقد تحدث عن آلية القياس وكيف استخدمه السفسطائيون للمغالطة. (بل إن "أرسطو" نفسه يشترط حسن الاختيار والمعرفة بالمواضع لكي يستوي بها الخطاب ويضمن سلامته من السفسطة)[56].

كما تجدر الإشارة إلى إلزامية تسليط الضوء على المقول والمقول إليه فهما ركنا القول وعليهما مدار الأمر كله، وبتعذر أحدهما يفقد القول الحجاجي دوره في صناعة الإقناع، لذلك حرص "أرسطو" على هذين الركنين (الإيتوس والباتوس) وتناولهما بعناية في كتابه "الخطابة" ورأى أن الخطيب لا يصبح مقنعا بسبب أقواله الحجاجية فحسب، بل بما اكتسبه من ثقة الجمهور به وذلك كله يعود إلى تمكنه من ناصية الخطابة ومن سحرها الذي يأسر العقول قبل القلوب.

---

[53] المرجع نفسه، ص169.

[54] أمينة الدهري : الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ص5.

[55] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص25.

[56] عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2011، ص84.

ثانيا: بلاغة الحجاج عند العرب:

1-الجاحظ والبيان العربي:

1 1 تصوره للبلاغة:

لقد تناول "الجاحظ" البلاغة في كتابه 'البيان والتبيين" بصور كثيرة واختلف مفهومها عند الشعوب، فقد نقل إلينا الآتي: (قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ فقال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ فقال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ فقال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة)[57].

فهنا جميع التعاريف التي ساقها "الجاحظ" تقوم على حسن العناية بتراكيب الكلام، فكلما كانت العبارة واضحة المغزى، سليمة البناء فثمة البلاغة. (إنه في البلاغة يبحث في العبارة، أو يبحث في الأسلوب خاصة)[58].

وفي ذلك يقول "الجاحظ": (جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر)[59]. فالتماس حسن الموقع أن يورد المتكلم ألفاظه موردا حسنا بأسلوب رصين، فرب كلمة استحسنت في موضع ثم ما تلبث أن تستقبح في غيره، فالبليغ هو من إذا تكلم عرف حدود كلمه فأقام الوزن وتخير اللفظ بما يناسب المعنى، وبين اللفظ والمعنى ومناسبة أحدهما للآخر يقف أمر ثالث يحيل إلى جودة الأسلوب. (وليست البلاغة إذن منحصرة في إيجاد معانٍ جديدة ولا في اختبار ألفاظ واضحة، بل هي تتناول مع هذين الأمرين أمرا ثالثا هو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ بما يكسبها قوة وجمالا) [60]. فالبلاغة بهذا المفهوم هي امتزاج بين اللفظ الذي يكون في أحسن معرض، والمعنى الذي يكون في أحسن صورة بطريقة تجعل الألفاظ والمعاني كأنهما وضعتا في قالب واحد، فهما كوجهي الورقة الواحدة. وبهذه الثنائية من الكلام تكون البلاغة.

إلا أن الكلام إذا كان ضعيف التأليف، رث العبارة لم يسم بليغا وإن كان معناه جليا بائنا وهذا ما أشار إليه "الجاحظ" حيث أولى عناية كبيرة بالألفاظ دون المعاني. (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي

---

[57] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، ج1، ص88.

[58] بدوي طبانة: البيان العربي، مكتبة الأنجلومصرية، ط2، 1958، ص 58.

[59] البيان والتبيين، ج1، ص88.

[60] السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 ، 1999، ص ص 41-42.

والعربي، والبدوي والقروي،[والمدني]. وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج،[وكثرة الماء]، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير)[61].

وبذلك نلمس الجهد الذي بذله "الجاحظ" في تكريس قيمة الألفاظ التي أخذت كل اهتمامه، ولربما هذا ما دعا "الجرجاني" بأن يعمل فكره في دراستها من خلال نظريته "نظرية النظم". (فالجاحظ من أصحاب الصياغة ولذلك تسقط عنه تهمة الاهتمام بالشكلية والألفاظ، وإن كان كثير الاعتناء باللفظ واختيار ما يؤدي المعنى أداء حسنا، وهذه مهمة الأديب الذي يقدر قيمة الكلام ويبذل في سبيله أعظم الجهود، وقد كان "الجاحظ" أديبا كبيرا وعالما قديرا، فعنى بالألفاظ كما عنى بالمعاني وكان له الفضل في تصوير نظم الكلام) [62].

ويعرف "الخطيب القزويني" البلاغة بقوله: (والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، فالكلام البليغ هو الكلام الواضح المعنى، الفصيح العبارة، الملائم للموضع الذي يطلق فيه، وللأشخاص الذين يخاطَبون)[63].

والحال هنا يقتضي اختلاف مقامات الكلام وتباينها حسب المواطن التي يقال فيها، فمقام التنكير يخالف مقام التعريف، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ونفس الحال للتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب، كما أن درجات التخاطب تتباين هي الأخرى فما أخاطب به الذكي اللبيب لا يصلح أن أخاطب به الغبي البليد.

فالبلاغة إذن بهذا الاعتبار ترجع إلى قيمة اللفظ وما يؤديه داخل بنى الكلام –حسب "الجاحظ"–.(وواضح أن الجاحظ لا يقصد بـ(اللفظ) هنا، اللفظ المفرد أو الكلمات المستقلة بعضها عن بعض، وإنما يقصد ما ينتظم بالألفاظ من الكلام الذي يأتي (على مجاري كلام العرب الفصحاء)، وهو يرى أن اللفظ، أي طريقة التعبير عن الفكرة، مكون أساسي من مكونات العملية البيانية، وجزء مؤثر فيما تؤديه من دلالة)[64].

وبناء الألفاظ ليس متاحا لأي كان، بل هو حكر ومكسب لأصحاب الصنعة الذين يعرفون حدود الكلام ومعانيه. وفي هذا يقول "الجاحظ" :(وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، وحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم...والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر)[65].

---

[61] الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1965، ج3، ص ص 131–132.

[62] أحمد مطلوب: أساليب بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1980، ص 17.

[63] الخطيب الفزويني : تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، تقديم ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2002، ص 42.

[64] محمد كريم الكواز: البلاغة والنقد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص66.

[65] البيان والتبيين، ج1، ص90.

فهنا بلاغة الكلام عند "الجاحظ" تنحصر في الإحاطة بقدر كبير من لطائف الكلم ولا يكون ذلك إلا لصاحب صنعة وحسن دراية ببديع الألفاظ.(ومعنى هذا أن الكلام الذي يهم البلاغي ليس هو الكلام بمعناه الواسع، بل إنه كلام بليغ، ينتمي إلى الخطابة والشعر والقرآن والكتابة، وبالتالي فقيمته اللغوية والثقافية والاجتماعية أرفع شأنا من قيمة الكلام اليومي العادي، وهو يقتضي متكلما كفؤا ومخاطبا مؤهلا، فلا يشترط في الكلام البليغ أن يكون دالا فقط، بل ينبغي له أن يكون مميزا عن اللغو الساقط المطرح، وعن كلام العامة، وأن يكون من كلام الفصحاء والبلغاء)[66].

1 2 صور البيان عنده:

(قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجة نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مألوفا، والغُفل موسوما، والموسوم معلوما وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم)[67].

إذا ما تأملنا هذه الفقرة وأطلنا التدقيق فيها وجدنا فيها من المفاهيم المتزاحمة والمتداخلة ما يدل على حسن موردها وأصالتها. فهنا "الجاحظ" تناول مسألة البيان وتصدرها بفكرة المعاني، معانٍ تأخذ صورا متباينة لدى الناس فتكون في الفؤاد تارة وقد تنتقل إلى الأذهان كما قد تكون في الخاطر، وفي الحقيقة أن هذه المعاني لا توجد عرضية اعتباطية بل إن تواجدها وتمثلها من لدن الأفراد والجماعات أمر حتمي لا بد منه، فهي تعبر عن حضورهم وترسم جانبا مهما من حياتهم، وتوصف بأنها على درجات من الخفاء والجلاء والقرب والبعد والألفة والوحشة، وبذلك تكون المعاني على درجة من الغموض والإبهام فتصاب بالركود والجمود لفترة من الزمن، وما يعيد لها بريقها ونفَسَها استعمال الناس لها وحديثهم عنها وتوظيفهم

---

[66] حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص21.

[67] البيان والتبيين، ج1، ص75.

إياها، ومما لا ريب فيه أن تداول المعاني وسفرها اللامتناهي بين القلوب والأفئدة هو ما يكسبها تلك المرونة والقابلية للتطور والتجدد، هذه الصفة في المعاني هي التي تجعل الخفي ظاهرا جليا والمبهم مفسرا، والقاصي دانيا، والمهمل المبثوث مقيدا رصينا، والعام خاصا، والمستنكر مألوفا، والمجهول معلوما، كما أن جلاء المعنى ووضوحه لا يكون إلا بحسن بيانه. فهما هو البيان؟

(بيَّن بان عنه بينا وبينونة وباينه مباينة، ولقيته غداة البين، وبئر بيون بعيد القعر، وطول بائن ونخلة بائنة: طويلة)[68].

وكلمة البيان في أصل معناها اللغوي تدل على الوضوح والإبانة لفظا وكتابة. (وقد ظل مصطلح البيان لفترة طويلة من الزمان متسعا لمعانٍ كثيرة، منها الإعراب عما في النفس من خواطر وأفكار، ومنها مضاهاة معنى الفصاحة والبلاغة في جمال التعبير وتمام الدلالة)[69].

وبهذا الطرح فقد خرج البيان من كونه إفصاحا وإبانة إلى حد الامتزاج بالبلاغة في قالب واحد ليتسع بذلك مجاله وتتعدد مفاهيمه، هذه المفاهيم التي ترتبط ارتباطا وثيقا بقيمة اللفظ وما يحمله من الدلالات داخل إطار المعنى وهذا ما أشار إليه "الجاحظ". (والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا من كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل. لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت إلى المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)[70].

فالجاحظ أراد أن يكسب البيان صفة الجمع ليكون جامعا لكل دلالة دالة على لفظ أو منطوق يحيل إلى المعنى وإن كان بالإشارة دون اللفظ، كما أشار إلى مصطلح الدليل، والدليل هنا يمثل أي طريق أو مسلك أو نهج أو درب يوصل في النهاية إلى إدراك حقيقة المعنى الذي يدور أساسا حول الفهم والإفهام، وحيث ما عثر على المعنى فثمَّ البيان بعينه، فحضور الفهم إدراك للمعنى وفي إدراكه حصول للبيان.

الفهم ⟵ المعنى ⟵ البيان

وقد وردت كلمة البيان في القرآن وأفادت الظهور والإيضاح كما في قوله تعالى:(هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) سورة آل عمران، الآية 138. وقوله أيضا:(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)

---

[68] الزمخشري: أساس البلاغة، مادة، بيع، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1998، ج1، ص88.

[69] مصطفى هدارة: في البلاغة العربية، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص13.

[70] البيان والتبيين، ج1، ص76.

سورة القيامة، الآيتان 18–19. أما قوله تعالى:(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) سورة الرحمن، الآيات 1–4. والبيان ورد هنا ليدل على تميز الإنسان بميزة البيان.

وقد قسم "الجاحظ" أصناف الدلالات على المعاني إلى خمس دلالات هي: دلالة اللفظ ثم الإشارة ثم العَقْد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نِصبة. (والنِصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها)[71].

أولا: البيان باللفظ:

أن يسوق المتكلم اللفظ بقدر محدد يحيط إحاطة كافية تكون على قدر المعنى المراد، فمتى كان اللفظ قليلا في البناء كان محكما في الشفاه سهل التناول والتداول، فأحسن الكلام ما كان موجزا في العبارة غزيرا في المعنى. (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا من التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة)[72].

ثانيا: البيان بالإشارة:

ويكون ذلك بالإشارة باليد والرأس والعين والحاجب وما نحا نحوها. (فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليُّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه)[73].

كما قد تكون بالثوب والسيف والصوت، وكل هذه الإشارات تبين عن المقصود. فمثلا الإشارة باليد قد يفهم منها الصرف والطرد والإعراض كما قد يفهم منها التلويح والأمر بفعل أو ترك أمر ما. وقد يراد بها التحية وإظهار الرضا والقبول. والإشارة واللفظ شريكان ونِعْم المعين هي له. فكثيرا ما تغني الإشارة في إيراد المعنى عن الكثير من الألفاظ ومثال ذلك ما نراه اليوم من الصور الإشهارية التي تحيل إلى المعنى المقصود دون أن يحتاج الواحد منا إلى حشد كبير من العبارات والأقوال المنمقة، كما يمكن أن نعبر عنها ببلاغة الصورة

---

[71] المرجع نفسه، ص76.

[72] المرجع نفسه، ص83

[73] الحيوان، ج1، ص48.

وفي هذا يقول "الجاحظ": (والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْم العون هي له، ونِعْم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخطّ)[74].

وفي هذا دلالة واضحة على أن "الجاحظ" يولي أهمية بالغة لدلالة الإشارة وما ترمز إليه.(وهو ما يفسر الأهمية الكبرى التي تحتلها (الإشارة) كمنهج في التعبير البليغ في نطاق نظريته الأدبية والجمالية)[75].

ثالثا: البيان بالعَقد:

ويراد به الحساب والعد. قال الله تعالى : (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) سورة الأنعام، الآية 96.

وقال تعالى:(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) سورة الرحمن، الآيات 1-5.

وقوله أيضا:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سورة يونس، الآية 5.

وقال أيضا:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) سورة الإسراء، الآية 12.

فهذه الآيات كلها وردت لتدل على أهمية وفضل الحساب، فله معانٍ كثيرة وفوائد جليلة. فقوله تعالى:(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب)[76].

رابعا: البيان بالخط:

ويقصد به الكتابة والنسخ الذي يجعل المهمل مقيدا والمنطوق موثقا. وقد ذكره الله عز وجل في القرآن الكريم إذ قال وقوله الحق لنبيه عليه السلام:(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) سورة العلق، الآيات 3-5. وأقسم الله عز وجل بالقلم في قوله:(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) سورة القلم، الآية1.

خامسا: البيان بالنِصبة:

وأما البيان بالنِصبة فهي الحال الناطقة بدون لفظ ولا إشارة، ولا يمكن الوقوف على دلالاتها إلا بإعمال العقل وتدقيق النظر في المعاني التي تحيل إليها الأشياء كخلق السماوات والأرض وما سواهما من

---

[74] البيان والتبيين، ج1، ص78.

[75] حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص162.

[76] ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، دار ابن هيثم، القاهرة، ط1، 2005، ج4، ص 2749.

مخلوقات الله. (ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكتا)[77].

وهناك من لا يعد الدلالة بالنِصبة من الدلالات التي تحيل إلى المعاني وذلك لخلوها من القصدية.

(فإن النِصبة التي ذكرها الجاحظ لا تدخل في مجال استعمال العلامات للدلالة؛ وذلك لافتقارها إلى قصد المرسِل بوصفها الحال الدالة من غير نطق، أي أنها إشارة صامتة ومعبرة عن مكنونها بمظهرها الخارجي الذي يفضي إلى باطنها ويحث المتأمل على استكناهه واستبطانه)[78].

1 3 صور الحجاج:

لقد أعمل "الجاحظ" كل فكره إلى العناية باللفظ وما يحيل إليه من المقاصد داخل بنى الكلام، وهذا يقودنا إلى المكانة التي وضع فيها المتكلم باعتباره المنتج الأول للقول، والذي سماه "أرسطو" بـ(الإيتوس)، فحتى يكون كلامه حجة كان لزاما عليه مراعاة مقامات وأحوال الكلام الموجه إلى المتلقي (الباتوس)، فالخطيب إنما هو محاجج يملك من ناصية الخطابة وأصناف القول ما يؤهله أن يخاطب كل جنس من الناس بما يفهمون وهنا تكمن الحجة، فمدار الحجاج أن تبين عن الدال دلالة تفضي إلى مدلوله لدى السامع فيحصل له الفهم انطلاقا من قناعته بما يسمع.

(لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)[79].

فالجاحظ يحيلنا بهذه الفكرة إلى الجدوى من حصول الفهم، فبتحققه يتحقق الإقناع الذي هو غاية كل حجاج.

(ومعلوم أن غاية الحجاج هي استمالة القلوب وثني الأعناق –كما قررها "الجاحظ"– وهي غاية قد أحاطها "الجاحظ" بالخلق الإنساني الذي يضمن عدم انحرافها عن الحق والصدق! حتى لا تستغل الوسائل الحجاجية في تحقيق هذه الغاية بصورة مخادعة؛ فيتوهم صدق القضية وهي كاذبة؛ أو يتوهم نجاعة الفكرة وهي بائرة)[80].

---

[77] البيان والتبيين، ج1، ص ص 81–82

[78] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط2، 2015، ج2، ص356.

[79] البيان والتبيين، ج1، ص76.

[80] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص166

وهذا النوع من التوهيم هو ما مارسه السفسطائيون وهذا ما دعا "الجاحظ" إلى اجتنابه ومقاطعته لأنه منافٍ لمبادئ الإسلام التي تقوم على الصدق في القول، فأورد مثالا عن الحجة الدامغة الصادقة التي لا مراء فيها ولا بطر، حجة خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم.

(وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلَّت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق...)[81].

فجملة ما ساقه "الجاحظ" عن كلام سيد البشر من معرض حسن للعبارة، وقلة المبنى مع كثرة المعنى وغزارته، ومقارعة الخصم بما يعرف هو حجة عليه لا له، إلى الاحتجاج بالقول الحق لإثبات الحق، فهو احتجاج حقيٌّ حقيق للخطيب أن يحتج به، فكل ذلك يعد من صور الحجاج.

وإلى جانب ذلك نجد "الجاحظ" قد تناول الشاهد والمثل حين نقل إلينا ما قاله "محمد بن علي بن عبد الله بن عباس": (كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل)[82].

وهذا ما دفع "الجاحظ" إلى العناية بالشاهد والمثل في كتبه عناية من شأنها أن تمد الخطيب بما يحتاج إليه من الآليات والشواهد التي تقوي حجته وتعزز موقفه.

(ويرد مصطلح الشاهد في تراث "الجاحظ" مرادفا لمصطلحات أخرى، منها: الحجة، والدليل، والبرهان، والبيان، والعلامة)[83]. فكل هاته المصطلحات تصب في وعاء واحد إنه: الحجاج.

2- الجرجاني وبلاغته:

2-1 نظرية النظم:

إن الكلام عن النظم هو بالأساس حديث عن ذلك الالتحام الذي يقع بين العبارة والأخرى داخل بنية النص، وهو التحام يبرز القيمة النحوية و البلاغية والإعجازية للألفاظ التي عنيت باهتمام الباحثين إن قديما أو حديثا فتناولوها بالدراسة والتحليل. ويعد "عبد القاهر الجرجاني" بحق من الذين كان لهم الفضل في إغناء الدرس البلاغي والنحوي، بما قدمه من تصورات حول ماهية اللفظ والمعنى وما فيهما من الأنساق الدلالية

---

[81] البيان والتبيين، ج2، ص17.

[82] البيان والتبيين، ج1، ص86.

[83] عبد الله الرشدي: الشاهد الشعري وأسئلة البلاغة والتلقي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط 1، 2014، ص40.

التي تعين أو تعيق على الفهم، زيادة على توفر عنصر الإعجاز، لذلك حرص "الجرجاني" على تبيين عظم الكلام وما له من دور بارز في تخريج العلوم والوقوف على قدرها بمعرفة عامها من خاصها وصحيحها من سقيمها، وفي ذلك يقول "عبد القاهر":(اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان)[84].

وهو بذلك ينزل الكلام منزلة تضعه في دائرة النحو ولا سبيل إلى الخروج أو العدول عنها، فالنحو يقيم الكلام ويُحسِّن نظمه، وفي استقامته وحسنه ضمان للسياق النصي من اللحن والخروج عن المألوف، وبذلك تحدث المطابقة بين مقامات الأحوال وصنوف الأقوال.

(لقد أصبحت البلاغة..بتوجيهها إلى النظم، مع عبد القاهر الجرجاني، مبحثا مكملا لمباحث النحو.. تهتم بالمقامات وما يناسبها من عبارات،"تحرزا من الخطأ في مطابقة الكلام لمقتضى الحال")[85].

ذلك أن النحو هو ما يقيد العبارة ويضبطها بالشكل ضبطا تاما حتى لا تحيد عن الدلالة التي صيغت لها، كما أن التقديم والتأخير الذي يقع في الكلام لا يكون اعتباطيا. بل الإعراب هو من يحدد من حقه التقديم فيتقدم، ومن حقه التأخير فيتأخر. وهذا من شأنه أن يحدث تغييرا في المعنى، فقد يوجه السامع إلى وجهة غير التي يريدها المتكلم. وبذلك يحصل بون واسع بين المرسل والمتلقي، ويصيب الخطاب الوهن.

إن في مراعاة النحو وأحكامه لصونا للكلام من الزلل والعيِّ، فيبدو بذلك شريفا أصيلا، وهذا ما نبه إليه "الجرجاني" وحث عليه.

(والنحو عنده ميدان الكلام ومعياره ولا يستقيم المعنى في الكلام ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص)[86].

والحكم الإعرابي له ضوابط تضبطه، فلا يبقى على حالة واحدة فهو عرضة للتغيير إذا حدث تقديم أو تأخير في تراكيب الكلام، وهذا التغيير يكون إما في الترتيب الحاصل في الجملة فيكون الأول ثانيا والثاني أولا مع الحفاظ على الحكم الإعرابي لكليهما. وقد يُقدم أو يؤخر في الجملة مع تغيير في الحكم الإعرابي. (والتقديم على وجهين: تقديم على نية التأخير وهو ما يبقى المُقدَّم فيه على حكمه الذي كان له قبل التقديم مثل: (منطلقٌ زيد) و (عمرا ضربت) و(راكبا جئت) فلا يزال الأول خبرا والثاني مفعولا والثالث حالا. وتقديم

---

[84] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991، ص03.

[85] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 147.

[86] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: هـ. ريتر. إستانبول، 1954، ص 62-65-66 نقلا عن: أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973، ص58.

لا على نية التأخير وهو ما ينقل المقدَّم من حكم إلى حكم ومن إعراب إلى إعراب مثل(زيد ضربته) أصله: ضربت زيدا، فقدم المفعول به وجعل مبتدأ وأعرب بالرفع بعد أن كان منصوبا)[87].

والنظم عند "عبد القاهر" يمس كل معاني النحو من أسماء وأفعال وحروف على اختلاف حركاتها ومعانيها، وهو لا يتوقف عند الجملة فحسب، بل ينظر إلى تراكيب الكلام وما تتخذه من أشكال داخل بنية النص. (اعلم أن ليس "النَّظمُ" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعملَ على قوانينه وأُصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغَ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك، فلا تخلُّ بشيء منها. وذلك أنَّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه [...] فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه)[88].

فقد يكون الواحد منا عالما بمعاني النحو، لكنه قد يكون جاهلا لمدلولاتها التي تؤديها ضمن نسيج النص، فلكل معنى من معاني النحو موضع يطلق فيه.

(وبعبارة واحدة، فإن فعالية النص وقوته لا تعود إلى اللفظ وحده، بل إنها تتعلق، وربما أساسا، بالتركيب والتأليف، أي بما يسميه الجرجاني: النظم، فهو العنصر الجوهري الذي من دونه لا يمكن الحديث عن النص)[89].

2-2 الآليات الحجاجية للاستعارة :

تعد الاستعارة من أهم المباحث البلاغية التي شغلت الباحثين قديما، وهي وثيقة الصلة بالمجاز والتشبيه، فقد اهتم بها البلاغيون والنقاد وعدوها أمرا لا بد من تناوله كونها عنصرا ضروريا في النثر عامة وفي الشعر خاصة، وأضحت اليوم تكتسي آلية حجاجية لا سبيل إلى الاستغناء عنها، لذلك نجد "عبد القاهر الجرجاني" لم يكتف بآراء وتصورات من جاء قبله، بل أراد أن يبني تصورا آخر للاستعارة يضعها في إطارها الصحيح كوجه بياني له أطره وضوابطه التي تميزه عن الصور البيانية الأخرى. (يتحدد موضوع الاستعارة –عند عبد القاهر– في أنك تثبت بها معنى لا يعرفه السامع من اللفظ ولكنه يعرفه من معناه. بين ذلك أنك عندما تقول : "رأيت أسدا" –في مقام الحديث عن رجل– فإن سماعك لا بد أن يعرف أن غرضك

---

[87] أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973، ص60.

[88] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984، ص ص 81-83.

[89] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ص 211-212.

هو أن تثبت للرجل الذي تتحدث عنه أنه مساوٍ للأسد في شجاعته وجرأته. والسامع عندما عقل هذا المعنى فإنه لم يعقله من لفظ "أسد"، نفسه ولم من معناه الضمني الذي يحدده وضعه الخاص داخل سياق بعينه)[90].

وبذلك تعد الاستعارة عند "عبد القا هر" طريقة يثبت بها المتحدث ما يريد قوله عن الشخص المقصود بالحديث، فينسب إليه من الصفات ما يشاء وكل ذلك يتم بأسلوب ضمني لا تصريحي. وهنا المكمن البلاغي والحجاجي للاستعارة، في بسطها وادعائها معانٍ وصُورا لأسماء فتنسب لأسماء أخرى لمشاكلتها إياها. (ليست "الاستعارة" نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنها هي ادعاء معنى الاسم لشيء، إذ لو كانت نقل اسم وكان قولنا: "رأيت أسدا"، بمعنى: رأيت شبيها بالأسد، ولم يكن ادعاءً أنه أسد بالحقيقة لكان محالا أن يقال: "ليس هو بإنسان، ولكنه أسد" أو "هو أسد في صورة إنسان "، كما أنه محال أن يقال: "ليس هو بإنسان، ولكنه شبيه بأسد" أو يقال: "هو شبيه بأسد في صورة إنسان")[91].

فـ"عبد القاهر" هاهنا يؤصل لمبحث الاستعارة، إذ ربطها بمفهوم جديد تمثل أساسا في "الادعاء" الذي لم يتفطن له الكثير من الدارسين السابقين، وحتى إن تناولوه فذلك بإشارات وتلميحات لا تعدو أن تكون من صميم الغوص في الاستعارة لاستخراج دررها الحجاجية التي تقبع كامنة وراء ستار "الادعاء"، هذا الستار الذي سعى "طه عبد الرحمن" سعيا حثيثا إلى الكشف عن جوهره ومكنونه عند "عبد القاهر" بتحقيق مذهبه وقوله فيه.

(ونحن الآن نحقق مذهبه في "الادعاء" لاسيما وأن هذا المفهوم لم يقف، في نظرنا، على حقيقة مدلوله من اشتغلوا بتقويم إنتاجه على كثرتهم وتفاوت مواقفهم، فقد اكتفى هؤلاء بالتلويح بهذا المفهوم تلويحا، وبنقل بعض النصوص المتنقلة به نقلا، من غير التجرد لتبين المقتضيات الإجرائية التي ينبني عليها، حتى إن بعضهم لم يعقل منه أكثر من معنى "الزعم")[92]. والزعم هنا إما أن يكون باطلا أو حقا. ولكنه يستعمل كثيرا في الباطل. (زعم فلان أن الأمر كيت وكيت زَعما و زُعما ومزعما إذا شككت أنه حق أو باطل وأكثر ما يستعمل في الباطل، وزعموا مطية الكذب)[93].

وذلك نقيض الادعاء الذي هو إثبات صفات توافرت في المستعار له فاستعيرت لتشاكل صفات المستعار منه، وحتى يكون "الادعاء" خادما للاستعارة ومبرزا لآلياته الحجاجية وجب التوجه إلى العناية بمبادئه التي

---

[90] جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1992، ص 224.

[91] دلائل الإعجاز، ص 434.

[92] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 304.

[93] أساس البلاغة، ص 415.

جعلها "طه عبد الرحمن" ثلاثة تمثلت أساسا في : المطابقة والمعنى والنظم. (أولها، مبدأ ترجيح المطابقة: مقتضاه أن الاستعارة ليست في المشابهة بقدر ما هي في المطابقة)[94].

فمثلا جملة: "رأيت أسدا" ليس المراد منها تشبيه الرجل بالأسد فحسب، –وهذا هو ظاهر اللفظ– بل المبالغة في ذلك إلى حد المطابقة حاصلة بين صفات توافرت في الرجل لتجد مثيلاتها في الأسد (القوة، الجرأة، الشجاعة).

(وأما –رأيت أسدا– إذا حملت على الاستعارة فإن الدلالة على الشجاعة قوامها المبالغة في تشبيه الرجل بالسبع على غير ما يوجبه ظاهر اللفظ) [95].(والثاني، مبدأ ترجيح المعنى: مقتضاه أن الاستعارة ليست في اللفظ يقدر ما هي في المعنى) [96]. وفي معرفتنا لهذا المعنى معرفة لمعنى آخر وهو ما أطلق عليه "الجرجاني" معنى المعنى: (وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههُنا عبارة مختصرة وهي أن تقول : "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهومَ من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنىً، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر)[97].

(والثالث، مبدأ ترجيح النظم: مقتضاه أن الاستعارة ليست في الكلمة بقدر ما هي في التركيب)[98].

فالعناية بتأليف الكلام على وجه مخصوص هو ما يضمن للاستعارة تحصيل المعنى. (ويعرض عبد القاهر لبعض أمثلة الاستعارة مبينا أن جمالها إنما يرجع قبل كل شيء إلى حسن الصياغة والتأليف)[99].

3 البلاغة عند السكاكي:

3-1 مركز البلاغة:

لقد ارتكزت البلاغة قديما على البديع وكان ذلك مع "ابن المعتز"، وظلت على هذه الحال إلى أن جاء "السكاكي" وبمجيئه عرفت البلاغة معنى آخر، فأضحت رديفة لعلمي(المعاني والبيان) اللذين بهما تعرف أحوال ومقاصد الكلام ومقاماته. وبذلك وضع البديع في زاوية ضيقة بمنأى عن البلاغة. (هذا مع العلم بأن السكاكي لم يجعل البديع في مستوى واحد مع المعاني والبيان، أي لم يعتبره علما، بل مجرد ذيل للمعاني والبيان؛ يضم صورا تعبيرية لا يجمعها غير كونها ذات طبيعة تحسينية: محسنات لفظية ومعنوية)[100].

---

[94] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 305.

[95] شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 30.

[96] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 305.

[97] دلائل الإعجاز، ص 263.

[98] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 305.

[99] البلاغة تطور و تاريخ، ص 192.

[100] محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012، ص 445.

وفي تعريف البلاغة يقول "السكاكي": (هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها)[101].

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نستشف رؤية "السكاكي" للبلاغة، فهي رؤية مقتصرة على : علم المعاني أولا، وذلك بأن يحرص المتكلم كل الحرص في إبانته للمعنى أن يعطي لكل باب من أبواب علم المعاني حقه من التأليف والنظم داخل نسيج النص، ثم علم البيان ثانيا بأن يسوق كل نوع منه على وجهه الذي وضع له، وفي مطلع حديثنا عن البلاغة عند "السكاكي" نجد البلاغي المغربي "محمد العمري" قد جعلها متقاطعة مع ثلاثة مباحث متداخلة (النحو، المنطق، الشعر) وبناء على ذلك نجده يقول: (فإن بلاغة السكاكي تقع عند تقاطع ثلاثة مباحث متداخلة ومتنافرة في الوقت نفسه، هي النحو والمنطق والشعر (الشعر باعتباره رؤية وتشكيلا للغة. وسنعوضه هنا بلغته الواصفة الأكثر ارتباطا به، وهي البديع بمفهومه الواسع عند ابن المعتز ومن سار في طريقه) وبذلك يمكن تمثيل بلاغة السكاكي بالتقاطعات التالية:

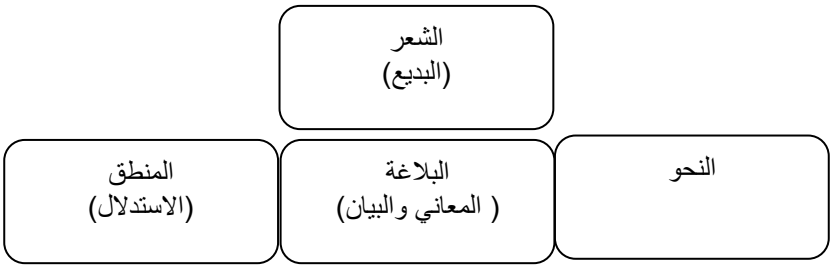

)[102].

كما أشار "السكاكي" إلى أن البلاغة يتنازعها طرفان: طرف أول يتجسد في بلاغة القرآن التي أعجزت البلغاء والفصحاء من العرب على أن يأتوا بمثلها، وطرف ثانٍ يتمثل في بلاغة الإنسان، وهي ليست بلاغة واحدة بل تتعدد تبعا لتعدد أصناف القول بين بني البشر. (فالبلاغة بعلميها طريق للذوق، والذوق طريق لفهم الإعجاز وإدراكه، وذلك أن الذوق يتفاوت تفاوتا في أداء مهمته بحسب فهم علوم البلاغة التي عبر عنها السكاكي: "بطول خدمة هذين العلمين..." يعني المعاني والبيان)[103].

ثم يتعرض "السكاكي" إلى مسألة الفصاحة التي لم يذهب فيها بعيدا عن آراء "ابن سنان" فجعلها فصاحتين: فصاحة في المعاني وفصاحة في الألفاظ، أما الأولى فشرط فصاحتها مقترن بخلو تراكيب الكلام من التعقيد والغرابة، وأما الثانية فشرط فصاحتها أن تكون مفردة الكلام فيها عربية قحة لا تشوبها شائبة. أما خلو الكلام من التعقيد فأن يكون صاحبه قد الحسن من الحسن والإبانة ما يبين إلى شرف

---

[101] السكاكي: مفتاح العلوم، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، 1982، ص69.

[102] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص ص 46-47.

[103] مفتاح العلوم، ص 70.

معناه. وأما فصاحة اللفظ (أن تكون الكلمة عربية أصيلة، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أَدْوَر واستعمالهم لها أكثر، لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة، وأن تكون أحرى على قوانين اللغة وأن تكون سليمة من التنافر)[104].

ويشار إلى أن "السكاكي" لم يجعل الفصاحة لازمة للبلاغة. (وجعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة التي حصر مرجعها في المعاني والبيان، ولم يجعل للفصاحة مرجعا في شيء منها، وهو في ذلك يتابع عبد القاهر والرازي اللذين نظرا إلى النظم ولم يوليا اللفظ المفرد أهمية كبيرة)[105].

أما آراء "السكاكي" حول علمي البلاغة. (فهو يرى أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)[106].

إنه هنا يؤكد على ضرورة المعرفة الكاملة بالكلام ومظانّه، فالمقاصد مبسوطة كثيرة والتراكيب في ذلك أكثر، وإنما الغاية من هذا كله أن يورد المتكلم كلامه ويحسن نظمه حتى يطابق ما يقتضيه الحال ويمليه المقام.

(وعلم البيان هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك الخطإ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه)[107].

فهنا يشير إلى التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ متباينة، فإن هذه الألفاظ على تباينها تؤدي مقصدا واحدا هو وضوح وجلاء الفكرة سوءا بالزيادة أو النقصان. (ولتوضيح مجمل هذه المفاهيم نعرض الأمثلة التالية: (9) زيد كريم (10) زيد سخي (11) زيد كالبحر (12) استضافنا البحر (وأنت تقصد زيدا) (13) زيد كثير الرماد. تُمنع علاقة الترادف بين (كريم) و (سخي) في (9) و (10) تباعا من أن يكون أحد القولين أوضح من الآخر. فالدلالة الوضعية للكلمتين والقولين واحدة. إلا أن القول (11) أخفى منهما لأن دلالته على الكرم مستفادة مما يكون بين زيد والبحر من علاقة ضمنية تمكننا، ثقافيا على الأقل، من أن نرى سخاء زيد كسخاء البحر. ووجه الشبه هذا عقلي يستخلص بالاستدلال. وعلى الرغم من هذا الجانب الضمني المميز للتشبيه غير التام فإن (11) أقل خفاء من (12) إذا قصدت بالبحر زيدا الكريم.

---

[104] أساليب بلاغية، ص 42.

[105] المرجع نفسه، ص 42.

[106] مفتاح العلوم، ص 71.

[107] المرجع نفسه، ص 71.

وذلك أن الاستعارة تتطلب استدلالات مقالية ومقامية أقوى بحكم انبنائها على تشبيه سابق. وتمكننا هذه الآلية الاستدلالية نفسها من أن نكتسب مفهوم سخاء زيد من القول (13))[108].

وعليه تعد الدلالة في المثالين (9) و (10) دلالة تحتكم إلى الوضع فهي دلالة وضعية غايتها الإبلاغ وإحداث التواصل، أما الدلالة في الأمثلة (11) (12) (13) فتعد دلالة تحتكم إلى العقل والاستدلال فهي دلالة عقلية غايتها البحث في المقامات عن مقاصد المتكلم وهنا هو مكمن البيان.

3-2 مقامات الكلام:

يقول "السكاكي" : (لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الاستنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار وجميع ذلك معلوم لكل لب يب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك غير مقتضى الآخر)[109].

فهنا يشير"السكاكي" إلى الكلام ومقاماته العديدة، ووجوب أن يكون المقام على قدر المقال، فلا يرثي المتكلم في حال التهنئة كما أنه لا يهنئ في حال التعزية وقس على ذلك، فالمطابقة بين الألفاظ وما تحيل إليه من الدلالات أمر حتمي يعد من صميم البلاغة، كما أن المعرفة بالخطاب وأجناسه يسهل عملية نظم الكلام ليوافق الأحوال والمقاصد، فلكل نوع من الخطابات جنس مخصوص من القول، وفي ذلك يقول "الجاحظ" :

(ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال. وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهٍ... وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها، ويأخذ بأكظامها)[110].

وبذلك فالمتكلم البليغ هو من يحسن وضع اللفظ في مورده الذي يحسن أن يقال فيه، وأن يكون ملما بقيمة الألفاظ ومقاماتها. (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على

---

[108] الاستدلال البلاغي، ص 79.

[109] مفتاح العلوم، ص 350.

[110] الحيوان، ج3، ص 39.

أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)[111].

وبعد أن أشار "السكاكي" إلى مقامات الكلام ووازن بين كل مقام ونقيضه، تحدث عن الحسن في الكلام ومطابقته لمقتضى الحال. (ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسن مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال)[112].

وبناء على ذلك فإن مقامات الكلام تقع ضمن نسيج من الخطابات التداولية والتي من شأنها أن تفرز لنا عبارات ذات طبيعة تواصلية تكون مناسبة لمقتضى الحال. (وذلك أن كل عبارة متلفظ بها ينبغي ألا توصف فقط من وجهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام الإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة. ووصف هذا المستوى التداولي من هذا القبيل هو الذي يهيئ شروطا حاسمة لغاية إنشاء وتركيب جزء من ضروب التواضع والاتفاق مما يجعل العبارات مقبولة أعني أن يصير تركيبها مناسبا لمقتضى الحال بالنظر إلى السياق التواصلي)[113].

لقد ارتكزت بلاغة "السكاكي" على السياق التواصلي حيث جعل علمي المعاني والبيان يقومان على فكرة المقام الذي به تتحدد طبيعة الكلام في مدى مطابقته لمقتضى الحال. (هكذا تتحدد لدى السكاكي عناصر بلاغة مقامية أساسها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال" وتوافقه مع سياقات تلفظه، والملاحظ أنه لم يقصر المقام على الموقف الخارجي، بل اعتبر العلاقات بين المكونات اللغوية مقاما داخليا ملزما[...] فالحال يبين الخطاب والخطاب يبني بعضه بعضا، بهذا الانتباه، لا يكون السكاكي بعيدا عن جهود التداولية في اللسانيات الحديثة)[114].

وإلى جانب ذلك كله لم يهمل "السكاكي" في تناوله لمقامات الكلام "المستمع" والذي يطلق عليه "أرسطو" لفظ "الباتوس" لكونه ركنا أساسيا في عملية التخاطب وعليه تبنى مقاصد الكلام داخل السياق النصي، فعلى المتكلم أن يراعي أحوال السامعين أثناء التخاطب، وطبيعة هذه الأحوال لا تكون مطلقة بل هي نسبية متغيرة غير ثابتة، فالحال أحوال والمقام مقامات. (لا يغيب عن بلاغة السكاكي المقاصدية الاهتمام بالمستمع، بحيث لا تتحدد قيمة الكلام إلا بقدر ما يواتي حال المخاطب أو يجيب عن حاجاته، ومن ثم

---

[111] البيان والتبيين، ج1، ص ص 138-139.

[112] مفتاح العلوم، ص 350.

[113] فان دايك: السياق والنص، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص ص 18-19.

[114] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص ص 76-77.

قسم أبو يوسف الكلام، بحسب تمام المراد منه إلى نوعين: كلام خبري يروم إخبار السامع عن أمر أو شيء، وكلام طلبي يقوم على استدعاء مطلوب منه. والفيصل في هذا التصنيف المقصد والسامع)[115]. فالمخاطب دعامة مهمة في بناء الخطاب، وضمان لفعاليته، فلا يمكن الجزم بنجاعته إلا بمدى تحقق التفاعل والتواصل بين المرسل والمرسل إليه ضمن مقامات وأحوال الكلام. (إن مراعاة الحال تعني أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار كل ما يتعلق بالمخاطب لغويا واجتماعيا وذهنيا وثقافيا ونفسيا، فالمخاطب عنصر أساس في عملية التواصل والإقناع، ليس باعتباره غاية الخطاب فقط، بل باعتباره عنصرا أساسا في بنائه وتكوينه)[116].

3-3 مقتضى الحال (فكرة المقام):

ارتبطت البلاغة وهي في عهدة "السكاكي" بمدى المعرفة التامة بعلمي (المعاني والبيان) فاختص علم المعاني بتقصي تراكيب الكلام وما يحيل إليه من المقاصد، ومنه كان هو ذاك العلم الذي يمثل رديفا لمطابقة الكلام لمقتضى الكلام، وهذا ما نجده في تراثنا العربي ينطوي تحت مقولة: "لكل مقام مقال". وتبعا لذلك تنشأ علاقة بين حسن الكلام ومقتضى الحال. وفي هذه العلاقة يقول "السكاكي": (فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة وإن كان مقتضى الحال طيَّ ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصا بشيء من التخصصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها. وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معه أو الإطناب أعني طيَّ جُملٍ عن البين ولا طيُّها فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك) [117]. فمقتضى الحال يكون شديد الصلة بالتراكيب. (أما مقتضى الحال فألصق بخصائص التراكيب المحققة لهذه الأغراض العامة)[118]. وهنا يقصد بالأغراض العامة مقامات الكلام وقد أشرنا إليها سابقا في مطلع حديث "السكاكي" عنها. وأما حسن الكلام فهو أن تسوق كلامك حسب اعتبارات مناسبة تحقيقا لغرض من الأغراض هو أقرب لمقصدك.

---

[115] مرجع سابق، ص 77.

[116] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 455.

[117] مفتاح العلوم، ص ص 350-351.

[118] الاستدلال البلاغي، ص 75.

(ولئن كان حسن الكلام رهين إيراد الكلام بحسب الاعتبار المناسب فإنه يكون أيضا بتوجيهه إلى اعتبار مخالف لمقتضى الحال لتحقيق أغراض أخرى في الخطاب)[119].

(وعلى ضوء مراعاة مقتضى الحال صنفت البلاغة العربية، فيما بعد المخاطبين الذين يلقى إليهم الخبر إلى ثلاثة أصناف:

1- مخاطب خالي الذهن.

2- ومخاطب شاك متردد.

3- ومخاطب جاحد منكر.

وتتصاعد درجة تأكيد الخطاب حسب هذا الترتيب، وقد يوضع كل واحد منهم مكان الآخر حسب الملابسات التي يحددها المقام)[120].

ويمكننا أن نستشف طبيعة هاته الملابسات بربطها بمعيار أشار إليه "السكاكي" هو معيار "العدول". (وهذا المعيار هو في ما فهمناه من شاهد السكاكي وكذلك من مواضع أخرى في كتابه هو الجملة مجردة وقد اشتملت على مسند إليه ومسند فقد يقتضي الحال هذه الصورة حينا لكن في معظم الأحيان كما هو واضح من كلامه يعدل عن هذه الصورة أي الجملة بطرفيها المسند والمسند إليه بأن يحذف أحد الطرفين أو بأن تضاف إليهما مؤكدات ومخصصات بحيث يكون مدار البلاغة في نهاية الأمر، كما اعتبرها الكثير من البلاغيين، على الإطناب والإيجاز مراعاة لمقتضى الحال الذي يجري كما يقال على مقتضى الظاهر)[121].

فالخروج على مقتضى الظاهر هو أن يضع المتكلم المخاطب في حال غير الحال التي هو عليها، فيسوق المقام طبقا لتلك الحال لا تبعا للحال الأصلية للمخاطب وذلك لحاجة في نفس المتكلم يريد قضاءها. (وقد يُنزَّل المخاطب حالا غير الحال التي يعلم المتكلم أنه عليها فيورد المقام طبق الحال التي نُزِّلها المخاطب غير المخاطب لا طبق حاله الأصلية، وذلك تحقيقا لغرض من الأغراض التي نُزِّلها المخاطب لا طبق حاله التي نصطلح على اعتبارها أبعادا تداولية، وسماها البلاغيون "خروجا عن مقتضى الظاهر")[122].

---

[119] المرجع نفسه، ص 76.

[120] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 35.

[121] عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص 85.

[122] صابر حباشة: مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2011، ص 12.

كما أن التفاوت في المقامات يستدعي تفاوتا في الأحوال والعكس صحيح، فمتى كان مقام الكلام مراعيا للحال الأصلية للمخاطب كان الكلام مطابقا لمقتضى الحال، أما إذا راعى المقام حالا غير الحال الأصلية للمخاطب كان الكلام خارجا عن مقتضى الظاهر.

الفصل الثاني

ماهية الحجاج حديثا

الفصل الثاني: ماهية الحجاج حديثا

بعد أن تناولنا ماهية الحجاج قديما عند الغرب والعرب، وسقنا لذلك نماذج تحيل إلى تأرجحه بين عدة مفاهيم ومصطلحات، والتي تناولها كثير من الباحثين في العصر الحديث بالدراسة والتمحيص، واعتمدوها لبنة من اللبنات التي تعينهم على فهم آلية الحجاج، وبذلك لم يضبط هذا الأخير تحت تعريف واحد، بل تعددت أنساقه وصوره تبعا لتعدد الرؤى والتوجهات، فمثلا عند الغرب ظهرت عدة تيارات حاولت أن تنظر وتقعد للحجاج، وعلى رأسها النموذج الحجاجي عند "برلمان" و "تيتكاه" حيث حاول الباحثان من خلال مصنفهما في الحجاج أن يضبطا مفهومه بتعريف دقيق يعيد إليه معقوليته ضمن العمليات التخاطبية في الحقل الدلالي، كما أشارا إلى الملامح التي يتخذها الحجاج، موضحين طبيعة وخصوصية كل ملمح على حدة، وإذا ما تأملنا آراء "ميشال مايير" حول الحجاج نجده يعتد بطبيعة الكلام الذي يحصره في مجالات فلسفية عديدة، لينطلق في بناء نظريته "نظرية المساءلة" التي تقوم أساسا على الفهم الصحيح للسؤال، إضافة إلى تطرقه لبنية الصور البلاغية والعلاقات الخطابية، أما "ديكرو" و "انسكومبر" فقد بحثا من خلال نظريتهما الحجاجية اللسانية عن مكمن الحجاج من خلال تعرضهما للسلم الحجاجي وأهم المراتب التي يقوم عليها.

أما عن الحجاج عند العرب، فقد ارتبط بالنظرة الفلسفية لـ "طه عبد الرحمن" والذي ربطه بطابع تواصلي ينبني على بنية الأقوال، ليؤكد على أن الحجاج ميزة تسجل حضورها بقوة في الخطاب، وبذلك فهو يخضع لعدة اعتبارات، أما عن الحجاجية عند "أبي بكر العزاوي" فهي مؤسسة على اللغة في حد ذاتها، ولا يمكن دراسة الحجاج بمعزل عن القواعد الداخلية المشكلة للخطاب، وإذا ما وقفنا على الآراء التي قدمها "محمد العمري" نجدها تشير إلى ذلك التداخل الحاصل بين البلاغة والحجاج، ليرتسم بذلك الاتجاه الذي ينحوه الحجاج كآلية فعالة في الخطاب، ولقد اعتمدنا على تلك النماذج الغربية منها والعربية، في محاولة منا لربط ما هو قديم بما هو حديث حتى تتضح الرؤية العامة لمفهوم الحجاج.

أولا: بلاغة الحجاج عند الغرب

1 -النموذج الحجاجي عند برلمان وتيتكاه:

1 1 معقولية الحجاج :

يعد كتاب "مصنف في الحجاج-الخطابة الجديدة" والذي ظهر سنة 1958 مرجعا من المراجع التي لا غنى للباحث عنها في عملية استقصائه للحجاج الذي بات مطلبا أساسيا يفرض نفسه في كل العمليات التخاطبية ضمن حقول دلالية وتداولية. ويعود الفضل في تأليفه إلى العالمين: "برلمان" و"تيتكاه" اللذين

عملا على إخراج الحجاج من دائرتي الخطابة والجدل معا، فلقد كان في التراث اليوناني قديما شديد الصلة بالخطابة التي جعلته عرضة للمغالطات ومن ثم التلاعب بعقول وقلوب العامة من الناس ودفعهم إلى التسليم بما يسمعون سواء حصل الإقناع أو لا. لذلك حرص "برمان" وزميله على ضبط مفهوم الحجاج بتعريف دقيق يضمن ماهيته وتوجهاته هذا من جهة، وإلى تخليصه من صرامة الاستدلال من جهة أخرى، فالحجاج عندهما مرادف للمعقول يقوم على الحوار بين الأفراد والرأي و الرأي الآخر للخروج بنتيجة يكون الإقناع صانعها وموجدها، ولا يكون ذلك إلا بتقوقع الحجاج في دائرة غير دائرتي الخطابة والجدل، دائرة من شأنها أن تجمع بين الأمرين في قالب واحد. (فإن مفهومه عند برلمان وتيتكاه يستند إلى صناعة الجدل من ناحية وصناعة الخطابة من ناحية أخرى بكيفية تجعل الحجاج شيئا ثالثا لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة. لنقل معهما إنه "خطابة جديدة")[123].

ومن شأن هذه الخطابة الجديدة أن تقوم على دراسة الخطاب فهو الأرضية التي يبنى عليها الحجاج، بتوجيهه وجهة نحو السامع والمتلقي ليسلم بما يسمع أو يزيد في درجة تسليمه. لقد عرَّف "برلمان" و "تيتكاه" الحجاج بتعريفات عدة في مواضع مختلفة من كتباهما أهمها قولهما: (موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم)[124].

وقولهما في موضع آخر متحدثين عن الغاية من الحجاج: (غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يحثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة)[125].

ويفهم من هذين التعريفين أن حصول التسليم لدى المتلقي يكون بطريقتين اثنتين: أولاهما تسليم تفرضه طبيعة المقام، وثانيهما تسليم يقع في النفس فتطمئن له.(لقد ميز برلمان وأولبريشت تيتيكا فعلا بين مستويين من التسليم (أو القبول بالرأي المعروض): التسليم الآتي من الخارج حسب المقام وتترجمه كلمة

---

[123] عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 2، 2007، ص ص 27-28.

[124] Perelman Chaim et Tyteca Lecie Olbrechts : Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, éditions de l'université de Bruxelles, 5ème édition, page 5

نقلا عن: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 27.

[125] Perelman Chaim et Tyteca Lecie Olbrechts : Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, éditions de l'université de Bruxelles, 5ème édition, page 59.

نقلا عن المرجع نفسه، ص 27.

persuasion، والتسليم المنبعث من داخل النفس باطمئنان وتترجمه كلمة conviction. وهذا النوع الثاني(conviction) هو الذي ينتج عن مخاطبة مستمع كوني حيث تلتقي أفهام العقلاء. وهو موضوع الحجاج بمعناه الحق في نظرهما؛ ففي إطاره تتحقق الحرية، (أي الإفلات من الإكراهات الخارجية))[126].

وبذلك تتحدد طبيعة الحجاج عند "برلمان" و "تيتكاه" إذ يحصرانه في ذلك الكم من التسليمات التي يسلم بها المخاطب دون ضغط أو قيد بل بكل معقولية وحرية. (فالحجاج عندهما معقولية وحرية وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، من أجل حصول التسليم برأي الآخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة وبعيدا عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل. ومعنى ذلك كله أن الحجاج عكس العنف بكل مظاهره)[127].

ويمكن أن نمثل للمفاهيم السابقة بالتخطيط الآتي:

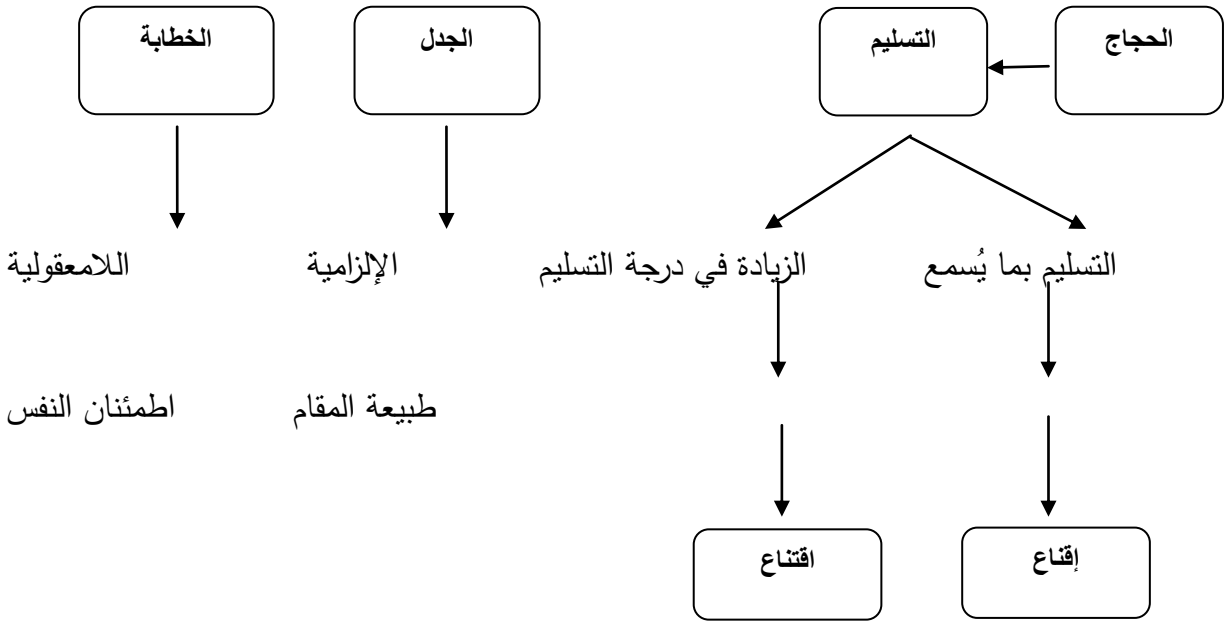

وعليه يمكننا أن نجعل الحجاج رديفا للإقناع. فمتى وقع الإقناع فثمة الحجاج بعينه، وتتصاعد بلاغة الحجاج كلما تصاعدت بلاغة الإقناع فكلاهما يستلزم الآخر.

إن البلاغة الجديدة التي قعَّد لها الباحثان "برلمان" و "تيتكاه" هي بلاغة تقوم أساسا على الإقناع، ومن ثم أضحى الحجاج ذا فعالية تداولية وسمة بارزة في مجتمعنا المعاصر. إذ إن (نجاح البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع التي فرضتها طبيعة المجتمع الإعلامي المعاصر[...] فقد ارتبطت البلاغة المعاصرة، وخصوصا منها نظرية الحجاج وما تعلق بها من بحوث، بمختلف الميادين

[126] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 66.

[127] في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، ص ص 11-12.

الإعلامية المعاصرة سواء منها السمعي والبصري أو هما معا؛ لذا أصبح مفهوم الإقناع مطلبا أساسيا في كل عملية فكرية، سواء كانت هذه العملية فكرة أو مقالة أو حركة، وهذا ما جعل هذه النظرية في استثراء متواصل)[128].

1 2 ملامح الحجاج:

(يتميز الحجاج في تصور برلمان و تيتكاه بخمسة ملامح رئيسة:

1-أن يتوجه إلى مستمع. 2-أنه يعبر عنه بلغة طبيعية. 3-مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

4-لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة. 5-ليست نتائجه ملزمة)[129].

إن هذه الملاح الخمسة مجتمعة هي من يصنع النسيج العام للحجاج. وسنحاول توضيحها ملمحا تلو الآخر.

- **الملمح الأول:**

من المعلوم بالضرورة أن ممارسة الحجاج تقع ضمن حقل الخطاب الذي تتعدد مقاماته وأحواله، وفي تعدد المقامات تعدد لأنواع الحجاج. (عندما نحاج فإننا لا نفعل ذلك أمام أي كان؛ إن ذلك يتم عادة أمام مستَمعٍ، مستَمعٍ خاص؛ خاص في الواقع من عدة جهات: خاص من جهة الكفاءة، وخاص أيضا من جهة المعتقدات التي تكون فكرية و وجدانية في آن معا، وباختصار فإن أي مستمع هو وجهة نظر بكل ما تتضمنه الكلمة من نسبية ومحدودية وجزئية)[130].

فالحجاج الفعال هو الذي يوجه إلى مستمع مخصوص بعينه. (فهو إذن عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب، ومن ثم فالحجاج عرضة للتغيير والتحوير في بنائه وأنساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعا لتغير المقام وتغير ظروف المحاجج حتى وإن ظل موضوع النقاش هو ذاته)[131].

- **الملمح الثاني:**

حتى يكون الحجاج ذا نجاعة كافية لإحداث التواصل والتفاعل بين الأطراف وجب ورود سياقه النصي بمفردات وتراكيب تمت بصلة وثيقة للغة الكلام، هذه اللغة التي تتعرض لتأويلات عديدة من لدن

---

[128] محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث، يناير/مارس 2000، نقلا عن: استراتيجيات الخطاب 2، ص ص 236-237.

[129] أوليفي روبول: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة محمد العمري، مجلة علامات في النقد، جدة، 1996، ص 77 نقلا عن: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص 1067.

[130] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 220.

[131] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 879.

المخاطبين لتباين درجات الفهم والتلقي بينهما، كما تجدر الإشارة إلى أن اللغة الطبيعية يتنازعها شقان: المنطوق والمكتوب، وكلاهما مؤثران في عملية التحاجج، وإن كان المكتوب متاحا أكثر لسهولة تناوله والاطلاع عليه. (إن النص المكتوب شيء حاضر أمامنا يمكننا أن نعيد قراءته وتحليله حسب ما نريد، الأمر الذي يتيح نقده، لكن هذه الإمكانات تنعدم مع الكلام الشفوي)[132].

- **الملمح الثالث:**

تعد المعرفة بالمقام وخصوصيته أمرا مسلما به في الحجاج، فالمحاجج إذا رام الحديث عن قضية من القضايا فإنه يحرص في بناء حجاجه على الانطلاق من مقدمات احتمالية يرى فيها سبيلا إلى الوصول إلى الصدق، وبذلك فإن المحاجج يهيئ كلامه للدخول ضمن دائرة المحتمل، فالمحتمل ليس هو الصدق بعينه، بمقدار ما هو توقع لحصوله. (غير أن بيرلمان يؤكد أن الطبيعة ذاتها للتداول والحجاج تتعارض مع الضرورة والبداهة. لأننا لا نتداول هنالك حيث يكون الحل ضروريا ولا نحاجج ضد البداهة. فحقل الحجاج هو حقل الممكن التصديق والجائز والمحتمل، وذلك بالقدر الذي ينفلت فيه هذا الأخير من دقة وصرامة الحساب)[133].

(إن مجال الحجاج في نظر بيرلمان يتعلق أساسا بالبحث في المماثل والمعقول والمحتمل، وذلك في حال ما إذا كان هذا الأخير يفلت من كل الحسابات الحتمية)[134].

وبذلك يتحدد موقع الحجاج ضمن دائرة المحتمل.

- **الملمح الرابع:**

لا يظهر الحجاج على هيئة واحدة، بل هو متغير تبعا لتغير المقام، فالمحاجج مطالب بترتيب حججه تماشيا مع طبيعة كل مقام، وهذه الحجج لا تكون كذلك إلا بتحقق درجة الإقناع فيها. لذلك حرص "برلمان" على اختيار الحجج المقنعة والمناسبة لكل موقف، واستبعد تلك الحجج القائمة على ضرورات منطقية، مستثنيا حججا شبه منطقية تستمد طاقتها الإقناعية من مجال فني أو جمالي.

(فإن بيرلمان قد نجح في ذلك كل النجاح، حينما بنى بلاغة حجاجية تهدف إلى الحكم على الحجج والأفكار والقيم في ضوء فلسفة عقلانية، بعيدا عن قواعد المنطق الجافة. ويعني هذا أن الفكر الإنساني

---

[132] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 223.

[133] مانويل ماريا كاريلو: خطابات الحداثة، القسم السابع عن " بلاغة بيرلمان الجديدة"، ترجمة: إدريس كثير و عز الدين الخطابي، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2001، ص 79 نقلا عن: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص 1107.

[134] Ch. Perelman & L.O,Tyteca. Traité de l'argumentation, 4ème édition, 1983, edition de l'université de Bruxelles, p 11,

نقلا عن: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 879.

ليس دائما برهانيا واستدلاليا. فقد نجد أفكارا غير منطقية، ولكنها تحمل في طياتها ما هو حجاجي كما هو حال الجمالي والفني الذي يقوم على وظائف حجاجية بامتياز)[135].

- **الملمح الخامس:**

ترتكز نظرية الحجاج عند "برلمان" و "تيتكاه" على مفهوم الإقناع الذي يحصل لدى السامعين إما تسليما به وهذا ما تتيحه طبيعة المقام، وإما أن تزيد درجة تسليمهم لاطمئنان النفوس لما يعرض عليها من الحجج، وطبيعة الحجاج عند الباحثين لا تقتضي ممارسة قيود على المتلقي في التأييد أو الرفض اتجاه قضية ما، فهو حر في قراراته ولا يخضع لأيّة سلطة.

وبناء على ذلك فنتائج الحجاج غير ملزمة. (ينبني الحجاج على جملة من التصورات والمقدمات والفرضيات التي ينسج منها المحاجج [خطيبا كان أم كاتبا] خططه البرهانية، فبهذه المقدمات يستمال المعنيون، كما أن لهم الحق في رفضها إذا لم تنسجم مع تصوراتهم، أو كانت من البساطة أو السطحية بحيث لا تمثل أي عنصر جذاب)[136].

2 -آراء ميشال مايير حول الحجاج:

2-1 طبيعة الكلام:

ينطلق "ميشال مايير" في تصوره لطبيعة الكلام من منطلق فلسفي فهو يحصره في مجالات فلسفية عديدة، من شأنها أن تعيد الاعتبار للذات الإنسانية فهي صانعة الكلام ومستقبلته في آن واحد.

وتقتضي طبيعة الكلام أن يجيب عن التساؤلات التي تحدث بين الأطراف في جميع المجالات عموما وفي المجال الفلسفي خصوصا.

إذ ربط "مايير" هذا الأخير بنظرية المساءلة التي تقوم على الكشف عن ماهية السؤال وجوهره في عملية التخاطب، وهو بذلك يقر بأن نظرية المساءلة تقتضيها طبيعة الكلام لما بينهما من التلازم، فكلاهما يستلزم الآخر، فلا كلام بدون تساؤلات، ولا تساؤلات تقع خارج نطاق الكلام.

(ويرى ميشيل مايير (Michel Meyer) بأن الحجاج يعمل على إيجاد وحدة للجواب، وإرضاء المتلقي بحال من الأحوال، وإقناع السامع بجواب منطقي شافٍ، خاصة حين تتعدد الأسئلة، وتختلف وجهات النظر، فهنا، لابد من اختيار جواب مقنع يرتضي به السامع)[137].

---

[135] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 82.

[136] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 892.

[137] Meyer, Michel, Qu'est ce que l'argumentation ?Paris, vrin, 2005, p 15.

نقلا عن: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 47.

من خلال هذا يكون "مايير" قد ربط نظرية المساءلة بالحجاج، فالكلام ينتج سؤالا، والسؤال بدوره يثير النقاش والجدل فيتولد الحجاج. (إذ لا يمكن أن يقال كلام دون أن يكون وراءه غرض ما. وبما أن كل كلام ذو معنى، وبما أن الحجاج ليس في المعنى بل هو المعنى عينه، فإن كل كلام حجاج)[138].

إن الحديث عن طبيعة الكلام عند "مايير" هو في حقيقة الأمر حديث عن السؤال، باعتبار جوهر الكلام وأهم حدث فيه. (ويصل ميار إلى إثبات نتيجة بعيدة الأثر وهي أن الحدث الكلامي الوحيد الذي يسمح به السؤال الفلسفي عن الكلام لا يمكن أن يكون إلا هو نفسه أي السؤال باعتباره حدثا كلاميا فهل نحن أما (كوجيتو) فلسفي كلامي جديد؟)[139].

وهذه إشارة إلى "ديكارت" صاحب المقولة الشهيرة "أنا أفكر إذن أنا موجود"، حيث ربط الوجود بالذات الإنسانية، وترتكز طبيعة الكلام عند "مايير" على فكرة المقام كركن ثالث مكمل لركنين رئيسيين هما: السؤال والجواب، فلا يمكن أن نتصور كلاما دون أن نربطه بسؤال يلقى وجواب يرجى. (فظاهر الكلام هو الجواب، وضمنيه هو السؤال. ومثلما يكمن الضمني في صميم الظاهر يكشف عنه المقام يكمن السؤال في صميم الجواب ويقع عليه السامع أو المتلقي لمساعدة ذلك المقام)[140].

فسياق المقام له دور كبير في إزالة الغموض واللبس الذي يعتري الكلام خصوصا إذا كان حواريا تتجاذبه عدة أطراف، فالسياق المقامي هو:

(الذي يحدد البواعث الاجتماعية المؤطرة للاستعمال الحواري[...] هذا السياق يبين من جهة ثانية تفسيرات للمضامين الحوارية الغامضة التي ما كان يمكن تفسيرها لولا الرجوع إلى هذا السياق)[141].

ومما تقدم ذكره نجد أن "مايير" قد بنى طبيعة الكلام على أساس من التساؤل المفضي بدوره إلى إجابة قد تتعدد وفي تعددها إمكانية لحضور التساؤل من جديد.

2-2 نظرية المساءلة :

ينطلق "مايير" في بناء نظريته على الفهم الصحيح للسؤال في إطار فلسفي مخصوص. ولذلك كان كثيرا ما يرجع إلى الفلسفة الإغريقية على اعتبار أنها تمثل المعين الأول لنشأة السؤال، وهذه خطوة بالغة الأهمية في نظره، فالسؤال هو حجر الزاوية في أي تفاعل كلامي، وحضوره أمر لا مناص منه وفي ذلك يقول: (إن المساءلة هي أيضا الجواب وإذا ما ألغينا السؤال فإننا نلغي معه الجواب وإنما المساءلة تكمن

---

[138] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 611.

[139] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 392.

[140] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص 1071.

[141] محمد نظيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص 41.

في ذلك الاختلاف بين ممارسة السؤال وامتدادات السؤال الحمالة للأجوبة المتعددة. بهذا يضع مياز أحد أركان نظريته في المساءلة le questionnement)[142].

وبناء على ذلك يكون "مايير" قد أسس نظريته (نظرية المساءلة) على ما ينتجه الخطاب (اللوغوس) من التساؤلات. ويمكن أن نمثل لهذه النظرية بالتخطيط الآتي:

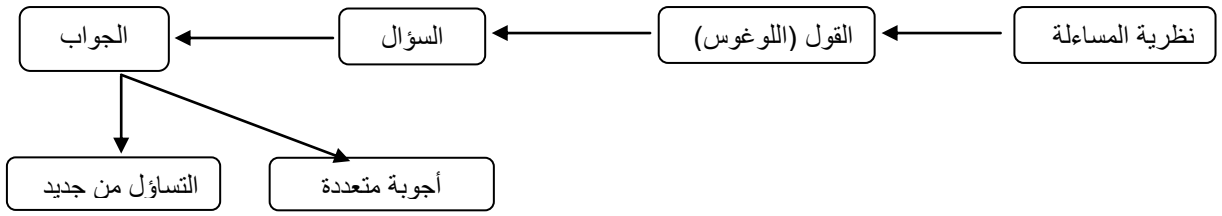

فالسؤال لا يوجد نفسه بنفسه، بل يتواجد ضمن دائرة القول، فكل قول هو سؤال في نظر "مايير".

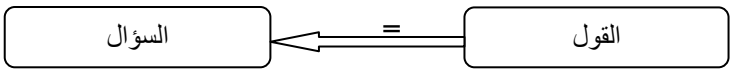

(هكذا فإن التفكير عند ميشال مايير يعني طرح الأسئلة، والقدرة على الاستشكال. وحتى تكون هذه الصيرورة منتجة، يرسم ميشال مايير المسافة بين الأسئلة والأجوبة، فهذه الأخيرة ليست جاهزة قبلية، أو تحصيل حاصل، إنها اكتشاف، ولذلك ف"الجواب" لايعني إغلاق البحث)[143].

وفي ذلك إشارة إلى أن السؤال قد لا يفضي دائما إلى الجواب، فقد يتعذر الجواب أحيانا ليحل محله سؤال آخر، ومنه فإن طبيعة التساؤل في حقيقة الأمر لا تنشد الجواب بقدر ما تروم الولوج إلى فضاءات من النقاش والذي يولد لنا جملة من التساؤلات أو الأجوبة العديدة. يقول "ميشال مايير": (حيث ما يوجد سؤال كامن فثمة نقاش)[144].

وإلى جانب ذلك يربط "مايير" نظرية المساءلة بالخطاب (اللوغوس) لما بينهما من التلاحم والتداخل. إذ يعد الخطاب هو الحلقة المثلى التي تتحقق فيها نظرية المساءلة،

(الحقيقة أن تصور ميار للخطاب اللغوي وطبيعته ووظيفته ركن أساسي من أركان عملية التفلسف لديه بل لعله منطلق عملية التفلسف ذاتها فهو الذي به تكون ثم تنشأ لتستقر قاعدة الصرح الفلسفي العام الذي

---

[142] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 390.

[143] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 105.

[144] Michel meyer, De la problématologie, philosophie, science et langage, Paris, le livre de poche, 1994, p259.
نقلا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 106.

هو بصدد بنائه وهو صرح يشمل مجالا ت فلسفية عديدة[...]يطرح مبار مشروعه إذن من وجهة نظر فلسفية تنطلق من التفلسف حول مكونات الكلام)[145].

كما ترتبط نظرية المساءلة عند "مايير" بمفهوم الحجاج باعتباره يمثل حجة في ذلك الجواب الذي ينتظر من السؤال المقدم. (وعلى صعيد بحث العلاقات الحجاجية يؤكد مايير طبيعة العلاقة الثنائية للحجاج بين المتكلم والمستمع انطلاقا من طرح الأسئلة ومتابعة تقديم إجابات لها. قصد تقريب وجهات النظر، وتحقيق مبدأ الإقرار بالجواب أو السير بالعملية نحو تضخيم الخلاف، ودحض الجواب عبر ممكنات اللغة بعامة، وجانبها المجازي بخاصة)[146].

(هذا ولا يخفي الباحث دعوته الصريحة النابعة من اعتقاد راسخ بأهمية ممارسة نقد الفكر، وتربية الأجيال على فن الاستدلال والإقناع [...] إذ إن فتح حوار عقلاني جاد وموضوعي بين مختلف المؤسسات سيضيق لا محالة من جغرافيا التشنج والسفسطة بكل أشكالها وتمظهراتها المعنوية والمادية، وسيفتح المجال نحو ثقافة التوافق والابتكار)[147].

2-3 بنية الصور البلاغية:

يعد الخطاب (اللوغوس) هو الحقل العام الذي تظهر فيه الصور البلاغية، ودرجة إبانتها من لدن الملقي أو المتلقي تختلف باختلاف درجات الفهم والتصور لكل منهما، كما أن نوعية الخطاب ومقاصده قد تزيد أو تنقص من فعالية تلك الصور، فالقصدية من الخطاب هي ما تتيح للصور البلاغية أن تظهر في معرض حسن تحقيقا لوظيفتها داخل بنية الكلام. (فصفة عامة، إن لصاحب خطاب ما –إلى جانب مقاصده التواصلية الموضعية في كل قول ينتجه– مقصدا تواصليا إجماليا يتعلق بمجموع خطابه)[148].

إن الصور البلاغية هي التي تجعل من الخطاب خطابا حجاجيا بامتياز، لذلك أولى لها "مايير" كل العناية وخاصة المجاز منها. (ويشير مبار إلى ما يلعبه المجاز من دور رئيسي في هذا المجال، فالمجاز عنده" يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره. وهو إلى ذلك طريقة التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صور من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب")[149].

---

[145] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، ص ص 388-391.

[146] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، دار إفريقيا الشرق، ط 1، 2006، ص 206 نقلا عن: نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 134.

[147] نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، ص 134.

[148] آن روبول، جاك موشلير: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ، محمد شيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 206.

[149] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 395.

ويقدم لنا "مايير" مثالا يبين لنا فيه تلك العلاقة القائمة بين السؤال والجواب ودورها في التأسيس لبنية الصور البلاغية، فـ:" محمد أسد " مثال أورده "مايير" على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، لكن المتلقي لهذه الجملة يتساءل عن مقصد المتكلم من ذلك، وما دخل محمد بالأسد؟ ولتوضيح ذلك نورد مثالا شعريا وظفه " محمد الولي " لتبيين تلك العلاقة القائمة على التمانع بين الكلمتين في السياق ذاته.

(هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا على الدر واحذره إذا كان مزبدا

إن الضمير"هو" يدل هنا، على سيف الدولة، أي الكائن الإنساني، أما البحر فإنه كائن غير عاقل وغير حي، إن هناك تمانعا دلاليا بين مفهومي الكلمتين المتجاورتين في السياق نفسه، وهذا التمانع يتم تخطيه وتجاوزه بالبحث في كلمة البحر عن سمة sème مشتركة مع سيف الدولة. وهذه السمة المشتركة هي "العطاء الوفير" وهكذا الأمر في كل الصور القائمة على المشابهة أي على وجود السمات المشتركة)[150].

(إن حركة الفكر عند انتظام المجاز تجمع حسب مايير بين ثلاثة مستويات: مستوى الإنسان المارد وصفه (محمد) ومستوى الحيوان (الأسد) والمستوى المشترك (الشجاعة)، لكن الإنجاز البياني المكتوب أو المنطوق به يسكت عن الحلقة الوسطى وهي الشجاعة ويفضي المجاز إلى تماه بلاغي بين (محمد) و (الأسد) وهنا ينهض السؤال الباحث عن عوامل التماهي والاختلاف وبهذا يقترن المبحث البلاغي لدى ميار بنظريته الفلسفية العامة)[151].

هذه النظرية التي بناها على التساؤل عن ماهية القول، فالقول السابق (محمد أسد) تدفع بالمتلقي أن يتساءل عن السبب الذي جعل المتكلم يجعل كلمة محمد شديدة الالتصاق والاقتران بكلمة أسد، والسبب هو وجود سمة مشتركة بينهما.

2-4 العلاقات الخطابية

رغم تقادم الزمن وكثرة المؤلفات والمصنفات حول الخطاب لازالت خطابة "أرسطو" تمثل مرجعا لا غنى لأي باحث عنها، فـ "ميشال مايير" يعدها مصدرا هاما في دراسة العلاقات الخطابية، وإذا كان "أرسطو" قد قسم وسائل الإقناع إلى ثلاث وسائل هي:

- الإيتوس: الخصال التي ينبغي أن يتصف بها الخطيب.
- الباتوس: الانفعالات والأحاسيس المثارة لدى المتلقي (الجمهور).

---

[150] محمد الولي : الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1990، ص ص 22-23.

[151] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ص 396 397.

- اللوغوس: وهو الخطاب بعيته (المقام).

إلا أن "مايير" لا يعتد بهذه الوسائل، واقترح لها تقسيم آخر حصره في ثلاثة أركان رئيسية. (فإن ماير عدَّل هذه الأركان ليركزها أكثر في تصنيف آخر (الأخلاق–السؤال–الجواب) والركنان الأخيران يمثلان الاستشكال)[152].

لقد احتفظ "مايير" بالعلاقة التي تجمع بين الخطيب والمتلقي في قضية ما. (تمثل هذه العلاقة الثنائية في رأيه تجاوزا للخطابة الأرسطية التي تدور أساسا حول الاستمالة والإقناع لأنها تهيئ الفضاء الأمثل لإثارة السؤال وإذكاء المساءلة المستمرة القائمة على الحجاج باعتباره مفاوضة للمسافة بين الطرفين وتكييفها حسب مقاصد المخاطب)[153].

إن هاته المسافة التي تقع بين المتكلم والمخاطب تعتمد اعتمادا كليا على ثنائية السؤال والجواب، سؤال يصدره المتكلم لينتظر ردة فعل من المخاطب بالموافقة أو المعارضة، وتبعا لذلك فإن الهوة بينهما قد تزيد بعدا أو قربا. (إن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما كما يمكن أن يلطف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم، وبإمكان المتكلم كذلك تعميق نقاط الاتفاق مع المخاطب إذا ما كان مقرا بما يطرحه عليه من أجوبة)[154].

وبذلك يكون "مايير" قد حدد لنا الركنين اللذين تقوم عليهما العلاقات الخطابية إذ يتمثلان أساسا في الاختلاف والاتفاق.

ففي إلغاء الأول تأكيد للثاني والعكس صحيح، وتقف المساءلة خلال هذا كله لتبرز المسافة الحاصلة بين المتكلم والمخاطب والذي يلعب الحجاج دورا بارزا فيها. (وإذا كانت المساءلة ترسم المسافة بين الذوات المتخاطبة فإن الحجاج حسب ماير هو مفاوضة لهذه المسافة، أي سعي إقناعي إما لمحوها بدفع المختلف ليغدو مشتركا، أو لتوسيعها لتأجيج التناقض وتعميق الاعتراض)[155].

---

[152] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص107.

[153] أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ص 398–399

[154] المرجع نفسه، ص 399.

[155] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 108.

3 الحجاج عند ديكرو و انسكومبر:

3-1 مكمن الحجاج:

ينطلق كل من "ديكرو" و "انسكومبر" في بناء نظريتهما الحجاجية اللسانية على ما توصل إليه "أوستين" من خلال نظريته :"أفعال الكلام" حين جعل الفعل اللغوي لا ينحصر فقط في الوظيفة التبليغية بقدر ما يحيل إلى القصدية من الفعل الكلامي(المرامي والأهداف التي يحيل إليها الملفوظ).(وقد استفاد دوكرو من نظرية أفعال الكلام كما عند سورل و أوستين و غرايس وأضاف دوكرو فعلين: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج. وينضاف إلى هذا، أن الحجاج يتميز عن البرهان أو الاستدلال المنطقي بكونه يتأسس على بنية الأقوال اللغوية وتسلسلها واشتغالها داخل الخطاب)[156].

فالبرهان والاستدلال إنما ينطلقان من مقدمات مسلم بها منطقيا، ومن ثم فإن النتائج محسومة ولا حاجة إلى مراجعتها. أما الحجاج فيعتمد على الأقوال ومدى تتابعها ضمن الخطاب ونتائجه غير ملزمة في تأييدها أو معارضتها. (إن ما ينبغي تأكيده في هذا السياق، أن البرهان والحجاج ينتميان إلى مجالين مختلفين؛ إذ ينتمي البرهان إلى مجال الاستدلالات المنطقية بالمعنى الخاص للعبارة، بينما ينتمي الحجاج كما وضحنا ذلك باستفاضة إلى مجال الخطاب)[157].

وهذا يسوقنا إلى الجزم بأن البرهان يقتضي نتيجة واحدة ثابتة، في حين أن الحجاج تتعدد حججه، وهو تعدد قد يزيد من نجاعة النتيجة وفعاليتها. (فالحجج لا تلزم عنها النتيجة بصورة ضرورية كما هو الحال في البرهان، بل غاية ما تقوم به الحجج، هو أنها تزيد من رجحان النتيجة، ومن ثم من درجة الاعتقاد فيها، فتكون هذه الدرجة أكبر كلما كانت هذه الحجج أجود وأكبر. وقد فسر ديكرو و انسكومبر هذه الخاصية غير الملزمة للملفوظات الحجاجية والتي تتيح تعدد الحجج فيها بكونها تستثمر الطبيعة الظنية وغير اليقينية للمواضع التي تستند عليها كل عملية حجاجية)[158].

ولتمييز الفرق بين البرهان والحجاج نورد هذين المثالين:

- المثال الأول: كل مسلم صائم – عمر مسلم – عمر صائم.
- المثال الثاني: تملك ألمانيا فريقا قويا – إنه يضم لاعبين ينشطون في أحسن الأندية في العالم – إذن ستفوز بكأس العالم.

---

[156] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 36.

[157] Ducrot, O, les Echelles argumentatives, édition de minuit, Paris, 1980, p 11.

نقلا عن رشيد الراضي: المظاهر اللغوية للحجاج، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014، ص 79.

[158] المظاهر اللغوية للحجاج، ص 82.

فالمثال الأول هو عبارة عن استدلال برهاني، فكون عمر صائم أمر إلزامي وحتمي يعود إلى أسباب منطقية. أما المثال الثاني فلا يمكن الجزم بنتيجته اعتمادا على المنطق كما هو الحال في المثال الأول، بل إن نتيجته تقوم على الحجج المعروضة في لفظ القول. ولذلك سعى كل من "ديكرو" و "انسكومبر" إلى إماطة اللثام عن الملفوظ لكونه عنصرا مكونا للغة التي لها وظيفة تؤديها ضمن النسيج الخطابي، وطبيعة هذه الوظيفة أنها حجاجية تعنى بالأقوال وبينتها داخل السياق النصي، وعلى هذا الأساس بنى كل من "ديكرو" و "انسكومبر" نظرية حجاجية تعنى باللغة. (وتنطلق هذه النظرية من الفكرة الشائعة التي مؤداها: "أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"، وهي تحاول أن تبين أن اللغة تحمل، بصفة ذاتية وجوهرية، وظيفة حجاجية، أي أن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية. وتنتمي دراسة الحجاج إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق (اللغة) أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنامٍ وتدريجي، وبعبارة أخرى فإن الحجاج يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب)[159].

فهذه النظرية التي أقامها "ديكرو" تبحث عن ماهية القول ودوره في الخطاب الذي يتمحور أساسا حول المتكلم والمخاطب، ومن شأن هذا القول أن يكتسب صبغة حجاجية ينتظر منها الوصول إلى نتيجة معينة. (إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. إن كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة، لا بواسطة الوقائع (les faits) المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بينة هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها)[160].

وبما أن الحجاج يتكون من حجج يراد بها جملة من النتائج، فإن الرابط الذي يربط بين الحجة والنتيجة يعد رابطا حجاجيا، وكل ذلك يقع ضمن علاقة حجاجية. (والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما. ويمكن أن نبين هذا على الشكل الآتي:

-أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة.

-أنا متعب، أنا بحاجة إلى الراحة.

---

[159] أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مطبعة العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص 08.

[160] حمو النقاري: التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، 2006، ص 57.

-أنا متعب.

-أنا بحاجة إلى الراحة)[161].

ففي المثال الأول صرح بالحجة والنتيجة والرابط، وفي المثال الثاني أضمر الرابط وصرح بالحجة والنتيجة، وفي المثال الثالث صرح بالحجة فقط، أما المثال الرابع فاكتفى بالنتيجة لوحدها.

3-2 مراتب الحجاج (السلم الحجاجي):

يعتبر السلم الحجاجي الذي جاء به "ديكرو" آلية من الآليات التي تسمح بتتبع الأقوال في عملية التخاطب، هذه الأقوال التي تنتظم فتصير حججا تنشد الوصول إلى نتائج معينة، وتتميز هذه الحجج بعدة سمات نذكر منها:

(- إنها سياقية: فالعنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر، فإن السياق هو الذي يصيره حجة، وهو الذي منحه طبيعته الحجاجية، ثم إن العبارة الواحدة، قد تكون حجة أو نتيجة أو قد تكون غير ذلك بحسب السياق.

- إنها نسبية: فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها، وبعبارة أخرى هناك الحجج القوية والحجج الضعيفة والحجج الأوهى والأضعف.

- إنها قابلة للإبطال: وعلى العموم، فإن الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي)[162]. كما تجدر الإشارة إلى أن هذه الحجج إنما يدلل بها بغية في تحقيق نتيجة ما. إلا أن هذه النتيجة لا تكون في الغالب واحدة، بل يمكن أن نجد حججا كثيرة ولكنها لا تروم نتيجة واحدة، بل كل حجة ترتبط بنتيجة نقيض النتيجة التي تقدمها الحجة الأخرى، وعلى هذا الأساس يمكن تمييز صنفين من الحجج:

(- حجج متساندة: ونقول عن حجتين أنهما متساندتان، إذا تم سوقهما لمساندة النتيجة نفسها. ومثالها (هذا الكتاب مفيد، وثمنه مناسب، اشتره إذن) فنحن في هذا المثال أمام حجتين تتساندان في إسناد النتيجة نفسها.

- حجج متعاندة : ونقول عن حجتين أنهما متعاندتان، إذا تم سوقهما لمساندة نتيجتين متعارضتين، أي إن كل حجة تساند نتيجة هي نقيض النتيجة التي تساندها الحجة الأخرى، ومثالها (هذا الكتاب مفيد، لكن ثمنه باهظ) (النتيجة المضمرة لا تشتره إذن).

---

[161] مرجع سابق، ص 58.

[162] المرجع نفسه، ص 59.

فالحجة الأولى تساند النتيجة (تقديرها: اشتر هذا الكتاب) والحجة الثانية تعاند النتيجة (تقديرها: لا تشتر هذا الكتاب))[163].

لقد اقترح "ديكرو" لترتيب الحجج وما تؤول إليه من النتائج ضمن العلاقة الحجاجية سلما حجاجيا ترتب فيه الأقوال بشكل تدريجي، تكون فيه الدرجة الأعلى للقول الذي يملك دليلا أقوى. ويكون هذا السلم على شكل عمودي يبدأ أسفله بحجة ثم تعلوها حجة قوية لتعلوها حجة أقوى لنصل إلى أعلى السلم حيث نعثر على النتيجة. ويمكن أن نمثل لهذا السلم بالتخطيط الآتي:

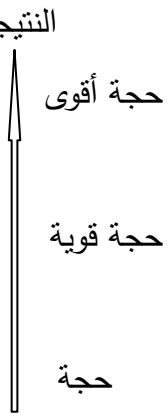

فتعريف السلم هو : (أنه مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية)[164].

و (يمكن اعتبار تلك العلاقات مكونة للملفوظات التي تربط بينها: تتسم بعض الملفوظات، في مجتمع معين بتأثيرها العميق في التوجيه نحو بعض الملفوظات الأخرى)[165].

وهذا ما حاول "ديكرو" أن يؤسس له من خلال نظريته "السلالم الحجاجية" التي تقوم أساسا حول بنية الملفوظ وتفاعله مع الملفوظات الأخرى، حيث الملفوظ الأول قد يحيلك إلى ملفوظ أقوى منه حجة ودليلا، وحتى نضمن هذا الترتيب في السلم الحجاجي وجب توافر هذين الشرطين:

(–كل قول يرد في درجة ما من السلم، يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة لـ (ن).

–إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن)، فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الذي يعلوه درجة يؤدي إليها، والعكس غير صحيح، فإذا أخذنا الأقوال الآتية:

* حصل زيد على الشهادة الثانوية.

* حصل زيد على شهادة الإجازة.

---

[163] المظاهر اللغوية للحجاج، ص 91.

[164] طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 5، 2014، ص 105.

[165] صابر حباشة: لسانيات الخطاب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 2010، ص 255.

* حصل زيد على شهادة الدكتوراه.

فهذه الجمل تتضمن حججا تنتمي إلى نفس الفئة الحجاجية، وتنتمي كذلك إلى نفس السلم الحجاجي...ويمكن الترميز لهذا السلم كما يلي:

ولهذا السلم الحجاجي قوانين ثلاثة:

(قانون النفي: فإذا كان (أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية بواسطة (ن)، فإن (~ أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية المحددة بواسطة (لا–ن) ويمكن أن نمثل لهذا بالمثالين التاليين:

–زيد مجتهد، لقد نجح في الامتحان.

–زيد ليس مجتهدا، إنه لم ينجح في الامتحان.

فإذا قبلنا الحجاج الوارد في المثال الأول، وجب أن نقبل كذلك الحجاج الوارد في المثال الثاني)[167].

(قانون القلب: يرتبط هذا القانون أيضا بالنفي، ويعد تتميما للقانون، ومفاد هذا القانون أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية[...] و يمكن التعبير عن هذه الفكرة بصيغة أخرى فنقول: إذا كانت إحدى الحجتين أقوى من الأخرى في التدليل على نتيجة معينة، فإن نقيض الحجة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على النتيجة المضادة، ويمكن أن نرمز لهذا بواسطة السلمين الحجاجيين التاليين)[168].

---

[166] التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 60.

[167] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص ص 195–196.

[168] Ducrot, O, les Echelles argumentatives, édition de minuit, Paris, 1980, p 27.

نقلا عن: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 196.

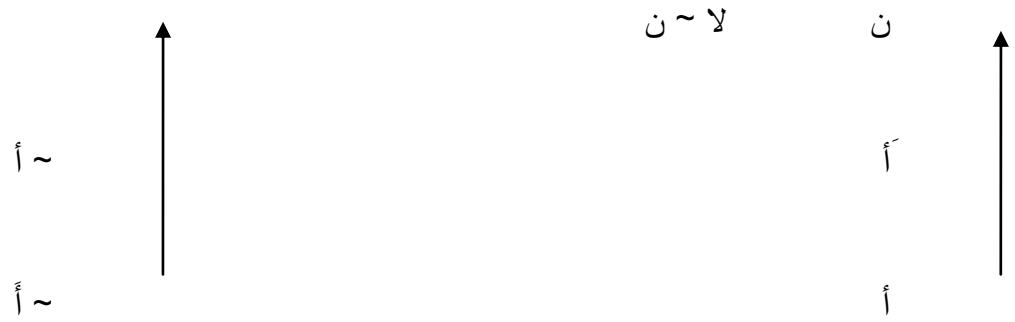

(قانون الخفق: إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها)[169].

[169] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص ص 105-106.

ثانيا: بلاغة الحجاج عند العرب

1 ـ النظرة الفلسفية للحجاج عند طه عبد الرحمن:

1 ـ 1 طابع الحجاج عنده:

ينبني مفهوم "طه عبد الرحمن" للحجاج على بنية الكلام بما هو جملة من الأقوال، وطبيعة هذه الأقوال أن تتجانس فيما بينها ضمن إطار الخطاب الذي يحدد دورها في عملية التواصل. ولذلك يعد الكلام كلاما إذا حقق غاية التواصل. (إن الكلام أصل في كل تواصل)[170].

إلا أن هذا التواصل لا يكون كذلك إلا إذا كان الكلام مبنيا على أمرين اثنين: أولهما أن يكون موجها للغير ويقصد به، وثانيهما أن تكون هذه الوجهة غايتها وهدفها الإفهام أي حصول الفهم لدى المتلقي والسامع الذي يلتقط الكلام. (أما القصد الأول، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون كلاما حقا حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره؛ وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعد متكلما حقا، حتى ولو صادف ما نطق به حضورَ من يتلقفه، لأن المتلقف لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد ألقي إليه ما تلقف، مقصودا بمضمونه هو أو مقصودا به غيره بوصفه واسطة فيه أو قل حتى يدرك رتبة (المتلقي)، فالمتلقي هو عبارة عن المتلقف الذي قصده الملقي بفعل إلقائه)[171].

(وأما القصد الثاني، فلا يكون المنطوق به كلاما حقا حتى تحصل من الناطق إرادة إفهام الغير، وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعد متكلما حقا حتى ولو صادف ما لفظ به فهما ممن التقطه، لأن الملتقط لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد أفهم ما فهم، سواء أوافق الإفهام الفهم أم خالفه، أو قل حتى يدرك رتبة (الفهم)، فالفاهم هو عبارة عن الملتقط الذي قصده المفهم بفعل إفهامه)[172].

فـ"طه عبد الرحمن" هنا يربط القيمة المثلى للكلام بمدى تحقيقه لدرجة الفهم والإفهام، وهذا ما نجده عند "الجاحظ" حين جعل للكلام مستويات عديدة، وفي هذا التعدد تعدد لأصناف الناس ومنازلهم فكل له كلام مخصوص يخاطب به حسب درجة فهمه، لذلك جعل "الجاحظ" البيان مرهونا بالفهم والإفهام، فأينما بلغت درجة الفهم والإفهام فذلك البيان بعينه في ذلك الموضع، فحقيقة الكلام لا تنبني خارج إطار الخطاب إذ يعد هذا الأخير هو الميدان الذي يجمع بين طرفي الكلام (الباث والمتلقي) ضمن عملية تخاطبية قوامها التواصل، هذا من جهة. كما يعد الخطاب ميدانا خصبا لقيام الحجاج من جهة أخرى. (لقد حاول طه عبد الرحمن بأسلوب توليفي جذاب أن يجسد التواصل البناء والهادف بين التراث الإسلامي والتفكير الغربي

---

[170] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 213.

[171] المرجع نفسه، ص 214.

[172] المرجع نفسه، ص 214.

الحديث. غير أنه لاحظ أن هذه القواعد المستخلصة من التراث الإسلامي مثل: قاعدة الصدق وقاعدة القصد، وقاعدة الإخلاص في ترابطها مع قاعدة التأدب والتواجه.

و التأدب الأقصى لا تشكل أدوات ضبط للخطاب الأدبي في الغالب، لذلك لجأ إلى آليات أخرى لتصنيف الخطابات في مستوى أخر من مستويات التخاطب مثلما تجلى ذلك في نظرية الحوار)[173].

يعود اهتمام "طه عبد الرحمن" بالتواصل الذي يحدثه الخطاب إلى كونه قد جعل الكلام هو أصل التواصل، وما دام العضو المسؤول عن الكلام هو اللسان، فكأنه جعل اللسان مُوجدا للتواصل. ويمكن أن نمثل لذلك بالتخطيط الآتي:

اللسان ← الكلام ← التواصل

اللسان ← التواصل

وفي ذلك يقول "طه عبد الرحمن": (كما نقول بأن لفظ (الحجاج) لا يدور على الألسن مثلما يدور عليه لفظ (التواصل) ولو أنه لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان)[174].

ولكن هذه المقولة وجدت تعديلا من لدن "أبي بكر العزاوي" إذ يقول: (فالتواصل قد يكون لغويا أو غير لغوي، والحجاج يكون هو الآخر بوسائل لغوية وأخرى غير لغوية، وإذا كان الأستاذ طه عبد الرحمن قد قال في بحثه الذي يحمل عنوان (التواصل والحجاج) ما نصه:(لا تواصل باللسان من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل باللسان) فإننا نعدل هذه المقولة ونوسع مجال تطبيقها فنقول: (لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل)، فيكون الحجاج مرتبطا بكافة أشكال التواصل)[175].

إذا ما قارنا بين المقولتين فإننا لا نجد بينهما بونا واسعا في دلالة كل منهما على ماهية التواصل، فـ"طه عبد الرحمن" أعطى مفهوما ضيقا للتواصل لحصره باللسان، في حين أن "أبا بكر العزاوي" أعطى للتواصل مفهوما واسعا يجعله يشمل أشكالا أخرى للتواصل بغير اللسان. إلا أن كليهما يجمع على دور الحجاج البارز في عملية التواصل مهما كانت طريقته أو آليته، ومعلوم بالضرورة أن التواصل لا يكون إلا بين متكلم ومخاطب في إطار خطاب يكفل القصدية والإفهام. (وإنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه

---

[173] نعمان بوقرة، لسانيات الخطاب، ص 121.

[174] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 254.

[175] أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 106.

يضيف إلى القصدين التخاطبيين المذكورين قصدين معرفيين هما: (قصد الادعاء) و (قصد الاعتراض))[176].

فقصد الادعاء أن يكون المخاطب مؤسسا لكلامه الذي يتوجه به إلى المخاطب، عارفا ومدللا بكل ما يقول. (أما قصد الادعاء، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا، حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما يقول عن نفسه وتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة ذلك أن الخلو عن الاعتقاد، يجعل الناطق إما ناقلا لقول غيره، فلا يلزمه اعتقاده، وإما كاذبا في قوله، فيكون عابثا باعتقاد غيره،[...] فيتبين أن المخاطب يحتاج إلى أن يدرك رتبة (المدعي)، فإذن المدعي هو عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله)[177].

وأما قصد الاعتراض أن لا يسلم المخاطب بكل ما يتلقاه من المخاطب، فله حق الدحض والتفنيد إذا لم يلق استحسانا لما يسمعه أو يتلقاه. (وأما قصد الاعتراض، فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا، حتى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه[...] وما لم يقدر المنطوق له على هذه المطالبة، فلا يمكن أن يعد مخاطبا حقا[...] فإذن المعترض هو عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على قول المدعي)[178].

وإذا تحققت هاته الصفات في الخطاب (أن يقصد المخاطب بكلامه الغير "تحقق القصدية")، أن يروم الإفهام، أن يلتزم الادعاء (الاعتقاد فيما يقول) وأن يطالب المخاطب بالدليل على صدق ما يتلقى، فهذه صفات كفيلة بقيام الحجاج. (إذ حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها)[179].

(وبهذه الضوابط يتضح أنه لا يشذُّ الحجاج عما يتطلبه الخطاب من أهمية لمراعاة المرسل إليه، وبناء الفعل الحجاجي تبعا لما تقتضيه سماته، ومن ذلك ثقافته وطبيعته، بالإضافة إلى هدف المرسل والعناصر السياقية الأخرى؛)[180].

---

[176] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 225.

[177] المرجع نفسه، ص 225.

[178] المرجع نفسه، ص ص 225-226.

[179] المرجع نفسه، ص 226.

[180] استراتيجيات الخطاب، ج2، ص 249.

1 2 أصناف الحجاج :

يؤكد "طه عبد الرحمن" على أن الحجاج صفة لازمة في أي خطاب، على أن يكون هذا الخطاب متوفرا على قصدي الادعاء والاعتراض اللذين يحققهما كل من الناطق (الباث) والمنطوق له (المتلقي) وبذلك فإن الحجاج مرهون بمدى فعالية الخطاب. (وهكذا يتضح أن حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو (العلاقة الاستدلالية)، وليست العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير الحجاج)[181].

ويتضح من خلال هذا أنه لا تقوم قائمة للخطاب إذا لم تتحقق صفة الحجاج فيه، فالحجاجية عنصر بارز في بنائه وحضوره، ونظرا لهذه الأهمية البالغة التي يكتسيها الحجاج فقد عمد "طه عبد الرحمن" إلى تقسيمه إلى ثلاثة أصناف. الصنف الأول يعنى بالتجريد فكان حجاجا تجريديا، والثاني بعني بالتوجيه فكان حجاجا توجيهيا، وآخر الأصناف يعنى بالتقويم وذلك هو الحجاج التقويمي.

- **الحجاج التجريدي:**

(والمقصود بالحجاج التجريدي هو الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان، علما بأن البرهان هو الاستدلال الذي يعنى بترتب صور العبارات بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامينها واستعمالاتها...ونجد مثالا واضحا لذلك في الخطاب الفلسفي، فمع أن هذا الخطاب جزء من الخطاب الطبيعي يتصف بما يتصف به من ملازمة مضمون القول لصورته وملازمة القول لمقامه، فإن الفيلسوف يتصنع ارتفاع هاتين المتلازمتين في أقواله، والواقع أن الملازمة الأولى تفيد القول الطبيعي في تصحيح بنيته، فقد يحمل مضمونه من الفائدة بالإضافة إلى المخاطب ما يجعله يتجاوز عن الاختلال الذي طرأ على صورته كأنما فائدة المضمون تغطي فساد الصورة، كما أن الملازمة الثانية تفيد هذا القول في تثبيت تأثيره، فقد يكون من مقام الذي ورد فيه القول من المناسبة للإضافة إلى المخاطب ما يجعله يتساهل في الاعتلال الذي عرض لصورته مجتمعة إلى مضمونه كأنما مناسبة المقام تغطي ركاكة المقال)[182].

ويتبين من ذلك كله أن الحجة المجردة ما هي إلا مظهر من المظاهر التي يبدو فيها الخطاب وكأنه في حالة من اللااستقرار فيعمد إلى ترجيح كفة المضمون والمقام لتغطية فساد المبنى وركاكة القول.

---

[181] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

[182] المرجع نفسه، ص ص 226-227.

- **الحجاج التوجيهي:**

(والمقصود بالحجاج التوجيهي هو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، علما بأن التوجيه هو هنا فعل إيصال المستدل لحجته إلى غيره؛ فقد ينشغل المستدل بأقواله من حيث إلقاؤه لها ولا ينشغل بنفس المقدار بتلقي المخاطب لها ورد فعله عليها، فنجده يولي أقصى عنايته إلى قصوده وأفعاله المصاحبة لأقواله الخاصة، غير أن قسر اهتمامه على هذه القصود والأفعال الذاتية يفضي به إلى تناسي الجانب العلاقي من الاستدلال، هذا الجانب الذي يصله بالمخاطب ويجعل هذا الأخير متمتعا بحض الاعتراض)[183].

فمدار الحجة التوجيهية ينبني أساسا حول المخاطب إذ يعد هو الحلقة التي ينبني عليها الخطاب دون اعتبار لطبيعة المخاطَب.

(ويعد هذا الصنف في مستوى أدنى من مستوى الحجاج التقويمي؛ وذلك لأن المرسل يكتفي بقصده فقط في تكوين حججه وتنظيم خطابه، فلا يجرد من ذاته ذاتا أخرى تمثل المرسل إليه، في محاولة لتوقع اعتراضاته واستباق حججه، ليدحضها ويصل إلى إقناعه، وكأن المرسل في هذا العمل لا يقيم وزنا كبيرا للمرسل إليه، كما لا يهمه مقدار إسهامه في إثراء الخطاب وتوفير الوقت، والنظر بعين الناقد البصير، إذ يكتفي بمجرد إيصال حججه إليه)[184].

- **الحجاج التقويمي:**

(والمقصود بالحجاج التقويمي هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه؛ فهاهنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب، واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي، فيبني أدلته أيضا على مقتضى ما يتعين على المستَدل له أن يقوم به، مستبقا استفساراته واعتراضاته ومستحضرا مختلف الأجوبة عليها ومستكشفا إمكانية تقبلها واقتناع المخاطب بها)[185].

وبناء على ذلك فإن الحجة التقويمية يكون فيها المرسل متمتعا بقدرة على تمييز الحجج التي تكون سبيلا إلى تسليم المرسل إليه بما يتلقاه، وكأن المرسل هنا مطالب باستباق المرسل إليه بأن يحل محله لمعرفة

---

[183] مرجع سابق، ص 227.

[184] استراتيجيات الخطاب، ج2، ص 250.

[185] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 228.

ما يروم من الحجج فيعمد إلى استحضارها. (قد يكون خطاب المرسل حجاجا على خطاب (المتوقع) من مرسل إليه (متخيل) يفترض المرسل وجوده تحسبا لأي اعتراضات قد يواجه بها خطابه...إذ يراعي المرسل في خطابه الحجاجي أمرين هما الهدف الذي يريد تحقيقه، وهو الإقناع، والحجج التي يمكن أن يعارضه بها المرسل إليه والتي يضعها في الحسبان في أثناء بناء خطابه، ويمحصها عند استحضار حججه، فيفندها ويعارضها بالحجج التي يتوقعها من المرسل إليه، فلا يتمسك بها إلا إذا أدرك أنها تؤول بخطابه إلى القبول والتسليم وهذا ما يسمى بالحجاج التقويمي)[186].

1 3 اعتبارات الحجاج:

لتبيين الاعتبارات التي يقوم عليها الحجاج كان لزاما أن نسوق حديثنا أولا عن حد الحجاج وطبيعته التي يقوم عليها في معارضته للبرهان، إذ جعل "طه عبد الرحمن" حد الحجاج مرتبطا ببعدين اثنين. بعد تداولي وآخر حجاجي. (وحد الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، كأن تبنى الانتقالات فيه، لا على صور القضايا وحدها كما هو شأن البرهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيما اجتماع، وأن يطوى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج، وأن يفهم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها، تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم)[187].

وبذلك فإن الحجاج يكتسي طبيعة تفاعلية قائمة على ذلك التجاذب الذي يحدث بين طرفي العملية التخاطبية إذ يمثل المتكلم جانب الادعاء فيغدو مدعيا فيما يقول، في حين يمثل المخاطب جانب المعترض فيغدو معترضا فيما يسمع ويتلقى من لدن المدعي. إلا أن حقيقة الحجاج لا تكمن في تلك العلاقة القائمة بين المدعي والمعترض فحسب، بل مكمنه الحقيقي في التباس وظيفته وهذا ما أشار إليه "طه عبد الرحمن" في قوله: (لكن حقيقة الحجاج لا تقوم في مجرد العلاقة الاستدلالية بين جانبين اثنين، لأن هذه العلاقة، على بالغ أهميتها في الظفر بالصواب، لا تسمح بإمكان التقلب في الوظيفة؛ فالمدعي، وإن اجتهد في النظر إلى دعواه نظر المعترض إليها، فإنه لا يخرج إلى وظيفة المعترض، بل يبقى مدعيا لا غير؛ والمعترض هو أيضا، وإن سعى إلى النظر في اعتراضه نظر المدعي فيه، فإنه لا يخرج إلى

---

[186] استراتيجيات الخطاب، ج2، ص 253.

[187] في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 65.

وظيفة المدعي، بل يبقى معترضا لا غير؛ وإنما ماهية الحجاج تقوم في كونه ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة، هذا الالتباس الذي لا نجد له نظيرا في غيره من طرق الاستدلال، ولولا تضمن الحجاج لهذا الالتباس، لما تميزت طريقه عن طريق البرهان، فهذا الالتباس هو إذن الفاصل بين الحجاج وبين البرهان)[188].

إن هذا الالتباس الحاصل في الحجاج يرده "طه عبد الرحمن" إلى اعتبارين اثنين هما: اعتبار الواقع واعتبار القيمة، حيث الاعتبار الأول يعود إلى المعرفة الجيدة بالواقع، في حيت تعد القيمة ما يخلده الإنسان من القيم. (إنما الأصل في الالتباس الحجاجي هو أن الحجاج يجتمع فيه اعتباران اثنان لا يجتمعان البتة في البرهان، وهذان الاعتباران هما: (اعتبار الواقع) و (اعتبار القيمة)؛ فإذا كان البرهان ينبني على مبدإ الاستدلال على حقائق الأشياء للعلم بها، فإن الحجاج ينبني على مبدإ الاستدلال على حقائق الأشياء مجتمعة إلى مقاصدها للعلم بالحقائق والعمل بالمقاصد، بمعنى أن الحجاج يزدوج فيه طلب معرفة الواقع وطلب الاشتغال بقيمته)[189].

حيث طلب معرفة الواقع ينحصر في انتقاء العبارة المثلى التي تصلح في التعبير عن المقصود، وأما طلب الاشتغال بقيمته فيتمثل أساسا في الغاية التي يتم تحقيقها من وراء المقصود، كما اصطلح "طه عبد الرحمن" لهذين الاعتبارين معنيين هما: المعنى الواقعي والمعنى القيمي، وفي هذا إشارة إلى دور المجاز البارز في الحجاج. (يتبين أن حقيقة الحجاج ليست هي مجرد الدخول في علاقة استدلالية، وإنما هي الدخول فيها على مقتضى المجاز، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الحجاج، إنما هو (العلاقة المجازية)، وليست العلاقة الاستدلالية وحدها: فلا حجاج بغير مجاز، ...ومعلوم أن الاستعارة هي المجاز الذي يقوم على علاقة المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى القيمي، وحيث إن المشابهة أدل من غيرها على التعالق بين هذين المعنيين، فقد ظهر أن الاستعارة هي أدل ضروب المجاز على العلاقة المجازية)[190].

ومن خلال ما تقدم نجد أن "طه عبد الرحمن" يحيلنا إلى الوظيفة الحجاجية للاستعارة، ولا يمكن لهذه الوظيفة أن تقوم إلا بالحضور الفعلي لمفهومي الادعاء والاعتراض. (إن القول الاستعاري قول حجاجي، وحجاجيته من الصنف التفاعلي الذي يسميه "طه عبد الرحمن" التحاج، ومن أجل الكشف عن الصفة

---

[188] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ص 229-230.

[189] المرجع نفسه، ص 230.

[190] المرجع نفسه، ص 232.

الحجاجية للقول الاستعاري، يكفي أن نستبين وجوه تدخل آليتي التدخل والاعتراض اللتين تميزان الحجاج)[191].

2 الحجاجية عند "أبي بكر العزاوي":

2-1 الدلالات الحجاجية :

ينطلق "أبو بكر العزاوي" في تبيينه لمفهوم الحجاجية من منطلق اللغة في حد ذاتها إذ يعتبرها جملة من الأقوال ذات صبغة حجاجية، وبذلك عد نجاعة اللغة وفعاليتها بما تحمله من وظيفة حجاجية ضمن الإطار العام للخطاب، وهذه الوظيفة الحجاجية لا ترتبط بالبناء اللفظي بالقول فحسب، بل بالمعنى الحجاجي الذي يحيل إليه وهذا ما أشار إليه "العزاوي" حين جعل الحجاج متمثلا في جملة من الأقوال التي تروم نتائج يراد حصولها. (يمتثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها، إن كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة، لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها)[192].

ومن جملة هذه المواد اللغوية التي يتم توظيفها حجاجيا الاستعارة التي يوظفها المتكلم ويعتمدها بشكل كبير في خطاباته لتكون الدليل الأقوى والحجة المثلى على صحة ما يقول، وثمة تكمن فعالية الاستعارة. (وتكمن فعالية الاستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق، إذ تمثل الاستعارة أبلغ وأقوى الآليات اللغوية)[193].

لذلك كثيرا ما يعمد المخاطب إلى اعتماده كوسيلة لا غنى عنها لتقويم خطابه لأنها : (تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية)[194].

فلم تعد الاستعارة محصورة في كونها صورة من صور البيان، بل أضحت تمثل جانبا مهما من الأسس اللغوية وخاصية من خصائص الحجاج، إلى جانب أن الأقوال الاستعارية أقوى حجاجيا وأعلى مرتبة من الأقوال العادية، وهذا ما يجعل الاستعارة الحجاجية وثيقة الصلة بالسلم الحجاجي الذي تتعدد فيه المراتب

---

[191] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 253.

[192] اللغة والحجاج، ص ص 16-17.

[193] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص ص 297-298

[194] أبو بكر العزاوي: "نحو مقاربة حجاجية للاستعارة"، مجلة المناظرة، المغرب، السنة الثانية، العدد 4، ماي 1991، ص ص 78-84 نقلا عن: استراتيجيات الخطاب، ج2، ص 228.

تبعا لتعدد الاستعارات التي لا تعتمد على ألفاظ تساير الحقيقة بقدر ما يكون المجاز عنصرا فعالا وبارزا فيها، ولذلك سعى "العزاوي" إلى تبيين تلك الصلة التي تربط الاستعارة بالسلم الحجاجي. (كما أسهم أبو بكر العزاوي في هذا المضمار بعدد من المقالات التي توزعت بين دراسة الشعر والنثر دراسة حجاجية، ومن هذه المقالات ما جاء بعنوان: "نحو مقاربة حجاجية للاستعارة" إذ طبق فيه مفهوم السلم الحجاجي على الاستعارة في هذا المقال)[195].

(قد تعلو الاستعارة استعمال ألفاظ حقيقة، وذلك أن المخاطب لا يلجأ إلى استعمالها، إلا لوثوقه في أنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا، وهذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي أيضا)[196].

ولذلك نجد أن "أبا بكر العزاوي" يشيد بعظيم شأن الأقوال الاستعارية حين يعدها أعلى مرتبة حجاجيا من الأقوال العادية إذ يتصدر القول الاستعاري أعلى مراتب السلم الحجاجي، وذلك لكونه متضمنا لماهية المجاز الذي يعد آلية لغوية كثيرا ما يجنح إليها المخاطب في خطاباته حتى يصل إلى درجة التأثير في المتلقي وحدوث القبول لديه، ويضرب "العزاوي" هذين المثالين:

(-خالد بن الوليد شجاع

-خالد بن الوليد أسد

إن الملاحظة البسيطة كافية لأن تبين لنا أن القول (خالد بن الوليد أسد) سيرد في أعلى السلم بالمقارنة مع القول الآخر، ويفسر هذا بأن القول الاستعاري له قوة حجاجية عالية، وسيكون السلم الحجاجي الذي نحصل عليه على هذا الشكل:

)[197].

من خلال عرض "العزاوي" لهذين المثالين تتضح جليا القيمة المضافة والدلالة الحجاجية التي تضفيها الاستعارة على الحجاج، فيكتسي بذلك قدرة وقوة على التأثير. (خلاصة الأمر أن الاستعارة من

---

[195] استراتيجيات الخطاب، ج 2، ص 228.

[196] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 296.

[197] اللغة والحجاج، ص ص 102-103

الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جدا، ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية، وما دمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري)[198].

2-2 الحجاج في أنماط الخطاب:

تعد دراسة الخطاب ميدانا خصبا لظهور الحجاج الذي تتباين أنواعه تبعا لتباين شتى الخطابات داخل الحقل الأدبي، حيث يرى "العزاوي" أن دراسة الحجاج لا تكون بمنأى عن القواعد الداخلية التي تشكل الإطار العام للخطاب. (وتنتمي دراسة الحجاج إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة، أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدريجي، وبعبارة أخرى فإن الحجاج يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب)[199].

يظهر جليا من هذا أن "العزاوي" يولي أهمية كبرى للغة في بعدها الحجاجي لتغدو صانعة للخاطب ومحققة لأهداف حجاجية. ولعل ذلك يرجع أساسا إلى تأثره بالنظرية اللسانية التي يمثلها كل من "ديكرو" و "انسكومبر" إذ ترى بأن اللغة تحمل بين طياتها وظيفة حجاجية وبالتالي فإن هذه الوظيفة تستمد نجاعتها بما تحدثه من التأثير في المتلقي. (إن هذه النظرية التي وضع أسسها اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو (O.Ducrot) منذ 1973 نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغة الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية...هذه النظرية تريد أن تبين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية (intrinsèque) وظيفة حجاجية)[200].

وترتسم حدود هذه الوظيفة بحسب نوع الخطاب، فلكل جنس من الخطاب حجاج مخصوص بعينه، فما يصلح أن يحتج به في خطاب ديني يباين ما يحتج في خطاب شعري أو غير ذلك من شتى الخطابات.

(إن الحجاج نجده أيضا في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص: نجده في الخطبة الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية واللافتة الإشهارية والخطاب السياسي ومرافعة المحامي والرواية والمسرحية الأدبية والمناظرات ومناقشة الأطروحات الجامعية والكتابات العلمية وغيرها[...] إن كل

---

[198] مرجع سابق، ص 105.

[199] المرجع نفسه، ص 08.

[200] المرجع نفسه، ص 14.

النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص لنص، ومن خطاب لخطاب)[201].

وفي خضم هذا يؤكد "العزاوي" على أن الخطابات تحكمها علاقات منطقية، فلكل خطاب منطق خاص به يحيل إلى جنسه ونمطه ضمن الإطار العام لبنى الكلام، كما يحتكم إلى الحجة والدليل ليفضي إلى النتيجة المرجوة منه، ليكون الخطاب بذلك – مهما تعددت أصنافه وأنماطه – قناة ناقلة للحجاج وآلية من آلياته، فلا خطاب بدون حجاج ولا حجاج بدون خطاب.

ولذلك يرى "العزاوي" أن الحجاج لا يقتصر على الخطاب النثري دون الشعري فهو مجسد في كليهما. (ووحدة هدف الخطاب هي التي بررت إدماج جنسي الشعر والنثر ضمن إطار الحجاج، إذ يؤمن (العزاوي) بأن الحجاج يوجد حيث ما وجدت اللغة)[202].

فاللغة هي المجال الذي يبرز فيه الحجاج بشقيها النثري والشعري، فلم يعد الحجاج حكرا على الخطابات النثرية فحسب، بل بات وثيق الصلة بالشعر ولسان حاله، وكثيرا ما يعمد الشعراء إلى الحجاج كوسيلة لردع الخصوم في المنابر والملتقيات، وهذا ما نجده عند "العزاوي" حين وسع دائرة الاشتغال بالحجاج ليشمل الخطابات الشعرية على غرار النثرية. (ومن ناحية أخرى، فلم تقتصر أعماله على معالجة الخطاب النثري، بل تجاوزته إلى تحليل الخطاب الشعري، فقسمه من وجهة النظر الحجاجية إلى شعر حجاجي وشعر غير حجاجي، مستمدا الدعم فيما يذهب إليه من حازم القرطاجني الذي يرى أن الشعر قد يستعمل للإقناع)[203].

فالشعر حجاجيا لا يكون على وتيرة واحدة من القوة أو الضعف، فتارة يبلغ أوجه وتارة أخرى يصاب بالفتور وذلك راجع إلى التباين الحاصل بين النصوص الشعرية من جهة، ومقاصد المتكلمين من جهة أخرى، وهذا ما نوه به "العزاوي" في إمكانية قيام نصوص شعرية يكون الحجاج سمة بارزة فيها. (ومع تسليمنا بوجود شعر حجاجي، فإننا نؤمن بأن طبيعة الحجاج وقوته تختلف من نص شعري لآخر، وكلما كان الشاعر صادقا في معاناته، ساعيا إلى تبليغ خطاب ما راميا إلى التخاطب والتواصل مع الآخرين، له غاية واضحة وهدف محدد يرمي إليه، كلما كان شعره أكثر حجاجية. ثم إن نسبية الحجاج وارتباطه

---

[201] الخطاب والحجاج، ص ص 11-12.

[202] استراتيجيات الخطاب، ج2 ، ص 228.

[203] المرجع نفسه، ص 228.

بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التداولية والاجتماعية هو من المبادئ التي تقوم عليها نظرية "الحجاج في اللغة"، بل وأغلب النظريات الحجاجية القديمة والحديثة)[204].

نستشف من حديث "العزاوي" أن الخطاب الشعري كلما كان راميا لمقصد معين وموجها وجهة تساير المقاصد والأغراض التي ينبني عليها الإطار العام للكلام، كلما كان الخطاب ذا صبغة حجاجية، إذ الفائدة المتوخاة من كل عملية تخاطبية هي ما تفرزه من الآليات الحجاجية التي تجعل من الخطاب أيا كان نوعه خطابا فعالا ينتظر منه الوصول إلى ترسيخ فكرة معينة أو تفنيد قضية ما.

[204] الخطاب والحجاج، ص 38.

3 محمد العمري ورؤيته للحجاج:

3-1 بلاغة الحجاج عند العمري:

يشير "محمد العمري" إلى التداخل الحاصل بين البلاغة والحجاج وذلك لما بينهما من التقارب المفاهيمي وذلك على مستويات عديدة، وهذا ما يصرح به إذ يقول:(من الطبيعي أن كل شيء رهين بالتعريف. فماذا نعني بالحجاج، وماذا نعني بالبلاغة؟ يجب أن نعطي الكلمتين معنى دقيقا لكي نستطيع حل مشكلة العلاقة بينهما، بل إن ذلك ضروري لوجود المشكل من أساسه)[205].

من خلال هذا يبدأ "العمري" رحلة بحث عن ماهية البلاغة وعلاقتها بالحجاج، ولتبيين تلك العلاقة كان من الضروري تحديد مركز البلاغة وأهم الأسس التي تقوم عليها في التراث العربي الذي شهد عدة تعاريف ومفاهيم جعلتها لا تستقر عند مفهوم واحد يضبطها ويرسم حدودها التي تضمن مسارها، وتحقيق ذلك كله مرهون بالضبط الدقيق والرصين لمصطلحي البلاغة والحجاج لا سيما في عصرنا الحالي، حيث أضحى الحجاج لا يقتصر على البلاغة كبلاغة أدبية محضة، بل بات الحجاج مشاعا في جل المجالات والتخصصات.

(يقتضي الجواب عن هذا السؤال – في المجال العربي– وضع الكثير من النقط على الكثير من الحروف؛ ذلك أن مفهومي "بلاغة وحجاج" عرفا تطورا كبيرا في الدراسات الحديثة في حوار نقدي مع البلاغة القديمة الخصبة، تطورا ظللنا بعيدين عنه بنفس المسافة التي تفصل بيننا وبين التقدم العلمي في كل المجالات)[206].

إن "العمري" بكلامه هذا يحيلنا إلى فعالية الحجاج التي ما فتئت تظهر حديثا متمثلة في جملة من الدراسات الأدبية والنقدية الراهنة والتي تستمد طاقتها الحجاجية من الموروث البلاغي القديم أكان عربيا تمثله أعمال كل من "الجاحظ" و "الجرجاني" وغيرها، أم كان غربيا تمثله أعمال "أرسطو" أبو الحضارة اليونانية بحديثه عن الخطابة وأركانها، وتكمن فعالية الحجاج في البعد الإقناعي الذي يفرزه أثناء عملية التخاطب الحاصلة بين الأطراف المتخاطبة.

(ولعل الإقناع، وهو مقصد أساسي في الخطب والنصوص ذات المنزع التأثيري، فقد شكل نواة البحث الحجاجي والقلب الرابط بين البلاغة القديمة (الأرسطية، وفي صيغتها العربية القديمة) والبلاغة الجديدة (نظريات الحجاج والتداولية ونظرية الأعمال اللغوية)، فالإقناع هدف يتحقق عبر توسل أدوات وأساليب بلاغية (أي لغوية، تركيبية، بيانية...) ولعل من بين الدراسات الأولى التي تطرقت للحجاج بشكل فني

---

[205] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 213.

[206] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 26.

ودقيق كتاب "فن الإقناع" (1985) لمحمد العمري، حيث اقترح خطاطات ونماذج عملية لتحليل الخطبة تحليلا حجاجيا) [207]. فالخطابة تعد ميدانا خصبا للإبانة عن آليات الإقناع التي تشكل جوهر وروح الحجاج، ولعل ذلك هو ما جعل البعض ممن اشتغل بالخطابة أن جعلوها رديفة للحجاج وممثلا شرعيا له، مستلهمين في ذلك المفهوم الأرسطي للخطابة في ثوبها الحجاجي، ومن وقف هذا الموقف من الباحثين هم من القلة على حد تعبير "العمري" في قوله: (فهناك من الباحثين العرب المحدثين من استعمل كلمة "خطابة" مقابلا لها (هم الأقل)، [...] الباحثون الذين استعملوا كلمة خطابة راعوا في ذلك المعنى الأرسطي للكلمة والسياق الخطابي الحجاجي الذي يؤطرها)[208]. ثم ما يلبث أن يتحدث "العمري" عن فريق من الباحثين وهو الكثرة، إذ يرون بأن الحجاج وثيق الصلة بالبلاغة. (وهناك من استعمل كلمة بلاغة (وهم الأكثر) [...] أما الذين استعملوا لفظ بلاغة، فقد نظروا إلى المعنى الذي تبلور للكلمة في العصر الحديث بعد أن استرجعت بعدها الخطابي التداولي)[209].

إذا ما أمعنا النظر والتدقيق فيما قاله "العمري" عن البلاغة نجده يقر بأنها في مرحلة ما فقدت دورها التداولي وظلت مقتصرة على أحادية تمثلت في جانب شعري جمالي، وهذا ما سبب جمودا لها، إلا أنها في عصرنا الحديث بدأت تسترجع بعدها الخطابي التداولي في إشارة منه إلى القيمة الحجاجية المضافة للبلاغة التي صارت اليوم بلاغة تنازعها قطبان: قطب تخييلي (شعري) وقطب خطابي تداولي (حجاجي) عل حد قوله: (والتخييل عندنا قسيم التداول في امتلاك أرض البلاغة[...] وهكذا فإننا بقدر ما نعمل على استرجاع المكون الدلالي إلى موطنه الأصلي (البلاغة) بقدر ما نصر على حفظ البعد الوجداني الانفعالي لهذا المكون، البعد الذي يتقاطع فيه مع الشعر، في هذا اللقاء بين العقل والوجدان توجد عاصمة البلاغة)[210]. وبذلك تكون البلاغة بشقيها التخييلي والتداولي بلاغة قائمة على الإمتاع إذا ما كنا أمام خطاب شعري، وعلى الإقناع إذا ما كنا أمام خطاب تداولي قائم على الحجاج بالدرجة الأولى. وبناء على ذلك فإن التقارب الحاصل في المفهوم بين البلاغة والحجاج أم ر مسلم به بالضرورة. (ولا بد أن يقبل القارئ ما يقع من تداخل حين الحديث عن كل من الطرفين على حدة، فذلك ناتج عن حضور كل من منهما في الآخر: فالعمل الواحد يقدم نفسه على أنه بلاغة، وعلى أنه حجاج، في الوقت نفسه)[211].

---

[207] التداولية والحجاج، ص 45.

[208] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 27.

[209] المرجع نفسه، ص27.

[210] المرجع نفسه، ص ص 68-69.

[211] المرجع نفسه، ص 26.

3-2 اتجاه الحجاج:

عند الشروع في الحديث عن الاتجاه الذي يسلكه الحجاج في الدراسات الحديثة العربية منها والغربية، كان لزاما منا الوقوف عند البلاغة لتحديد العلم الذي تعنى به في حقل التخاطب، فلا يمكن بأي حال من الأحوال دراسة الاتجاهات التي يؤطرها الحجاج بمنأى عن البلاغة وتفرعاتها، وذلك كونها تشكل حيزا كبيرا لاشتغاله، إذ يمثل أحد جناحيها. (نقول هذا ونحن نعلم أن كلمة بلاغة – كما هو الحال بالنسبة لكلمة ريطورية– استعملت معنيين: معنى إنشائي تعبيري، حين تكون وصفا للكلام والمتكلم: كلام بليغ، ومتكلم بليغ. ومعنى وصفي علمي، حين تكون حديثا عن الخصائص العلمية للكلام البليغ، أي حين يكون الكلام وصفا للكلام، والذي يهمنا الآن هو المفهوم الوصفي، أي البلاغة باعتبارها علما)[212].

وعلى هذا الأساس تكون البلاغة هي ذلك العلم الذي يعنى بأشكال وأنماط الخطاب المتضمنة لقيم حجاجية، وتتسم هذه القيم بدرجة من القوة والضعف ترجع أساسا إلى طبيعة القول الحجاجي في حد ذاته وما يحيل إليه من المقاصد إن بصيغة مباشرة يصرح بها المخاطب، أو بصيغة غير مباشرة ترتكز على التلميح، فكثيرا ما يعتمد القول خطابيا على التلميح دون التصريح وهذا ما يكسبه قوة وقيمة حجاجية مضاعفة. (فإن القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحا أو مضمرا)[213].

وبناء على ذلك يمكننا اعتماد الاتجاه الذي ينحوه الحجاج كأداة لجس نبض الخطاب ومدى فعاليته التي تكمن في تحقق الإقناع كمطلب حجاجي يقصده المخاطب أثناء عملية التخاطب، فاتجاه الحجاج إنما يكون منصبا حول الإقناع الذي يحصل عند المتلقي للخطاب. (وهو ما دفع العديد من الدارسين إلى بناء نماذج خطابية اعتبروها إطارا ملائما لدراسة مختلف أنواع التخاطبات، وكان الهدف هو رسم معالم طريقة تمكن الناظر من تحصيل مختلف آليات الإقناع والاقتناع التي يتطلبها كل وضع يهدف إلى دفع المخاطب بأن يأتي بقول ما أو ينصرف عنه، أي بناء نماذج تخاطبية قادرة على التأثير والتأثر)[214].

إلى جانب ذلك نجد "العمري" قد أشار إلى عدة اتجاهات عرفها الحجاج تمثلت في التداوليات اللسانية والمنطقية التي وجدت في الحجاج ضالتها المنشودة لملء الفراغ الذي لحقها، وهذا ما نوه به في قوله: (فالتداوليون المناطقة لجأوا إلى الحجاج لسد الفراغ المعرفي الذي تركه المنطق الصوري، والتداوليون اللسانيون لجأوا إليه لسد الفراغ الذي تركه البحث اللساني المحايث، أو البنيوي الداخلي للغة

---

[212] مرجع سابق، ص 28.

[213] اللغة والحجاج، ص 25.

[214] مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ص 30.

باعتبارها نسقا منغلقا على نفسه. وكلاهما وجد نفسه يخوض في قضايا الخطاب التي عالجتها البلاغة القديمة من زوايا متعددة)[215]. يتبين من كلام "العمري" أن كلا من التداوليات اللسانية والمنطقية تختلفان وتتباينان في وجهة نظرهما للحجاج، إذ يعد علم اللسانيات ذلك العلم الذي يعنى بالدلالات السياقية للكلام، في حين نجد أن علم المنطق وثيق الصلة بالموروث الخطابي الذي خلفه المنطق الأرسطي، وكل هذا التعارض بين الاتجاهين كفيل بأن يمد في عمر الحجاج الذي لا سبيل إليه إلا بالتعرض إلى علمي اللسانيات والمنطق على حد قول "العمري": (ولذلك، فإن أي تصد لتعريف الحجاج يقتضي ابتداء طرق بابي المنطق واللسانيات على اختلاف تصوريهما للموضوع)[216].

فالحجاج في التداوليات اللسانية حجاج موجه إلى الكشف عن المعاني التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياق الذي يحدد المعنى الحجاجي للمفردة، وقد يكون المعنى الذي يشير إليه السياق ظاهرا يفهمه العام والخاص على حد سواء، في حين أنه أحيانا قد يلزم من الملقي للخطاب اعتمادا كليا على عنصر التأويل، وذلك لما قد يعتري الخطاب من الألفاظ الدالة على معان غير المعاني التي يشير إليها ظاهر اللفظ، وفي هذا المقام يقول " العمري" متحدثا عن اجتهاد التداوليين اللسانيين في البحث عن المعنى السياقي للكلام: (فإن عملهم ينصرف إلى البحث في الدلالات السياقية والمفهومية للكلام. يمتد من المعاني المجازية المترتبة على خروج الكلام عن ظاهر لفظه، في الخبر والإنشاء، إلى لحد الأدنى من المعنى السياقي المتجلي في القول بأن ما من كلام إلا ومعناه مرتبط بسياق ما)[217].

وحتى يكون معنى الكلام مستهدفا لسياق ما وجب توفره على القصدية من وراء ذلك.

(فالمتكلم لا يكون مفيدا بكلامه إلا بالقصد، [...] فنحن لا نستعمل الألفاظ بمعزل عن السياق التداولي والمعرفي للمتحاورين، بل إن دلالتها تتم وفق خطة تفاعلية تراعي الإجراءات المتعلقة بالتمثلات والتأويلات التي تدور في فضاء مشترك، فاللفظ لا يكون مناسبا إلا متى توفر على أثر، وقتئذ يمكن القول أن المتكلم أنتج اللفظ الأكثر ملاءمة)[218].

أما عن الاتجاه الذي يسلكه الحجاج في التداوليات المنطقية فهو مجال يحيلنا إلى المنطق الأرسطي الذي نهل منه الكثير من الباحثين في العصر الحديث ولا يزالون إلى اليوم، في محاولات جادة منهم إلى إعادة صياغة دقيقة للمكونات الخطابية التي جاء بها "أرسطو" لتستوعب مجال القيم كما فعل "برلمان".

---

[215] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 36.

[216] المرجع نفسه، ص 37.

[217] المرجع نفسه، ص 37.

[218] مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ص 30.

(ومن المعروف أن نظريات الحجاج الحديثة نشأت كرد فعل على المنطق الصوري الاستنباطي الذي لا يتسع لضبط مجال القيم التي هي خلافية بطبيعتها. وقد وقف بيرلمان عند هذه الإشكالية وأبرز الحاجة إلى منطق طبيعي يستوعب هذه القيم في مناسبات عديدة)[219].

[219] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 40.

الفصل الثالث

الرؤية البلاغية الحجاجية للعمري

الفصل الثالث: الرؤية البلاغية الحجاجية للعمري

حاول "العمري" أن يصل الخيوط ويعقد أطراف الكلام بين المؤلفات البلاغية، والقضايا العامة التي تتشعب فيها المفاهيم، وذلك في بحث عن النسق الذي تقوى مفهومه في البحث العلمي العربي، فراح يعمل عقله في البحث عن الأعمال البلاغية التي يغيب فيها النسق في محاولة منه لاستخراج الأنساق التي حوتها المؤلفات، فخصصنا هذا الفصل لجزء من مشروعه البلاغي، محاولين قدر الإمكان أن نتعرض لأهم النقاط التي تطرق لها عبر رحلته البلاغية، في سعيه الجاد للتنقيب عن بلاغة الحجاج وأهم مكامنها، فسقنا بداية أهم الآراء التي اعتمدها الباحث، من استلهام للآراء الأرسطية، إلى الدخول في مساءلة مع التراث العربي، فهذا كله كفيل بالتأسيس لفكرة المشروع التي أقامها "العمري" أساسا حول ماهية البلاغة وعلاقتها بالحجاج وتحليل الخطاب، فكانت لهذا المشروع أبعاد عنيت بدراسة الخطابة في بعدها الإقناعي ، إضافة إلى دراسة البلاغة بين الشعرية والخطابية. ولتبيين أهم النقاط التي عالجها "العمري" في مشروعه البلاغي، اخترنا مكونين يمثلان عنوانين كبيرين لكتابين من كتبه، لهما وزنهما في ميزان التأليف.

حيث كان العنوان الأول واقعا تحت مسمى: البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي، والذي عالج النقاط الآتية:

- بلاغة الخطاب الإقناعي.
- مقام الخطب.
- صور الحجاج

في حين كان الثاني بعنوان: البلاغة بين التخييل والتداول، وعالج هو الآخر المفاهيم التالية:

- التخييل والتداول.
- منطقة التقاطع بين التخييل والتداول.
- البلاغات الجزئية.
- المجاز آلية بلاغية.

أولا: المشروع العمري

1 -الآراء التي حملها الباحث:

1 -1 الآراء الأرسطية:

تُعد جل الدراسات الحديثة التي قامت حول نظرية الحجاج دراسات تعتمد بشكل مباشر أو غير مباشر على الأفكار الأرسطية في مجال فني الخطابة والشعر، فلا غنى لأي باحث عنها، فهي بمثابة مواد خامة تعينه على مشاق البحث والتنظير والتقعيد، فالبحث في بلاغة الحجاج يتطلب من الباحث علما ومعرفة بكل ما تم تناوله سلفا وإن في أحقاب زمنية متباعدة، وذلك ما دأب عليه "العمري" حين استلهم الآراء الأرسطية في نظرته للدور البارز الذي يلعبه الإقناع في الخطابة وفي ذلك يقول :

(لقد وقفت عند هذا الإشكال منذ ثلاثة عقود عندما اخترت لمحاضراتي في جامعة فاس عنوان: "بلاغة الخطاب الإقناعي" مؤقتا، لأنه مجرد وصف لا يستوفي متطلبات الاصطلاح العلمي الإجرائي الذي يسمح بالاشتقاق والتشعيب. ولذلك عدت إلى الموضوع فاقترحت كلمة "خطابية" مقابلا "لفن الخطابة" قياسا على "الشعرية" التي حلت محل "فن الشعر" دون حرج. فحين تكون الإحالة على أرسطو فلا دقة في استعمال أي من الكلمتين: بلاغة وخطابة، فالذي عند أرسطو هو "الخطابية" و "الشعرية"، أو علم الخطابة ونقد الشعر)[220].

حيث يقر "العمري" بأن "أرسطو" هو أول من فصل بين الخطابة والشعر ولذلك عمد إلى إفراد كل فن بكتاب مستقل. وفي ذلك يقول:(لقد تنبه أرسطو لذلك ففصل الخطابة عن الشعر، وألف في كل منهما كتابا مستقلا، وتبعه في ذلك الفلاسفة المسلمون فحرصوا على التفريق بين طبيعة الشعر الذي يهدف إلى التخييل وطبيعة الخطابة الهادفة إلى التصديق حسب الأحوال والاحتمال)[221].

ثم ما يلبث "العمري" مد جسور الثناء على كتاب الخطابة لأرسطو الذي يرى فيه مرجعية يستقي منها الباحثون أهم الأسس التي يقوم عليها الخطاب كوسيلة لتحقيق الإقناع الذي بات أولوية من الأولويات المشاعة في العصر الحديث.

(وكان لكتاب الخطابة تأثير واسع في المجالين: الخطابة والشعر، ثم رأيت الدارسين الغربيين المحدثين الذين لهم باع في هذا المجال يستنيرون بآراء أرسطو، بل ويعتبرونها حديثة ومناسبة للمجتمعات الحالية. فزاد اقتناعي بإمكان تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية، وإغناء ذلك

---

[220] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 28.

[221] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 07.

باجتهادات وإضافات البلاغيين ودارسي الخطاب الإقناعي من غير العرب في القديم والحديث في حدود ما يسمح به حجم هذا العمل والغرض الذي رصد له أولا)[222].

وإلى جانب اعتماد "العمري "على الرصيد الأرسطي في دراسته لآليات الخطاب الإقناعي، إلا أن هذا لم يمنعه من الاطلاع على أهم الدراسات الحديثة التي هي بدورها نهلت من البلاغة الأرسطية التي كان لها أثر واضح فيها، ومن أهم تلك الدراسات ما قام به "برلمان" وزميله "تيتكاه" من خلال عرضهما لماهية الحجاج في مصنفهما البلاغة الجديدة، مستلهمين في ذلك الرصيد الأرسطي الذي صاغاه في أعمالهما برؤية جديدة، وهذا ما عمد "العمري" إلى الاستزادة من ذلك كله كون "برلمان" و "تيتكاه" قد اعتمدا بشكل كبير على آراء "أرسطو"، وأي استلهام لآرائهما هو استلهام للرأي الأرسطي. وفي مطلع ذلك يقول 'العمري": (ويمكن الرجوع إلى كتاب الخطابة سواء في بنائه الذي يتوجه قسم منه للخطيب وقسم للمستمع وقسم ثالث للخطاب نفسه، أو إلى حديثه في المقدمة عن هذه الأجزاء وعلاقتها ببناء الخطابة وأجناسها. كما يرجع إلى الأعمال النى استلهمت هذه البلاغة في العصر الحديث وأقتصر منها على أعمال برلمان خاصة في كتابه Traité de l'argumentation الذي ألف باشتراك مع أولبريشت تيتكا. الذي حاولنا الاستفادة من بعض ما ورد فيهِ فيكتابنا "في بلاغة الخطاب الإقناعي")[223].

وفي هذا إشارة من لدن إلى عظيم شأن الخطابة في ميزان التأليف قديما وحديثا، وذلك لما يحويه من التقسيمات التي تعنى بالخطيب كونه صانع الخطاب، وبالمخاطب كونه متلقيه، وبالخطاب في حد ذاته كونه الإطار الذي يسمح بالتفاعل الذي يقع بين طرفي العملية التخاطبية (المخاطِب، المخاطَب). ويولد هذا التفاعل توجه الخطابة إلى تحقيق بعدها المقامي المتعلق بالمجال السيكولوجي والاجتماعي، على حد قول "العمري".(وهذا هو الذي اهتم به أرسطو كثيرا في الخطابة، وليس له نظير في البلاغة العربية، فيما أعلم، غير شذرات، وقد حاولنا بناء المتاح منه في الفصل الرابع من القسم الأول من كتابنا : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، في قراءتنا لمشروع الجاحظ في البيان والتبيين)[224].

ليتضح لنا جليا البعد الأرسطي الذي استلهمه الباحث "محمد العمري" في دراسته لبلاغة الحجاج.

---

[222] مرجع سابق، ص 09.

[223] محمد العمري: تحليل الخطاب الشعري ، البنية الصوتية في الشعر، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط 1، 1990، ص 36.

[224] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 50.

1 2 الآراء التراثية العربية:

اعتمد الباحث "محمد العمري" على الآراء الأرسطية كمخزون تراثي يعد مرجعا وعمدة للدارسين في تنقيبهم عن بلاغة الحجاج، إلا أن ذا لا يعني البتة انقطاعه عن التراث البلاغي العربي الزاخر بشتى المفاهيم والرؤى التي تعج بها المؤلفات والمصنفات الكبرى على تباين مشاربها و توجهاتها، فالعمري يشيد بعظيم شأن التراث الباغي العربي الذي يمثل نافذة مطلة تحتضن بين جنباتها الكثير من الدلالات والمصطلحات التي لا تزال قيد الدراسة وبحاجة إلى تمحيص وتدقيق من لدن الباحثين، ولن يتأتى لهم ذلك إلا بالعودة إلى مظانها الأولى، في إشارة منه إلى مجالسة التراث العربي الأصيل لا بنظرة سطحية عابرة، بل بنظرة عميقة تضمن هويته ومن ثمة الوقوف على أهم القضايا التي تشغل ذهن الباحثين والدارسين في هذا العصر. (لقد أدى تطور الدراسات الحديثة في مسارين لساني نصي وتداولي حجاجي إلى التنبيه إلى غنى التراث البلاغي العربي بشكل عميت عنه الأبصار طوال عقود. وهذا طبعا مرتبط بكون الحضارة العربية مرت بمرحلة حيوية شملت شتى مناحي الخطاب في إطار نهضة علمية شاملة، ولم يكن من الممكن إعادة إدراك ذلك الغنى إلا بالاحتكاك بحضارة مماثلة في الحيوية والشمولية، حضارة استثمرت التراث البلاغي الفلسفي القديم، ومنه العربي بشكل فعال. فقد كان علينا إذن أن نعود إلى هذا التراث لنسائله في غير استكراه وبشكل عفوي عن تواصله مع أسئلة هذا العصر)[225].

ينقلنا "العمري" بهذا الكلام إلى مفهوم هو في غاية الدقة والشمولية، مفاده أن مساءلة التراث البلاغي العربي لا تكمن في مساءلة صرفة فحسب، بل مساءلة تبنى على قراءة واعية لهذا التراث، ومن فضائل هذه القراءة مد جسور التواصل بين الماضي والحاضر، ومن ثمة تكوين رؤى منهجية – هي من صميم علم البلاغة– قادرة على التجاوب مع الأسئلة التي تقتضيها متطلبات العصر، ولا سبيل إلى ذلك إلا بعمق دراية وحسن قراءة على حد قوله: (وهنا يأتي مفهوم القراءة باعتبارها تلقيا ديناميا يقيم حوارا بين الماضي والحاضر، فالحاضر يضيء الماضي ويكتشف جوانب منه كانت جنينية وفي طور التخلق مشوشة بشوائب وعناصر خارجية، والماضي يفسر مسار الظواهر الحديثة في اندفاعها وانحسارها، ويرفع عنها القدسية، كما يرفع الحاضر أسطورية الماضي)[226].

إن هذا التأرجح الحاصل في الأسئلة وانتقالها بين الماضي والحاضر كفيل ببناء المعرفة – التي تعنى بالأدب عامة وبالبلاغة خاصة – التي من شأنها أن تنحو بالأسئلة منحى آخر، لتغير مسارها من أسئلة يراد بها معرفة عامة إلى أسئلة يراد بها وجهة بلاغية بعينها. (أما إذا أردنا النظر إلى المسألة من

---

[225] مرجع سابق، ص ص 245–246.

[226] المرجع نفسه، ص 245.

زاوية المعرفة استخلاصا وبثا فأحسن مثال يوضح الانتقال من السؤال المعرفي إلى السؤال البلاغي هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ. فبالنظر في خطة البيان والتبيين للجاحظ: في حديثه عن أنواع الدلالة على المعاني، وبالنظر إلى ما فهمه قراؤه مثل ابن وهب، كما تقدم، يسوغ لنا القول بأن الجاحظ وصل إلى بلاغة الخطاب الإقناعي من خلال البحث في المعرفة بصفة عامة: كيف نفهم وكيف نُفهم؟ بلاغة قوامها الاعتدال في استعمال الصور البلاغية حسب الأقوال والمقامات، مع توظيف كل الإمكانيات المسعفة واعتماد ذخيرة معرفية شديدة التنوع من النصوص الأدبية والدينية والأخبار والأمثال والحكم (ثقافة الخطيب))[227].

فـ "العمري" بكلامه هذا يكون قد أثار انتباهنا إلى أن "الجاحظ" يعد بحق من الذين أسهموا في إرساء قواعد يقوم عليها البيان، فمتى كان الخطيب واعيا بما يقول، وثبت أن حقق قوله فهما لدى المتلقي فثمة البيان في ذلك الموضع، لذلك حرص "الجاحظ" على أن يكون الإقناع آلية من الآليات التي وجب حضورها ليكون إلزاميا في أي خطاب كان. ولعل ذلك ما دفع "العمري" وهو يستلهم آراء "الجاحظ" إلى أن جعل أحد كتبه موجهة إلى دراسة بلاغة الخطاب الإقناعي، إيمانا منه بضرورة اللجوء إلى التراث العربي لإزالة الغبار الذي طال عدة مفاهيم بلاغية وعلى رأسها الإقناع، الذي حمل همه "الجاحظ" على حد تعبيره. (ولعل هذا ما جعل الجاحظ، وهو يحمل هم الإقناع حسب الأحوال، يرد البيان، كما سبق، إلى الفهم، ثم يقايضه بالبلاغة وكأنه يتحدث عن شيء واحد، ثم يرهن البلاغة بمراعاة الأحوال مقايضا إياها بالخطابة، فالبيان هو الفهم، من جهة، وهو إظهار الحجة، من جهة ثانية)[228].

وإلى جانب اعتماد "العمري" على التراث كمواد خامة تعين على البحث والدراسة، إلا أنه يرفض تماما الانصهار والذوبان الكلي في هذا التراث، فله ما له، وعليه ما عليه، وهو بذلك ينقد بشدة أولئك الذين تمادوا في ولائهم الشديد للتراث. (كما هو الشأن عند الاتجاه التقليدي الذي يداري عجزه بتقديس التراث وجعل إعادة إنتاج القدماء غاية في ذاتها.. علاقتنا بالماضي هي علاقة نقدية حوارية تأبى التقوقع في الماضي كما تأبى رفضه جملة)[229].

كما يضيف "العمري" قائلا: (إننا نجد أنفسنا بين جاذبيتين جاذبية التراث وجاذبية المعاصرة: بين البلاغة القديمة والشعرية الحديثة، وقد قررنا خوض هذه المغامرة)[230].

---

[227] محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص 24.

[228] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 38.

[229] المرجع نفسه، ص 247.

[230] تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، ص 15.

2 فكرة المشروع:

يُعد الباحث المغربي "محمد العمري" من الباحثين المجدين الذين لهم باع طويل في حقل البلاغة العربية، وذلك لما قدمه من التصورات والمفاهيم التي حوتها مؤلفاته فأغنت الطالب العربي وأمدته بمادة علمية غزيرة لا تنفد استثمرها في جل أبحاثه ودراساته، وتتمثل هذه التصورات التي قدمها "العمري" في شكل مشروع ضخم راوده وشغل باله طيلة عقود من الزمن، إنه مشروع بلاغي بالدرجة الأولى يضم بين طياته الكثير من المفاهيم التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بـ (البلاغة، الحجاج، بلاغة الخطاب الإقناعي، التخييل والتداول...) وبذلك فقد حمل "العمري" على عاتقه حملا ثقيلا في قراءته للبلاغة العربية قراءة مهما خيل للباحث أنها اكتملت إلا ومع اكتمالها مؤشر لبداية البحث في جانب آخر منها، وعن الإلمام بالبلاغة ومدلولاتها يقول "حازم القرطاجني": (وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار)[231].

يفهم من كلام "القرطاجني" أن البلاغة تعد صنعة شأنها شأن كل الصنائع، إلا أنها صنعة متجذرة في الزمن وقديمة قدم الإنسان على وجه الأرض فهي لصيقة به، وتواجدها وتمثلها من لدن الباحثين هو أمر من المسلمات التي لا ريب فيها، إلا أن الأهم في الأمر كله هو ذلك البعد الإقناعي الذي باتت البلاغة العربية اليوم وثيقة الصلة به، بعد أن كان مهملا مغيبا على تعبير "العمري". (فمن خلال الاطلاع على الجهود الحديثة التي بذلت، منذ منتصف القرن الماضي، من قبل المشتغلين باللغة والخطاب من اللسانيين (ياكوبصون مثلا) والمناطقة (بيرلمان مثلا) بدأنا ننتبه للمكون المهمل من تراثنا البلاغي، ذلك المكون الذي غطاه الصدأ واختلط تبره بترابه. وعلى هذا الأساس أعدنا الاعتبار للبعد الحجاجي الإقناعي للبلاغة العربية، بعد أن عمقنا البحث في بعض الجوانب المهملة من البناء الشعري (البنية الصوتية). اقتضى كشف كل هذا الغنى "تنسيق" البلاغة العربية تاريخيا ليكون ذلك النسق حجة على أن البلاغة التي نسعى لبنائها ليست غريبة عن التراث العربي، وهكذا كان كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، خريطة لتلك الأرض التي ضاعت من البلاغة في ظروف انكماشها [...] وكان لزاما أن نعود من حين لآخر لنتساءل :

- ما البلاغة؟
- وما علاقة البلاغة بالحجاج بمعنييه اللساني والمنطقي؟
- وما علاقة البلاغة بالسياسة؟

---

[231] حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 88.

- البلاغة والأدب والنقد الأدبي؟

- علاقة الأدب بتحليل الخطاب؟

- كيف تجلت مكونات البلاغة التخييلية والتداولية في البلاغة العربية والغربية؟)[232].

وبذلك فإن فكرة المشروع البلاغي عند "العمري" تشكل نواة مؤسسة لرؤية جديدة للبلاغة العربية في ثوب مغاير تماما عن الذي أنفناه سابقا، هذه الرؤية التي تسعى قدر الإمكان إلى كسر تلك الهوة التي أصابت البلاغة في مقتل، وأحدثت فجوة بين القديم والحديث. فكان لزاما إعمال الجهود لسد ذلك الشرخ الذي أصاب البلاغة، وهذا ما عمد "العمري" إلى سده بقوله: (ولكن الذي لا شك فيه أني أحسست بهذا الفراغ، وبحثت جهدي فلم أجد من ندب نفسه للمساهمة في سده، دون تهميش للبلاغة العربية أو بعد عن النص الخطابي العربي [...] ثم رأيت الدارسين الغربيين المحدثين الذين لهم باع في هذا المجال يستنيرون بآراء أرسطو، بل ويعتبرونها حديثة ومناسبة للمجتمعات الحالية. فزاد اقتناعي بإمكان تأطير اجتهادات البلاغيين العرب وبالإطار العام للنظرية الأرسطية، وإغناء ذلك باجتهادات وإضافات البلاغيين ودارسي الخطاب الإقناعي من غير العرب في القديم والحديث في حدود ما يسمح به حجم هذا العمل والغرض الذي رصد له أولا)[233].

وإلى جانب دراسته للخطاب الإقناعي، نجد "العمري" قد أولى عناية كبيرة للبلاغة في بعديها التخييلي والتداولي، لينطلق في جملة من التساؤلات التي كان لها الأثر البالغ في التأسيس لمشروعه البلاغي. (وها نحن نعود، بعد عمر من البحث في المجال البلاغي ببعديه الشعري والخطابي، إلى نقطة البداية لنتساءل: ما هي البلاغة؟ أو، على الأقل: أين توجد البلاغة؟ هل هناك بلاغة واحدة، أم بلاغات متعددة؟ وإذا كانت هناك بلاغات متعددة، هل هناك : مشروعية لقيام بلاغة عامة تنسق هذه البلاغات الخاصة وتتحدث باسمها في نادي العلوم المحيطة بها؟)[234].

---

[232] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص ص 5-6.

[233] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ص 8-9.

[234] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 5.

3 أبعاد المشروع:

3-1 دراسة الخطاب الشعري:

ينطلق الباحث "محمد العمري" في دراسته للخطاب الشعري من فكرة مفادها أن البلاغة ظلت لفترة من الزمن شديدة الالتصاق بالخطاب النثري الذي أحكم هيمنته عليها في مقابل إهمال واستبعاد الخطاب الشعري، الذي طاله الفتور والإقصاء وغيب عن الساحة البلاغية، لتكون البلاغة بذلك منطوية تحت لواء موال للنثر على حساب الشعر. وفي ذلك يقول "العمري": (ومادام النص القرآني ليس شعرا، ولا ينبغي له أن يكون، فمن المحتمل أن تبنى له بلاغة غير شعرية. إنها بلاغة ملاءمة المعاني لمقتضى الحال والمقام، بلاغة ترضي النص الخطابي النثري أكثر مما تنصف النص الشعري. بل سنقدم في الحديث عنها الحجج القاطعة على معاداة هذه النظرية للنص الشعري برغم قدرة أصحابها على إلباسها لباس البحث البلاغي، وتعميق جانب من جوانب هذا البحث وهو جانب المعنى، والوصول فيه إلى نتائج باهرة ما زالت تشهد بجدتها وحداثتها. ونقصد بقولنا هذا التفريق بين الخطة العامة والاستراتيجية الشاملة التي تلغي جانبا مهما من البلاغة، وبين تعميق البحث في جانب من جوانب هذه البلاغة ولو في إطار مناهض للشعر[...] من هنا نلاحظ أن المصدرين الأساسيين لمفهومنا للبلاغة هما مصدران يهتمان إما بالنص القرآني (وليس شعرا على كل حال) أو بالنص النثري الشفوي وشروط تحققه شفويا، سواء تعلقت بجهاز نطق الخطيب أو هيأته أو بالألفاظ وخفتها على اللسان والسمع. فالتياران معا يغيبان الشعر في استراتيجيتهما العامة، ويغيبان مكونا من مكوناته الأساسية المميزة له في ممارستهما)[235].

يسوقنا هذا الكلام إلى تساؤل حول طبيعة هذا المكون المغيب في الشعر.

-عن أي مكون يتحدث "العمري"؟

-وأين تكمن فعالية الشعر؟

إن المكون المغيب في الشعر – حسب رأينا- هو تلكم الوظيفة الشعرية التي تقبع كامنة وراء ستار الخطاب الشعري تنتظر من يأخذ بها إلى طريق الحجاج وتحصيل الإقناع. (إن النص الشعري ليس لعبا بالألفاظ، وليس نقل تجربة فردية فحسب، إنه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج. وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه، مما يعني أن الصفة البرهانية الإقناعية خاصية تحضر في المثل والحكمة والشعر على حد سواء بل إن النظرية الحجاجية تذهب إلى أبعد من ذلك، فتعد أن أي نص شعري أو أدبي تكون له، إلى جانب الوظيفة

---

[235] محمد العمري: الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2001، ص ص 50-51.

الشعرية، وظائف أخرى، مثل الوظيفة الانفعالية و الوظيفة التوجيهية الإقناعية، والتي يعبر عنها بالتعجب والندبة والاستغاثة والأمر والنداء، أو بأسماء الأفعال والروابط التداولية الحجاجية)[236].

يفهم من هذا كله أن الخطاب الشعري خطاب يراد به تحصيل المعنى من قبل المتلقي، وقد لا يكون هذا المعنى واحدا، بل يتعدد تبعا لتعدد القراءات، ومن ثمة لا يمكننا الجزم بقيام دلالة واحدة للنص الشعري، وذلك لتدخل عنصر التأويل الذي يقتحم ذواتنا ليفرض علينا متوالية من الدلالات. (إن إحدى أهم خصائص النص الشعري في نظر الأسلوبية الحديثة تتجلى في كونه نصا مغلقا على مرجعيته منفتحا في دلاليته: يحيل على نفسه، ويتيح إمكانيات متعددة في القراءة)[237].

إن هذا الانفتاح الواقع في النص الشعري والذي يسمح بتعدد القراءات يحيلنا إلى جملة من المفاهيم التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالخطاب الشعري ومدى خصوصيته، وطبيعة هذه المفاهيم هي التي تلعب دورا كبيرا في إمكانية قيام بلاغة شعرية. وهذا ما أشار إليه "صلاح فضل" في قوله: (ولكن لا ينبغي أن نغفل أهمية بعض المصطلحات الشعرية التي تلعب دورا أساسيا في القضايا البلاغية من منظور شعري. وأبرزها في تقديرنا هو مصطلح "الانحراف" الذي تعددت صيغه في اللغة العربية. فمرة يبحث الرفاق له عن معادل بلاغي قديم وهو "العدول" فيقلمون أظافره ويثلمون حدته، ومرة أخرى يلجأ الباحثون إلى كلمة ذات إيحاء مكاني واضح هي "الانزياح" تفاديا للإيحاء الأخلاقي المقصود والمستثمر في كلمة "انحراف")[238].

وهذا ما نوه به "العمري" في مطلع حديثه عن الانزياح الذي لا تتوفر فيه صفة الشعرية إلا إذا كان متضمنا لعنصر التأويل الذي يتيح رؤية النص الشعري من عدة زوايا. (إن الانزياح عندنا ليس مطلبا في ذاته؛ بل هو سبيل لانفتاح النص وتعدديته. وهذا لا يعني أن الانزياح مرادف للغموض، فالغموض ليس إلا عرضا، وهو نسبي. ونعني بالعرضية كونه مظهرا من مظاهر الانزياح وليس مقوما شعريا في ذاته)[239].

ويمكن أن نمثل لذلك بالمخطط الآتي:

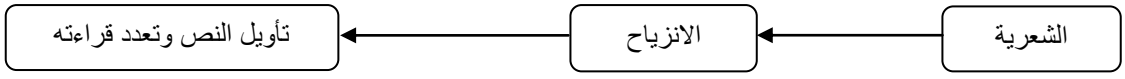

[236] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 293.

[237] تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، ص 43.

[238] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص ص 56-57.

[239] تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، ص 43.

ومادام النص الشعري يخضع للتعدد في القراءات، فإن هذا من شأنه أن يمد في أجل الخطاب الشعري الذي تعد الوظيفة التواصلية سمة بارزة فيه. (ولا بد من حضور الوظيفة التواصلية وإلا فقد الشعر انتماءه إلى اللغة، وهذا التصور يمكن أن يعبر عنه بمفاهيم الهيمنة عند ياكوبسون، فالخطاب الشعري خطاب لغوي تواصلي تهيمن فيه الوظيفة الشعرية دون أن تغيب الوظيفة التواصلية)[240].

ليكون التواصل بذلك مطلبا ملحا في إمكانية قيام خطاب شعري بامتياز.

3-2 دراسة الخطابة (الخطاب الإقناعي):

يكتسي الخطاب الإقناعي اليوم أهمية كبرى في المجتمعات العربية والغربية على حد سواء، إذ ضار يمثل أولوية من الأولويات التي تستحق الدراسة والتناول في عصر شهد انفتاحا على شتى الميادين والتخصصات، وفي الحاجة إلى الخطاب الإقناعي يقول "العمري": (ثم إن دراسة الخطاب الإقناعي قد صارت من الأولويات في العصر الحديث فاستعانت لذلك بالأبحاث الاجتماعية والنفسية)[241].

ومعلوم بالضرورة أن الخطابة – كانت ولا تزال – هي من تمد أرض البلاغة بما تفتقر إليه من آليات الإقناع والتأثير، فكثيرا ما نجنح بالبلاغة من بعدها الشعري إلى بعدها الخطابي، وذلك مراعاة للمقامات والأحوال وما تفرضه الظروف الراهنة، فمثلا ما تعيشه أمريكا من أوضاع سياسية جعلها تبادر إلى تعزيز بلاغة الخطاب في جامعاتها، وإفراد شعبة خاصة بفنيات التواصل والإقناع على حد تعبير "العمري". (ونظرا للدور الذي تلعبه بلاغة الخطابة في التأثير في الرأي العام الوطني والدولي وتوجيهه بادرت الولايات المتحدة منذ عقود إلى إعادة الاعتبار إلى هذه البلاغة بتحويلها من مادة ملحقة بتعليم الإنجليزية إلى مادة مستقلة في شعبة خاصة بفن التواصل وخطاب الإقناع، ومنذ سنوات كان يعمل فيها، حسب بيرلمان، أكثر من خمسة آلاف أستاذ، وألفوا في هذه المادة آلاف الكتب، كما أنشأت مجلة بعنوان "فلسفة وبلاغة"، يشرف عليها فلاسفة وبلاغيون)[242].

وبذلك يشيد "العمري" بعظيم شأن الخطاب الإقناعي وجزيل نفعه، ولعل ذلك هو ما دفعه إلى تأليف كتاب يعنى به. فكان أن سماه تحت عنوان " في بلاغة الخطاب الإقناعي" إيمانا منه بضرورة تناول هذا النوع من الدراسة التي لا تزال شحيحة نادرة في مكتباتنا العربية، وإن وجدت فمظانها تعزى إلى لغات أجنبية يجد الطالب الجامعي عسرا في ترجمتها. (مازال الطالب الجامعي ودارس الخطاب الإقناعي يقلب بصره في رفوف المكتبة العربية فلا يجد شيئا يغني في هذا الموضوع فيولي وجهته نحو المكتبة الفرنسية

---

[240] مرجع سابق، ص 37.

[241] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 8.

[242] المرجع نفسه، ص 14.

والإنجليزية، لا أستثني من ذلك إلا الكتاب الجماعي الذي أصدره أخيرا (1999) زملاؤنا في " فريق البحث في البلاغة والحجاج" بجامعة منوبة بتونس، تحت عنوان: "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم")[243].

كما يشير "العمري" إلى ضرورة التفريق بين النص الشعري والنص الخطابي الإقناعي أثناء الدراسة، فكل خطاب وله طبيعة موضوع تميزه عن أي خطاب آخر. (اعتاد الدارسون العرب المحدثون وتبعهم في ذلك المدرسون في الثانويات والجامعات، معاملة النص الخطابي الإقناعي نفس معاملتهم للنص الشعري أو أي نص إنشائي آخر. وهذا يجافي الروح المنهجية التي تقتضي أخذ طبيعة الموضوع بعين الاعتبار عند تحديد منهج تناوله)[244].

وبذلك تتعدد الخطابات تبعا لتعدد النصوص، ونجد أنفسنا أمام بلاغات، وكل بلاغة تنشد خطابا مخصوصا بعينه. (وبفضل الجهود المبذولة في مجال كشف النسق البلاغي وفاعليته في مجالات الخطاب المتعددة، وبفضل الدقة التي يتميز بها التناول البلاغي للخطاب. نلاحظ أن البلاغة صارت اليوم منطقة مشتركة بين العلوم، تصدر مفاهيمها إلى المجالات الأخرى، فأصبح لكل خطاب بلاغة، ذلك أن لا علم يستطيع أن يستغني عن البلاغة باعتبارها أداة الفهم والإفهام وأداة التأثير والاستمالة)[245].

نستشف من كلام "العمري" أن البلاغة لم تعد مقصورة على خطاب واحد، فالخطاب الشعري يفرز لنا بلاغة شعرية، كما أن الخطاب الإقناعي هو الآخر ينتج بلاغة إقناعية، هاته البلاغة التي تتسم ببعدين: بعد مقامي منطقي استثمره "أرسطو" في خطابته، وبعد تداولي سياقي يعنى كثيرا باللفظ وما يحيل إليه من المقاصد. وعن طبيعة هذين البعدين يقول "العمري": (البعد المقامي المنطقي المتعلق بالجانب السيكولوجي والاجتماعي، وهذا هو الذي اهتم به أرسطو كثيرا في الخطابة، وليس له نظير في البلاغة العربية، فيما أعلم، غير شذرات، وقد حاولنا بناء المتاح منه في الفصل الرابع من القسم الأول من كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، في قراءتنا لمشروع الجاحظ في البيان والتبيين، والبعد التداولي اللساني السياقي الذي يهتم بملاءمة العبارة للمقاصد. فهذا المبحث غني جدا في البلاغة العربية وهو الذي صاغه السكاكي في أعقاب عبد القاهر الجرجاني، واعتبره مركزا للبلاغة ولبا)[246].

---

[243] مرجع سابق، ص 5.

[244] المرجع نفسه، ص 7.

[245] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 17.

[246] المرجع نفسه، ص 250.

ومن خلال هذا يتضح لنا جليا أن البلاغيين العرب لم يهتموا كثيرا بالقضايا المنطقية، على غرار عنايتهم واشتغالهم بالقضايا التداولية واللسانية. (ولم ينشغل البلاغيون العرب بالقضايا الصورية المنطقية التي شغلت الفلاسفة الإغريق، واهتموا بدراسة المستويات اللغوية (الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي)، وربطوا بينها وبين المعنى، وعالجوا الأداء الصوتي والتعبير الجسدي والإشاري، واهتموا بعناصر التأثير والإقناع، وربطوا بين التأثير، وشخصية المتكلم، وهيأته وحركاته، وأدائه، ولسنه، وطلاقته وحبسته، كما درسوا الخطابة وقواعدها، وعناصر التأثير والإقناع فيها)[247].

وحتى يتحقق الإقناع في الخطاب لزم أن تتحقق جملة من الأغراض في القول، وهذا ما بحث عنه "العمري" في دراسته لباب البيان عند الجاحظ. (وقد لخص الدكتور محمد العمري الأغراض الإقناعية التي يحققها القول حسب تصور الجاحظ في "استمالة القلوب وميل الأعناق والتصديق وفهم العقول وإسراع النفوس والاستمالة والاضطرار والتحريك وحل الحبوة...)[248].

3-3 دراسة البلاغة بين الشعرية والخطابية:

عرفت البلاغة العربية تأرجحا في المفاهيم والرؤى، فكان تارة تنسب إلى جانب شعري يغذيه البديع، وتارة أخرى تنسب إلى جانب خطابي يغذيه البيان، وظلت البلاغة العربية تشهد تداخلا كبيرا بين الشعر والخطابة وكأنهما وضعتا في قالب واحد، إلى أن جاء "أرسطو" وفصل بينهما. وهذا ما أكده "العمري" بقوله: (ولقد تنبه أرسطو لذلك ففصل الخطابة عن الشعر، وألف في كل منهما كتابا مستقلا، وتبعه في ذلك الفلاسفة المسلمون فحرصوا على التفريق بين طبيعة الشعر الذي يهدف إلى التخييل وطبيعة الخطابة الهادفة إلى التصديق حسب الأحوال والاحتمال)[249].

وبذلك ترتسم أرض البلاغة لتتسع وتشمل طريقين اثنين: طريق الشعرية يمثله الجانب التخييلي الذي يقوم أساسا على الإمتاع، وطريق الخطابية ممثلا في الجانب التداولي الذي يقوم أساسا على الإقناع. ولعل هذا ما دفع "العمري" إلى تأليف كتاب يعنى بهذين الجانبين فكان أن جعله تحت عنوان: "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول" في إشارة منه إلى البعدين اللذين أصبحا يشكلان جناحي البلاغة التي يراها أنها بلاغة عامة مازال يكتنفها الغموض واللبس من لدن الباحثين. (فبرغم العمل التركيبي الذي قدمناه في كتاب: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، والعمل النسقي التاريخي الذي قدمناه في كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مازال مفهوم البلاغة غامضا في أذهان الكثير من الباحثين، خاصة في

---

[247] محمود عكاشة: تحليل الخطاب، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2013، ص 50.

[248] البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 198 نقلا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص ص 64-65.

[249] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 7.

المشرق العربي، وهذا ما لمسته بقوة في الندوات القليلة التي شاركت فيها في السنوات الأخيرة، بحيث نجد أنفسنا نتحدث عن شيئين مختلفين. وقد عبرت أحيانا عن عدم جدوى الحوار المباشر؛ ذلك أن الآخر لا يقدم تصورا متكاملا يأخذ كل مكونات التراث العربي بعين الاعتبار، بل يكتفي بما وصله مبتورا من مسار السكاكي وشراحه.

فحين نتحدث نحن عن بلاغة عامة ذات جناحين: التخييل والتداول، يتحدث هو عن "علم المعاني" و "علم البيان" و "علم البديع"، مخرجا الجاحظ و ابن سنان وحازم ومن اتصل بهم، أو سار في طريقهم، من مجال تصوره واهتمامه. ومن حسن الحظ أن جيلا جديدا من الشباب بدأ يتبنى التصور الجديد للبلاغة العامة، وصار البعد الحجاجي للبلاغة يحظى بعناية خاصة، وتسجل برسمه أطروحات جامعية لأول مرة في جامعات شرقية)[250].

ينقلنا "العمري" بهذا الكلام نقلة نوعية تستلزم منا إعادة النظر في رؤيتنا للبلاغة رؤية من شأنها أن تنظر لبلاغة جديدة قوامها الحجاج الذي بات مطلبا أساسيا في كل عملية فكرية ونقدية.

ويضيف إضافة بالغة الأهمية تضع الجانب التاريخي في دائرة الإنصاف، كونه لم ينكر البتة الحضور الدائم والمستمر للبعدين: الشعري والخطابي في البلاغتين العربية والغربية على حد سواء.

(وإذا كان الجانب التاريخي يقدم معرفة بمنابت البلاغتين العربية والغربية، ويصرف النظر عن بعض الأسئلة الزائفة، مثل سؤال الأصل والأثر، فإنه يقدم بدوره الحجة القاطعة على أن البلاغة كانت دائما ذات جناحين: جناح شعري وجناح خطابي، جناح تخييلي وجناح تداولي)[251].

وبذلك فإن البلاغة لم تعد حكرا على جانب دون جانب آخر، بل اتسعت رقعتها وأضحت إمبراطورية مترامية الأطراف بعد أن كانت إمارة يكتنفها الجمود والتقوقع في المفهوم، وهذا ما رجح انتقالها من بعد جمالي فني إلى بعد حجاجي إقناعي، وأمدت الباحث العربي والغربي بآليات وميكانيزمات سهلت له الطريق إلى إحداث نوع من التواصل بين عديد النصوص.

(وتجعل الوظيفة الإقناعية للبلاغة من التواصل معركة، يصير فيها الكلام سلاحا، والهزيمة جرحا قاتلا، ولأجل هذه المعركة تضع البلاغة بين يدي المتكلم مجموعة من الإمكانات الفكرية [...] والعاطفية [...] واللغوية [...] وحتى التمثيلية [...] ومن هنا نخطئ حين نعتبر البلاغة جمالية للغة، إنما هي أيضا فلسفة التفكير، وثقافة المجتمع، وأيديولوجيات الطبقات، وأسلوبية الحوار، ومثال العقل البشري عموما، هكذا فلفظ

---

[250] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص ص 6-7.

[251] المرجع نفسه، ص 7.

البلاغة يمتلك دلالة مزدوجة: فهي أداة محاججة ووسيلة تفكير وتقنية للإقناع. إضافة إلى كونها فن القول وجودة الحديث والكتابة فيما بعد)[252].

فهو يؤكد على البعدين التخييلي والتداولي اللذين نظر لهما الباحث "محمد العمري"، والذي أشار سابقا إلى أن "أرسطو" قد تنبه إلى ذلك حين فصل بين الشعر والخطابة. وفي هذا الفصل يقول "الكواز": (وهذا الفصل ليست اعتباطيا، بل هو يؤكد الحدود القائمة بين كل من الشعرية والبلاغة: فالأولى تدرس المحاكاة (أو التخييل بمصطلح الفلاسفة العرب)، إنها تهتم باستحضار الصورة؛ بينما تدرس الثانية السبل المؤدية إلى الإقناع، إنها تتعلق بالتواصل اليومي، بالفكرة)[253].

وبهذا الطرح الذي يقدمه "العمري" عن البلاغة ببعديها التخييلي والتداولي، يلفت انتباهنا إلى مشروع يمكن تمثله في الحاضر ليكون مهيئا لمجاراة المستقبل، هذا المشروع الذي ينقل البلاغة من بلاغة خصت في مرحلة سبقت بخطاب بعينه إلى بلاغة تشمل عدة خطابات: إنها بلاغة عامة. وهذا ما أكده "الكواز" في قوله: (تحول البلاغة إلى علم مستقبلي، حيث صارت تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فهي لم تعد علما خاصا (بالخطاب)، وإنما صارت علما عاما (للخطابات) كافة، وهو ما يعبر عنه مصطلح (البلاغة العامة))[254].

---

[252] البلاغة والنقد، ص ص 23-24.

[253] المرجع نفسه، ص 24.

[254] المرجع نفسه، ص 24.

ثانيا: البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي

1 بلاغة الخطاب الإقناعي:

1 1 بلاغة الإقناع :

تعد بلاغة الإقناع مطلبا رئيسيا في دراسة الخطاب الذي أضحى يشكل اليوم نافذة مطلة على حقل الأدب عموما وعلى أرض البلاغة خصوصا، وذلك لما له من قيمة مضافة، وتكمن هذه القيمة في تضمنه للقصدية التي يراد بها التأثير، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يعد خطاب ما خطابا حقيقيا إلا إذا كان موجها للغير ويراد به التأثير، وثمة جوهر الخطاب، ولذلك عنى "أرسطو" كثيرا بالخطابة وعدها صناعة تتصدر كل الصنائع الإنسانية وذلك راجع إلى دور الإقناع البارز فيها. (وقد اكتست الخطابة هذه المكانة من دورها في الحياة اليونانية القائمة على نظام ديمقراطي يلعب فيه الإقناع دورا مهما سواء في المجالس الاستشارية أو المحاكم أو المحافل)[255].

وحسب كلام "العمري" فإن الخطابة اليونانية لم تكن لتقوم لولا الإقناع الذي بات بلاغة يروج لها، وصنعة يسعى كل خطيب أن يحسنها، وهذا ما جعل "أرسطو" يعرفها تعريفا يصفها بالقوة التي تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة، وبهذا التعريف يكون قد أسس لبلاغة الإقناع في الحضارة الغربية، وللحضارة العربية التي استلهمت الكثير من آرائه. (وبهذا التعريف وما استتبعه من بحث في وسائل الإقناع والتأثير صار أرسطو أستاذا لمن بحث بعده في موضوع الخطابة من القدماء، واكتست نظريته في التأثير حسب الاحتمال، وما يقبله الجمهور أو يرفضه، أهمية كبيرة عند المحدثين)[256].

لقد سعى "أرسطو" إلى توضيح ماهية الخطابة، وأهم الأسس التي تقوم عليها لإخراجها من دائرة السفسطة التي التصقت بها لفترة من الزمن، وتوجيه الخطابة وجهة تقوم على الإقناع والتأثير. (وقد أعاد أرسطو الوضع إلى نصابه حين فرق بين الخطابة والسفسطة من جهة، وبين الخطابة والجدل، من جهة ثانية، معتبرا البلاغة تقنية تقدم الوسائل المناسبة للإقناع في كل حالة حدة، فهي أشبه بالطب؛ أي أنها لا تقدم الشفاء قطعا وغي جميع الأحوال (كما يزعم السفسطائيون)، بل تقدم وسائل العلاج في كل حالة على حدة)[257].

---

[255] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 15.

[256] المرجع نفسه، ص 19.

[257] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 23.

كما يحيلنا "العمري" إلى نقطة بالغة الأهمية، تتمثل في التعدد الذي يحصل لبلاغة الإقناع، فلا تكون واحدة في نسقها، وذلك يعود إلى طبيعة الخطاب في حد ذاته، فالبلاغة اليوم لم تعد تلك البلاغة الأحادية التي تركن إلى زاوية ضيقة، بل أضحت البلاغة بلاغات، وكل بلاغة تختص بخطاب مخصوص، وكل خطاب مخصوص له متوالية من الأقوال و الملفوظات التي يرجى منها إحداث نوع من التواصل الذي يتوج ببلاغة الإقناع. (وبفضل الجهود المبذولة في مجال كشف النسق البلاغي وفاعليته في مجالات الخطاب المتعددة، وبفضل الدقة التي يتميز بها التناول البلاغي للخطاب، نلاحظ أن البلاغة صارت اليوم منطقة مشتركة بين العلوم، تصدر مفاهيمها إلى المجالات الأخرى، فأصبح لكل خطاب بلاغة. ذلك أن لا علم يستغني عن البلاغة باعتبارها أداة الفهم والإفهام وأداة التأثير والاستمالة)[258].

وبما أن بلاغة الإقناع تتواجد بصور متفاوتة في الخطاب الذي يراد به إحداث التواصل في مجتمعنا المعاصر، فقد حظيت بلاغة الإقناع باهتمام الدارسين على اختلاف وتباين الرؤى والتوجهات من مجال إلى آخر، وتبعا لذلك تزيد حدة الإقناع الذي بات مطلبا ملحا في كل التخاطبات، حتى اليومية منها. وهذا ما جلب انتباه الباحث "محمد العمري" فهيأ نفسه وقلمه للخوض في بلاغة الخطاب الإقناعي. (وبالنسبة إلى الدراسات البلاغية العربية المعاصرة، يمكن أن نستحضر كتاب محمد العمري: "في بلاغة الخطاب الإقناعي" الذي صدر أواسط العقد الثامن من القرن الماضي، وأعيد طبعه سنة 2002، وفيه يلاحظ افتقار المكتبة العربية إلى دراسات للخطاب الإقناعي، وفي الواقع، يعتبر هذا الكتاب، إلى جانب بعض الدراسات والرسائل الجامعية، من الأعمال القليلة التي تولي اهتماما لهذا الموضوع)[259].

ونسجل اختلافا بين الغرب والعرب في تعاطيهما مع بلاغة الإقناع، إذ يرتبط الإقناع عند الغرب بالخطابة التي أرسى قواعدها وحدد أجناسها "أرسطو"، في حين نجد أن الإقناع عند العرب شديد الصلة بعمليتي الفهم والإفهام، وذاك هو البيان الذي جاء به "الجاحظ". (نسجل هنا ملاحظة تبدو لنا ذات أهمية كبيرة، وهي أن كلمة بلاغة ظهرت في تاريخ وصف الخطاب في اللغة العربية في الحقل نفسه الذي ظهرت فيه في الريطورية (الخطابية) عند اليونان وهو الخطابة. ولا يتعلق هذا الاستنتاج بقضية الأثر والتأثر والتبعية والأسبقية، بل يتعلق بطبيعة الخطابة نفسها. لقد كان من المعقول تفرع البلاغة عن البيان؛ فتحول البيان إلى بلاغة يعني تقديم الإفهام على الفهم، إن لم يعن التخلي عن الفهم لصالح الإفهام نهائيا، أي الخروج من نظرية المعرفة إلى نظرية الإقناع)[260].

---

[258] مرجع سابق، ص 17.

[259] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 26.

[260] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 40.

وبهذا يؤكد "العمري" على ذلك الانتقال النوعي الذي قفز بالبلاغة العربية من بلاغة تعنى بالمحسنات و الزخارف اللفظية إلى بلاغة تعنى بعملية الفهم والتأثير في المتلقي. (ولعل هذا ما جعل الجاحظ، وهو يحمل هم الإقناع حسب الأحوال، يرد البيان، كما سبق، إلى الفهم، ثم يقايضه بالبلاغة وكأنه يتحدث عن شيء واحد، ثم يرهن البلاغة بمراعاة الأحوال مقايضا إياها بالخطابة. فالبيان هو الفهم، من جهة، وهو إظهار الحجة، من جهة ثانية)[261].

1 2 البعد الإقناعي للبلاغة العربية:

لم تعرف البلاغة العربية طيلة قرون من الزمن استقرارا في المفهوم، وظلت تتأرجح بين عدة توجهات جعلتها لا تقف عند نسق واحد، بل تعددت أنساقها ودلالاتها، وذلك راجع إلى انصهارها مع علوم أخرى. (من أسباب اضطراب مفهوم البلاغة كونها ملتقى لعلوم مختلفة لكل منها علقة بالخطاب وحاجة إلى استنطاقه وكشف جانب من أسراره. ولذلك كان حازم القرطاجني يعتبر البلاغة، بحق، "علما كليا" يستند إلى علوم أخرى لا بد من تحقيق الكفاية منها قبل اقتحامه، وهي علوم اللسان بما فيها من نحو و استدلال. ولهذا الاعتبار شبهها بالطب، وشبه المتسرع في معالجة قضاياها بالشخص الذي قضى ليلة في مطالعة كتب الطب، وفي الصباح حرر وصفة لصديقه المريض فعجل برحيله إلى العالم الآخر، وكان حازم ينظر، في هذه الصورة، إلى علماء الكلام الذين ينطلقون من بعض مبادئ البلاغة للحسم في قضايا عقدية عويصة. غير أن الإحاطة بكل العلوم المتداخلة في المجال البلاغي مما تضيق به الأعمار وتنقطع دونه أسباب الأفراد)[262].

إن هذا التداخل الحاصل بين البلاغة وعلوم أخرى من شأنه أن يحد من فعالية البلاغة، ويعجل بأجلها، فكثيرا ما جنحت البلاغة العربية في عصور خلت إلى تغيير وجهتها من مسار إقناعي يقوم على الفهم والإفهام إلى مسار جمالي يقوم على الإبلاغ وتحسين الصورة. (يمكن تتبع هذا الأمر بجلاء في الثقافة الحديثة، منذ بداية عصر النهضة إلى الآن. فبعد ازدهار وتوسع عرفتهما البلاغة القديمة، عربية وغربية على حد سواء، ساهمت ظروف مختلفة في انكماشها، فتخلت عن مناطق واسعة كانت تحت سلطتها، خاصة في مجال الإقناع. وبذلك صارت مجرد لوائح من الصور البديعية منفصلة عن النص والإنسان تحمل معها نصا محنطا، في شكل أمثلة مكرورة مفتعلة، وتخاطب إنسانا لم يعد له وجود في هذا العصر)[263].

---

[261] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 38.

[262] المرجع نفسه، ص ص 12-13.

[263] المرجع نفسه، ص 13.

فـ "العمري" من خلال كلامه هذا ينقلنا إلى معايشة البلاغة التي لم تعرف – حسب رأيه– توازنا في المفهوم، وبالتالي فإن عملية البحث عن بعد إقناعي لها يظل أمرا مؤجلا لا يمكن الفصل فيه إلا بالعودة إلى المصطلحات والمفاهيم التي عرفتها البلاغة قبلا، ومن جملة ذلك اقترانها بالصور البديعية التي جاء بها "ابن المعتز". (فإن أول كلمة تربعت فوق مجموعة من المصطلحات المرصودة لوصف الخطاب من زاوية الخصوصية التعبيرية هي، فيما أعلم، كلمة بديع. كان ذلك في القرن الثالث الهجري مع عبد الله بن المعتز [...] وظل مصطلح "بديع" يتغذى من النقد التطبيقي والخصومات الأدبية أكثر من أربعة قرون، موسعا دائرة نفوذه لتضم كل صور التعبير ووجوهه اللسانية، غير عابئ بمقامات القول ومقاصده، أي بالأبعاد التداولية للخطاب)[264].

إن حصر البلاغة في جانب من الصور البديعية ومحسنات الكلام تغييب للبعد التداولي الحجاجي، وحضور للبعد التخييلي الشعري، وبذلك تكون وجهة البلاغة ممثلة في جانب إمتاعي صرف، لا يقيم وزنا للجانب الإقناعي. وذلك ما نوه به "العمري" في سياق حديثه عن البديع وإقصائه لمقامات القول ومقاصده. (ولكن لا أحد من البديعيين خاض في الأبعاد المقامية والحجاجية)[265].

إذا ما أردنا أن نفتش عن ذلك البعد الإقناعي في بلاغتنا العربية، فلا سبيل لنا إلا بالطرق على باب البيان والتبيين لـ "الجاحظ" الذي عُد بحق من الأوائل الذين تفطنوا لآلية الإقناع وما يلعبه من دور بارز في عملية التخاطب، وهذا ما أشار إليه "العمري" في قوله: (الكلمة الأخرى التي تربعت على مجال خطابي متميز وأنتجت لائحة مصطلحية دالة على علم جديد، قبل استقرار مصطلح بلاغة، هي كلمة بيان. كان ذلك أيضا في القرن الثالث الهجري، مع الجاحظ، المتوفى سنة 255 هـ، في كتابه البيان والتبيين، (أي بحوالي عقدين قبل ابن المعتز)) [266]. فلقد اهتم الجاحظ بالبيان وربطه بعمليتي الفهم والإفهام في محالة جادة منه للتأسيس لمشروع بلاغي يضع البيان ممثلا شرعيا للبلاغة، ولا يكون ذلك إلا إذا تحققت في البيان وظيفة التأثير و الإقناع. (لقد نص الجاحظ حين تصدى لتعريف البيان على أنه فهم وإفهام، [...] فالأمر يتعلق بإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر. وقد وصل الجاحظ إلى هذا المعنى انطلاقا من الوظيفة الأولى للغة وهي التواصل وكشف الكامن في الصدور، ولذلك فقد مهد لمطابقة البيان بالفهم)[267].

---

[264] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص ص 36–37.

[265] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 33.

[266] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 38.

[267] البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 194.

نستشف من هذا الكلام أن "الجاحظ" أولى عناية كبيرة لبلاغة الخطاب الإقناعي القائمة على الإفهام والتأثير في المتلقي، وذلك من أجل حصول الوفاق بين أطراف الخطاب، وهذا ما أكده "العمري" بقوله: (فقد ظهرت النواة البلاغية الخطابية الأولى التي توازي كتاب البديع وتعادله في القرن الثالث الهجري هي الأخرى، نقصد بذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت. 255هـ). وهو كتاب مؤسس للحجاج وبلاغة الخطاب الإقناعي، ولا علاقة له بنقد الشعر كما بينا في الفصل المخصص له في كتاب البلاغة العربية. لقد تدرج الكتاب في تعريف البيان من الإفهام إلى التأثير والإقناع حسب المقامات)[268].

يحيلنا "العمري" بهذا الكلام إلى الدور الفاعل الذي يلعبه المقام في تحديد نوعية الخطاب الذي يلقى، ومن ثم فإن البعد الإقناعي المصاحب للخطاب يكون على درجة من القوة أو الضعف بحسب اعتبارات المقام الذي نوه به "الجاحظ" واعتبره أساسا تبنى عليه عملية الفهم والإفهام. (وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال)[269].

تظهر مراعاة المقام عند "الجاحظ" في حديثه عن الخطيب وما يجب أن يراعيه أثناء التخاطب، ليظل الإقناع تابعا ومردودا لطبيعة المقام، ويؤكد "العمري" على أن طبيعة الإقناع تتحدد حسب المقامات والأحوال. (...أن الغاية القصوى عند الجاحظ [في كتاب البيان والتبيين] هي الخطاب الإقناعي الشفوي. وهو إقناع تقدم فيه الغاية (الإقناع) على الوسيلة (اللغة) وتحدد الأولى طبيعة الثانية وشكلها حسب المقامات والأحوال)[270].

ومما تقدم ذكره نجد أن البعد الإقناعي حاضر بقوة في بلاغتنا العربية، وهذا ما جسده "الجاحظ" بعمق في مصنفاته وعلى رأسها البيان والتبيين. (يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام)[271].

(ويمثل الجاحظ الوجهة الأولى، فتناول استراتيجية الإقناع في كتابه البيان والتبيين)[272].

1 3 فاعلية الخطاب:

يعد الخطاب منتجا لغويا يرجى منه تحقيق سمة تواصلية بين الأطراف المتحاورة، وتكمن فاعليته في ذلك الأثر الذي يخلفه بعد كل عملية تخاطبية. وقد يكون موضوع الخطاب واحدا وقد يتعدد، وفي كثير

---

[268] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 33.

[269] البيان والتبيين، ج1، ص 136.

[270] محمد العمري: المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات، ع5، خريف–شتاء 1991،ص11، نقلا عن: استراتيجيات الخطاب ج2، ص 224.

[271] البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 200.

[272] استراتيجيات الخطاب، ج2، ص 223.

من الأحايين يتغير مسار الخطاب بفضل التفاعل الحاصل بين الأطراف فيغدو مناظرة. (وكانت العادة في الجاهلية وجزء من الصدر الأول للإسلام أن يتواجه الخطباء في الأسواق وعلى المنابر للتخاطب في مواطن الاختلاف. ثم صارت هناك مقامات دينية وسياسية وعلمية تفرض الحديث من جهة واحدة، فغلب مفهوم "الخطبة" وحيدة الاتجاه، وهذه هي التي اتخذت موضوعا للتنظير البلاغي عند "علماء الخطابة" ثم تدخلت عناصر معرفية في تسمية الصنف التفاعلي "مناظرة"، من تبادل النظر في موضوع)[273].

يفهم من كلام "العمري" أن الخطاب يتخذ عدة أشكال بحسب صنف المقام الذي يطلق فيه، وتبعا لذلك فقد يكون موضوع الخطاب واحدا وقد يتعدد، كما يضيف عنصرا مهما له قدرة كبيرة في إضفاء الحركة والديمومة على روح الخطاب، يتمثل هذا العنصر في التفاعل الذي يحدث بين الأطراف أثناء التخاطب. وإذا بلغ هذا التفاعل درجة من القوة فإنه يتحول إلى مناظرة، والتي عدها "العمري" "خطابة حجاجية". (وسنحاول ما أمكن ذلك الربط بأحوال المخاطبين. فيمكن تقسيم الخطابية الدينية؛ إلى ثلاثة أصناف وذلك حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه. فهو إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلم غافلا عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية. وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لا بد من المحاجة، والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية أو المناظرات)[274].

وهذا النوع الأخير الذي أشار إليه "العمري" هو ما يدخل ضمن إطار المناظرة، إذ حصرها في الخطاب الحجاجي الذي يعقد بين الطرفين، أحدها جاحد منكر لما يسمع، فيعمد الآخر إلى مقارعته و مناظرته حتى يعدل عن رأيه أو فكرته، ويورد "عبد اللطيف عادل" كلاما يصف فيه هذا التخريج الذي أعده "العمري" في سياق حديثه عن الخطابة الحجاجية (المناظرة).(بحسب هذا التخريج، فإن المناظرة خطابة حجاجية، تسائل جحود المخاطب، الذي يفترض فيه أن يكون ملما بالموضوع عالما به، ولكنه منكر لموقف مناظره بخصوصه. وهكذا فإذا كانت الخطابة بشكل مطلق تستهدف الجموع والعوام ، فإن المناظرة خطابة خاصة، وهو الأمر الذي تفسره المجالس المغلقة التي شكلت فضاء المناظرة، بحيث يكون الحضور مقصورا على العلماء والمتخصصين والأدباء... ومن ثم، فالمناظرة خطابة فكرية ومذهبية جسدت الحركة المعرفية التي سرت بشكل دينامي في المجتمع العربي والإسلامي)[275].

---

[273] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 55.

[274] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ص 40-41.

[275] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 150.

إلى جانب المناظرة هناك صنف آخر تفرزه فاعلية الخطاب يتمثل أساسا في القول الشعري الذي يأخذ شكل الخطاب الشعري والذي يقوم بوظيفة شعورية إذ يرتبط بالمشاعر والأحاسيس التي تعبر عن التجربة الفردية أو الجماعية للأفراد، ويمكن أن نعد الأقوال الشعرية أحد أصناف الخطابات التفاعلية. (وإلى جانب هذا الخطاب التفاعلي كان هناك صنف آخر من القول بدا وكأنه يسير في اتجاه واحد، هو القول الشعري. وهو مرتبط بالشعور باعتباره معرفة مبنية على المعاناة الشخصية)[276].

وتكمن فاعلية الخطاب الشعري في تحقيقه لوظيفة تواصلية، وبدونها يفقد حضوره ضمن الإطار العام للخطابات. (ولا بد من حضور الوظيفة التواصلية وإلا فقد الشعر انتماءه للغة. وهذا التصور يمكن أن يعبر عنه بمفاهيم الهيمنة عند ياكوبسون، فالخطاب الشعري خطاب لغوي تواصلي تهيمن فيه الوظيفة الشعرية دون أن تغيب الوظيفة التواصلية)[277].

وبناء على ذلك نشير إلى أن فاعلية الخطاب لا تتوقف عند خطاب واحد شعريا كان أم نثريا، بل تتعدد الخطابات، فكل خطاب له جملة من الأقوال تميزه عن أي خطاب آخر. (وهكذا أصبحنا أمام استعمالات واسعة لكلمة خطاب دالة على الكلام من أسفل السلم إلى أعلاه، مشيرة إلى بنائه أو محتواه: الخطاب الشعري، الخطاب التداولي، الخطاب الديني، الخطاب الفلسفي، الخطاب الروائي، الخطاب المسرحي، الخطاب السينمائي، الخطاب الإشهاري، وصولا إلى خطاب الصورة وخطاب المقدمات... الخ)[278].

وبذلك تتضح معالم الخطاب، ليشمل جميع المجالات والتخصصات، وقد يعبر عنه بالحوار، كونه يعقد بين أطراف متحاورة في قضية ما. وهذا ما دفع بـ "العمري" إلى اتخاذ الحوار شكلا من أشكال الخطاب.

(الحوار، في معناه العام. خطاب (أو تخاطب) يطلب الإقناع بقضية أو فعل. وفي معناه الخاص: كل خطاب يتوخى تجاوب متلق معين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما. صورته المثلى

---

[276] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 55.

[277] تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، ص 37.

[278] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 57.

مناقشة بين طرفين أو أكثر، وقد يكون تعقيبا بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائط الاتصال التي تتيح فرصة للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى)[279].

ومما تقدم ذكره نخلص إلى أن "العمري" أولى عناية فائقة بالخطاب، مبينا الأشكال التي يتخذها (مناظرة، حوار، أقوال شعرية...) وهنا ترتسم فاعلية الخطاب.

2 مقام الخطب:

2-1 الخطابة الدينية:

إن الغاية التي ترام من الخطابة – مهما تعددت أصنافها وألوانها- هي الإقناع، الذي صار آلية يعول عليها كثيرا في أي خطابة كانت، وسنحاول التطرق إلى الخطابة الدينية التي شاعت كثيرا مع ظهور الإسلام، فكانت أحد العوامل الهامة التي ساهمت في نشره، وتبيين الحق من بالطل، حتى أضحت صناعة يشتغل بها الكثير من الخطباء، وانقسمت إلى أصناف عديدة، وهذا الانقسام يعود أساسا إلى المقام الذي أطلقت فيه الخطبة. (فيمكن تقسيم الخطابة الدينية إلى ثلاثة أصناف وذلك حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه. فهو إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلم غافلا عما ينتظره فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية. وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لا بد من المحاجة، والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية أو المناظرات)[280].

وبهذا الكلام يكون "العمري" قد حدد الأصناف التي تقوم عليها الخطابة الدينية، وجدير بالذكر أن كل صنف من الأصناف المذكورة آنفا (التعليمية، الوعظية، الحجاجية) يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة القول الذي يمارس سلطة على الخطيب في انتقاء سلسلة من الأقوال والملفوظات التي تصلح أن تقال في خطبة دون غيرها، فلكل خطبة جنس مخصوص من الكلم، وذلك ما حاول "العمري" توضيحه في كتابه " في بلاغة الخطاب الإقناعي" من خلال استلهام آراء "أرسطو" في تقسيمه للخطابة وإسقاطها على نماذج من الخطابة العربية في القرن الأول. (فقد حاول محمد العمري تطبيق نظرية الإقناع عند (أرسطو) على نماذج من خطابة القرن الهجري الأول، متبعا في ذلك تقسيم أرسطو الثلاثي لعناصر الخطابة، وهي : وسائل الإقناع أو البراهين، والأسلوب أو البناء اللغوي، وترتيب أجزاء القول. بيد أنه صنف الخطابة إلى دينية وسياسية، وذكر ما يندرج تحت كل صنف مثل الخطابة الوعظية والمناظرات المذهبية وحوار الأنداد

---

[279] محمد العمري: دائرة الحوار ومزالق العنف، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2002 نقلا عن: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 59.

[280] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ص 40-41.

والراعي مع الرعية، كما عرض لكيفية توظيف بعض الشواهد الجاهزة، مثل آيات القرآن الكريم والأحاديث والأمثال)[281].

وإذا ما أمعنا النظر في التقسيم الذي اعتمده "العمري" للخطابة الدينية نجده يعتد بعنصر المقام الذي يعد مؤشرا فعالا في الحكم على الصنف المقصود من الخطابة. (يتوجب على المتكلم أن يأخذ بعين الاعتبار أن الشكل الذي يقترحه نص ما على مخاطبه لا يحدده النص نفسه، بل يحدده المقام، ذلك لأن الخطاب مشروط بالحاجة التي يلبيها، ولهذا تكون بنيته اللفظية والتركيبية والدلالية والبلاغية موضع تركيز واهتمام من قبل المتكلم. فالخطاب هو فعل تلفظ، وهذا يعني ضرورة استحضار المتكلم، لكنه فعل إقناع وتأثير أيضا، وهذا ما يفرض استحضار المقام وأخذه بعين الاعتبار عند إنتاج الخطاب)[282].

واعتمادا على فكرة المقام، فإن الخطابة الدينية تتنازعها ثلاثة مقامات:

- **مقام التعليم:**

وأول مقام تعرض له "العمري" في مطلع حديثه عن الخطابة الدينية مقام التعليم الذي يراه مقاما يحصل فيه وفاق بين طرفين: طرف ملقٍ وأخر متلقٍ، وذلك لما يكون بينهما من الرضا والقبول بحكم العلاقة التي تجمع بينهما، علاقة تبنى بين الخطيب وجمهوره أو المعلم وتلامذته، وبذلك يتطلب مقام التعليم تراوحا بين الأسلوبين الخبري والإنشائي، وهنا لا حاجة إلى حضور الحجاج، لأن الخطيب ليس في مقام المحاججة أو المقارعة، بقدر ما هو في مقام توجيهي إرشادي. (ويفترض أن يكون المرسل والمتلقي فيها في حال عطاء وتقبل، فإن تحقق ذلك كان الخطاب ابتدائيا (منطقا وأسلوبا) ، وذلك أظهر في الرسائل منه في الخطب، وإذا ما أحاطت بالخطيب ظروف خاصة صاحبت الابتدالية عناصر تأكيد وإقناع، فصارت الخطبة تتراوح بين الإخبار والتأكيد الإنشائي، وهذا هو الطابع الغالب عليها. وقلما بحثت هذه الخطابة عن عناصر المنطق والحجاج أو اهتمت بتجميل الأسلوب. بل تستثمر عناصر التأكيد والأمر والنهي والعرض وغيرها من أدوات الجملة الإنشائية)[283].

- **مقام الوعظ:**

إذا ما كان مقام التعليم يراد به حصول المخاطب على قدر معين من المعارف التي تجد قبولا عنده في تلقيها والتفاعل معها، فإن مقام الوعظ يتجه إلى المخاطب بصفة قصدية لإخراجه من دائرة الغفلة والسهو والنسيان ومن ثم حثه على العمل ترغيبا في الثواب وترهيبا من العقاب. (ولذلك قام الوعظ في أول الأمر

---

[281] استراتيجيات الخطاب ج2، ص 225.

[282] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 348.

[283] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 41.

على المزاوجة بين الوعد والوعيد كما هو الشأن في بعض مواعظ علي بن أبي طالب الذي يذكر بعذاب الآخرة حتى إذا رأى تغير أحوال مستمعيه وخوفهم ذكرهم بالنعيم)[284].

ويشير "العمري" إلى أن هذا الطابع (الوعد والوعيد) الذي غلب على المقام الوعظي في البدايات الأولى لظهور الإسلام لم يعرف الاستقرار، فمع توسع رقعة الإسلام وتغير الأحوال ظهرت فرقة من العباد اتجهت إلى الزهد في الدنيا واتخذته مطية إلى الآخرة، وهذا ما نستشفه في خطبهم التي يدعون الناس فيها إلى الزهد في نعم الدنيا لأنها أعراض زائلة، والتشبث بنعم الآخرة لأنها خير وأبقى. (غير أن الخطابة الوعظية لم تحتفظ على خذا التوازن إذ ما إن توسعت الإمبراطورية الإسلامية وتغلب الاتجاه إلى الحياة وشؤونها حتى ظهر رد فعل طائفة من العباد مالوا إلى التقشف والنقمة على الحياة وروادها، فأصبحت العلاقة بين المرسل والمتلقي متوترة يسودها الاتهام ويطبعها التشاؤم [...] وبذلك أصبح المعنى الملح على الخطباء والفكرة الجوهرية في خطبهم هي زوال الدنيا وخداعها، وبقاء الآخرة وضرورة التزود منها، مع الإكثار من ذكر فساد أحوال الناس، والتذكير بأحوال الأمم الماضية)[285].

- **مقام المناظرات :**

أما عن مقام المناظرات فهو مقام يشهد حضورا بارزا وفعالا للحجاج وآلياته، إذ يعد هذا الأخير مطلبا ملحا في الصراعات المذهبية والطائفية. (ولقد ظل الحجاج باستمرار محركا هاما لمستويات الحوار وتجاذب أطرافه، وظل عنصرا منشئا مفسرا للصراعات أو التوافقات بين المتخاطبين طيلة أطوار الحوار)[286].

وإلى جانب الحجاج تستند المناظرات على طرق البرهنة وعناصر التأويل التي يتطلب توافرها لدى المتلقي.

(فإذا كانت تتجلى كفاءة المرسل التداولية في صناعة الخطاب، فإنها تتجلى الكفاءة التداولية للمرسل إليه عند تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه)[287].

وفي هذا المقام يقول "العمري" : (إن المخاطب في المناظرات ينتمي إلى الصنف الثالث من المخاطبين حسب تصنيف ابن رشد، أي أنه من المقتدرين على التأويل الذي يتطلب إقناعهم برهنة (وحكمة). وهو من جهة أخرى موضوع موضع المنكر الجاحد، حسب تصنيف البلاغة العربية لمن يلقى إليهم الخبر، فاقتضى

---

[284] المرجع نفسه، ص 44.

[285] مرجع سابق، ص ص 44-45.

[286] الحوار وخصائص التفاعل، ص ص 196-197.

[287] استراتيجيات الخطاب، ج2، ص ص 257-258.

الأمر أن يعتمد على الحجج العقلية و النقلية حسب نوع الثقافة والأيديولوجية التي يحملها المخاطب: الميل إلى العقل والمنطق الصرف، أو توظيفه ف تأويل النصوص الدينية واستثمار الوقائع)[288].

ومن خلال ما تقدم ذكره يمكن أن نمثل للمقامات الدينية بالمخطط الآتي:

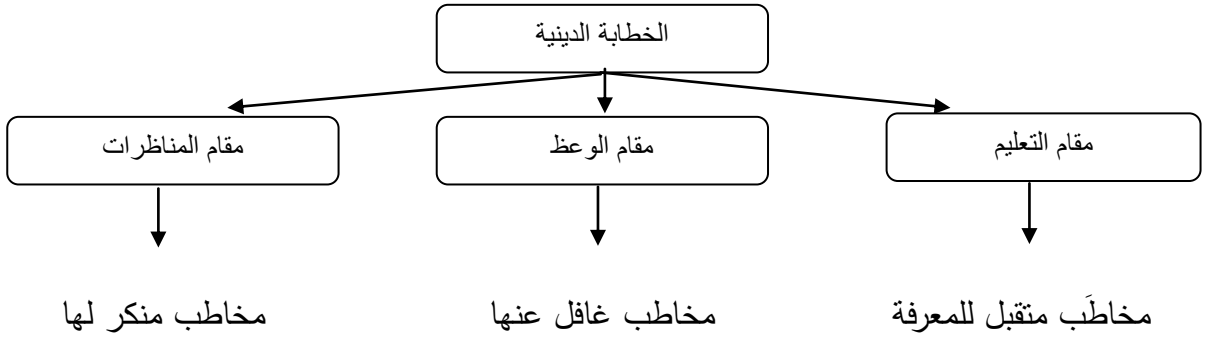

2-2 الخطابة السياسية:

ارتبطت الخطابة السياسية بجملة من الخطب التي كان القصد منها في بادئ الأمر (البدايات الأولى لظهور الرسالة) تعزيز شوكة الإسلام، لذا كان من الطبيعي أن تكون هاته الخطب ذات توجه ديني، وسرعان ما تم العدول عن ذلك ليتم الانتقال إلى الخطابة السياسية التي وجدت الأجواء المناسبة في ظل الصراع القائم حول السلطة في بيئة الإسلام. (الخطب المرتبطة ببناء الدولة كانت أول أمرها أميل للخطابة الدينية لطبيعة الدولة الإسلامية. وهي تعليمية وتحميسية موجهة إلى الجنود الفاتحين في الغالب، وكانت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء وقواد الجند هي الوسيلة الأولى المستعملة في علاج القضايا السياسية والعسكرية التي تهم سير الفتوح. وإنما برزت ملامح الخطابة السياسية أولا في الصراع حول الحكم، وكانت بذورها الأولى بعد موت الرسول مباشرة)[289].

(بعد وفاة الرسول، وما استتبع ذلك من صراع حول الخلافة وانشعاب السبل بين المسلمين حتى انتظموا في فرق متنازعة، لعبت الخطابة والمناظرة دورا بارزا في التدافع بين هذه الفرق. لذلك ستتخذ المناظرة خلال هذه الفترة وطوال العصر الأموي، طابعا دينيا وسياسيا)[290].

ويمكننا أن نستنبط من كلام "العمري" فكرة جوهرية غاية في الأهمية، تؤسس لمنطقة مشتركة يتقاطع فيها ما هو سياسي مع ما هو ديني، إذ يعد هذا الأخير دعامة يرتكز عليها رجال الدولة في توطيد الحكم وتقوية مواقفهم السياسية. (ويبدو هذا جليا حينما تدور المناظرة في مجلس السلطان، حيث يحضر ممثل السلطة السياسية. ويفضل أن تثار في مجلسه الموضوعات الدينية والعقدية لأنها تمس الحياة الاجتماعية

---

[288] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 46.

[289] مرجع سابق، ص 50.

[290] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 138.

وترتكز على الصراع الديني الذي يشكل أساس الصراع الاجتماعي الذي يشغل السلطة لتدعيم مركزها السياسي)[291].

ويقترح "العمري" تصنيفين للخطابة السياسية: تصنيف أول يكون الخطاب فيه حواران بين الأنداد، وبذلك يسعى كل طرف إلى ترجيح كفة الحوار لصالحه خدمة لموقفه السياسي، وتعزيزا لرؤيته إزاء الموضوع محل النقاش والمناظرة.

(وبهذا فالمناظرة مدعوة إلى عقد أسلوب لغوي معين، وتراكيب خاصة تتلاءم مع الجو الثقافي الذي يحكم المكان أو المجلس حيث تدور المناظرة؛ فالمؤسسات الاجتماعية والانتماء الاجتماعي للحاضرين في المناظرة يؤثران بشكل أو بآخر في بينتها وجريان الحجاج فيها. وإذا كان المتحاورون أبطال المناظرات ينتمون دائما إلى طبقة المفكرين والعلماء، فإن أسلوبهم في المناظرة ليس واحدا في كل الحالات، بل يختلف من مجلس إلى آخر)[292].

وتصنيف ثانٍ يكون الخطاب فيه حوارا بين الراعي والرعية، حيث يحرص الراعي على إرضاء الرعية لكسب ثقتهم، ولا يكون ذلك إلا باللفظ اللين، وإقحام الجانب الديني لاستمالة القلوب وجلب التأييد، وبذلك ترتسم كبيعة الحوار في الخطابة السياسية بين البعدين السابقين: الحوار بين الأنداد، الحوار بين الراعي والرعية.

- **الحوار بين الأنداد:**

ظهر هذا النوع من الحوار بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فبدأت المشاورات والمناظرات بين المهاجرين والأنصار أيهم يصلح لخلافة الرسول. ويشير "العمري" إلى أن هذا النوع من الحوار ليس بجديد على العرب، فقد خاضوا فيه وتناولوه بكثرة في الجاهلية قبل الإسلام.

(دار أغلب هذا الحوار حول قضية الخلافة وشؤونها، واعتمد النصح والمشاورات والمناظرات. ولم يكن هذا الصنف من الخطاب غريبا عن العرب في حياتهم الجاهلية، سواء في شؤون الحرب أو الرئاسة. وكانت لقريش دار المشاورات في حالتي السلم والحرب يتحدث فيها الخطباء مدافعين عن وجهة نظرهم، ولذلك كان عاديا أن يعودوا إلى هذا التقليد بعد موت الرسول. غير أن الأمور ستأخذ مسارا آخر لاختلاف تركبة المجتمع الإسلامي الجديد عن نظام القبيلة)[293].

---

[291] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص 1072.

[292] مرجع سابق، ص 1072.

[293] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 51.

لقد كانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هي المرحلة الحاسمة في تاريخ الإسلام، مرحلة كانت نقطة البداية لظهور الخطابة الاستشارية، التي سرعان ما ألقت بظلالها، خصوصا بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(والمناسبة الثانية للخطابة الاستشارية التي جلس فيها الفرقاء يستمع بعضهم لبعض، وينطلق فيها الخطاب من الند للند كانت بعد قتل عمر بن الخطاب، حين انتهت الإقصائيات والتصفيات بين أعضاء مجلس الشورى إلى ترشيح عثمان بن العفان، وعلي بن أبي طالب، ولم يكن الفصل بينهما سهلا)[294].

وبتوسع رقعة الإسلام التي شهدها العصر الأموي شكلت الأحزاب السياسية التي ما فتئت الخوض في مسائل الحكم والسيادة، وهذا ما مهد الطريق لظهور الفرق الكلامية التي أنتجت علم الكلام الذي خاض في عدة قضايا، حتى السياسية منها. وعموما فإن الحوار بين الأنداد يتطلب تقاربا في المستوى والكفاءة.

- **الحوار بين الراعي والرعية:**

يبنى الحوار هنا على نلك العلاقة القائمة بين الراعي والرعية، وحتى يضمن الراعي ولاءهم ورضاهم كان لزاما منهم أن يخاطبهم بخطاب لين، واضعا إياهم في منزلة مساوية لمنزلته، فيحاورهم محاورة الند للند. وهذا ما نوه به "العمري" في حديثه عن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. (فالعلاقة بين عثمان وبين الثوار علاقة بين راعٍ متمسك بأن تكون له الكلمة العليا للفصل، ورعية تنازعها هذا الحق وكان الوضع الذي يوجد فيه عثمان وقتئذ يفرض عليه أن يلين خطابه، ويقبل النصف في نفسه، ويخاطبهم مخاطبة الند للند)[295].

ويمكن أن نستدل بخطبة خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد بيعته كنموذج يصلح لهذا النوع من الحوار. (أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)[296].

---

[294] المرجع نفسه، ص 52.

[295] مرجع سابق، ص 55.

[296] أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط1، 1933، ج1، ص 67.

يتضح جليا أن هذا النوع من الحوار تحكمه علاقة الاندماج التي تبنى على تقريب المسافة بين الراعي ورعيته، وهذا من شأنه أن يوطد أركان الدولة، وخصوصا إذا كان الراعي ورعا ينطلق من منطلق ديني في مخاطبته للرعية، وهذا ما يعزز موقفه السياسي.

2-3 الخطابة الاجتماعية:

إذا ما كانت الخطابة الدينية منحصرة في مقامات التعليم والوعظ والمناظرة، فإن مقامات الخطابة السياسية تبنى على آلية الحوار الذي يأخذ أشكالا متعددة بحسب كفاءة ومنزلة الأطراف المتحاورة، ومع هذا فكثيرا ما تصادفنا خطب لا تمت بصلة لأي مجال ديني أو سياسي، وهذا النوع من الخطب يندرج تحت دائرة الخطابة الاجتماعية التي تتسع لمواضيع ومعان كثيرة متجذرة بعمق في تاريخ البشرية، ذلك أن أغلب العلاقات الإنسانية تقوم على طابع اجتماعي، ومن ثم فإن المواضيع التي لا تجد طريقها إلى الخطابة الدينية أو السياسية فإن الخطابة الاجتماعية هي من تحتضنها وتكفلها. وهذا ما أشار إليه "العمري" بقوله: (يدرج الدارسون جميع الخطب التي لا يستوعبها الموضوعان السابقان، أي السياسة والدين تحت عنوان فضفاض: الخطابة الاجتماعية، خاصة خطب الإملاك وإصلاح ذات البين والمخاصمات القضائية والمشاركة في المسرات والأحزان. ويمكن تصنيف هذه الخطب على كثرة موضوعاتها إلى صنفين: خطب في موضوعات اجتماعية تتناول العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع مثل خطب الإملاك، والصلح والمخاصمات القضائية وهي في أغلبها ذات طبيعة موضوعية. وخطب ذات طبيعة وجدانية هدفها المشاركة والإشراك في المسرات والأحزان، كالتعزية والتهنئة ووصف المشاهد والبلاد)[297].

أورد "العمري" هنا وصفا دقيقا للخطابة الاجتماعية، فعدها خطابة فضفاضة وهذا ينم عن سعة مواضيعها وتعدد أصنافها، وتجدر الإشارة إلى دور السياق البارز في صناعة الخطاب ولا سيما الاجتماعي منه. (وتتدخل عناصر السياق الاجتماعية في تحديد استعمالات اللغة، وفي انتشار بعض الاستراتيجيات على حساب انحسار البعض الآخر، مثل استعمال استراتيجية التأدب، مقابل استراتيجية الجفاء، أو استراتيجية المراوغة، التي يمكن تسمية خطابها، تأدبا، بالخطاب الدبلوماسي، وإن كان يجري هذا الخطاب في مناخ اجتماعي يومي. وليتواصل المرسل مع غيره بالخطاب، عبر استراتيجية معينة، يقتضي أن يمتلك كفاءة تفوق كفاءته اللغوية، ليتمكن بها من تحقيق ذلك، ويمكن تسمية هذه الكفاءة، بالكفاءة التداولية)[298].

---

[297] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص62.

[298] استراتيجيات الخطاب، ج1، ص 95.

إن هذه الكفاءة التداولية يمكن أن نمثلها بقدرات تواصلية تمد الخطاب بملكات اجتماعية تمكنه من بناء خطابه الاجتماعي بناء من شأنه أن يحقق أهدافا تواصلية معينة. وعلى هذا الاعتبار فقد قسم "محمد العمري" المواضيع التي تتناولها الخطابة الاجتماعية إلى صنفين من الخطب: صنف ذو طبيعة موضوعية وآخر ذو طبيعة وجدانية.

- **خطب ذات طبيعة موضوعية:**

وهذا الصنف من الخطب يحتكم إلى المتلقي باعتباره الحلقة التي يدور حولها الخطاب الاجتماعي، إذ يتحول المتلقي إلى حكم ليفصل بين المتخاصمين في قضية ما، فيكتفي بداية بالاستماع إلى حجج كل فريق على حدة، وفي خضم هذا يسعى كل جانب إلى تعزيز موقفه وحججه في مقابل تفنيد ودحض حجج الجانب الآخر. (ويكون المتلقي في الصنف الأول حكما ينظر في حجج المتخاصمين بحياد يجعلهما يعتمدان الحجة المقنعة، والأحوال المؤثرة كما يعتمدان التأثير الأسلوبي)[299].

وهذا النوع من الخطب يندرج ضمن المرافعات القضائية، وقد ضرب "العمري" مثالا عن ذلك يصور فيه تلك المخاصمة التي جرت بين أبي الأسود الدؤلي وزوجته حين وقع الطلاق بينهما، وأيهما أحق بالحضانة. فاحتكما إلى زياد بن أبيه أو معاوية بن أبي سفيان ليفصل بينهما، فيعمد كل منهما إلى حشد الحجج المنطقية والعقلية التي تصلح لمثل هذا النوع من المرافعة التي يمكننا أن نعدها مناظرة، وفي خضم هذا يقف الحكم موقف الحياد حتى يسمع ويسجل ملاحظاته حول القضية محل الخصام، وبعد تمحيص وتدقيق ومراعاة لأحوال المخاطبين ومقاصدهم ينطق بالحكم الذي يراه صوابا، وعن حيثيات هذه المرافعة يتحدث "العمري" قائلا: (وأشهر المخاصمات القضائية في العصر الأموي – وما وصلنا منها قليل – مخاصمة أبي الأسود الدؤلي و زوجته في موضوع الحضانة بعد الطلاق، فيروى أنهما احتكما إلى زياد أو معاوية [...] احتجت المرأة في هذه المرافعة بما بذلته في تربية الطفل، وما سبب لها من عناء تريد جزاءه، كما حاولت التأثير بما سيصيبها من حرمان إلى ما انتزع منها ابنها بعد أن أمَّلت نفعه. واعتمد أبو الأسود على المغالطة أولا ليوهن حجج المرأة، ثم احتج بمصلحة الطفل وتربيته الرجولية. وانتبهت المرأة إلى ضعف الجانب الأول من مرافعة أبي الأسود فعادت لتستغله ضده، ثم إنهما معا اعتمدا التأثير الأسلوبي، وانتبه الحكم إلى ذلك فقال: " ودعني من سجعك")[300].

يؤكد "العمري" على الدور الفعال للحجة أثناء المرافعات والمناظرات التي تعقد بين الأطراف، إذ يحرص كل طرف على إيراد حججه موردا حسنا يكفل له حسم القضية لصالحه، كما قد يعمد الخطيب

---

[299] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 62.

[300] مرجع سابق، ص ص 62-64.

إلى المغالطة والإيهام لإحقاق حججه وإبطال حجج الخصم، وهذا ما يدخل ضمن أسلوب المناورة والمراوغة في الكلام، إلى جانب التوظيف البديعي للتأثير على الحكم والذي عبر عنه "العمري" بـ "التأثير الأسلوبي"، والذي قد ينعكس سلبا على قائله فيغدو حجة عليه لا له. وهذا ما حصل لأبي الأسود الدؤلي مع زوجته، حين أكثر من السجع لحسم القضية لصالحه. والنص الآتي يبين ذلك: (فقال أبو الأسود: " أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله". فقالت المرأة: " صدق أصلحك الله، حمله خفا، وحملته ثقلا، ووضعه شهوة، ووضعته كرها". فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها، فهي أحق به منك، ودعني من سجعك) [301]. وإلى جانب هذا النوع من الخطب شاعت الخطب الخاصة بالزواج، حيث يعمد الخطيب إلى ذكر مناقب العريس وذلك سعيا منه إلى إقناع ولي العروس بمنزلة العريس الاجتماعية، فإن عدمها العريس، فإن الخطيب حينئذ يلجأ إلى ترجيح وتعزيز منزلته الدينية. (واهتم الخطباء في العصر الإسلامي بإظهار المزية الدينية خاصة إذا لم تكن للعريس مزايا اجتماعية أخرى)[302].

كما ظهر لون آخر من الخطب الاجتماعية – وهو ليس بجديد – تمثل في خطب الصلح، فقد عرفه العرب قبل الإسلام في الجاهلية، وهو ديدن الخطباء الذين يتوسطون بين المتخاصمين لإصلاح ذات البين. (وكان لهذه الخطابة مكانة خاصة في العصر الجاهلي، ولم تنقطع في العصر الإسلامي لاستمرار الصراعات القبلية)[303].

إلا أن هذا النوع من الخطب شديد الالتصاق بالبادية أكثر منه في الحضر على حد قول "العمري" نقلا عن "إحسان النص": (ويظهر أن أهل البادية كانوا أمهر في هذا اللون من الخطابة من أهل الحضر لاتصال موضوعاته بحياتهم وبيئتهم)[304].

- **خطب ذات طبيعة وجدانية:**

وهي خطب يعتمد فيها الخطيب على جانب شعوري محض لنقل جملة من الأحاسيس إلى المخاطبين وذلك لاستمالة قلوبهم، وفي هذا المقام لا يلجأ الخطيب كثيرا إلى الحجج، لأنه ليس في

---

[301] جمهرة خطب العرب، ج2، ص ص 376-377. توجد صورة أخرى لهذه المرافعة وكان الحكم فيها معاوية، انظر نفس المرجع ص 377.

[302] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 65.

[303] المرجع نفسه، ص 66.

[304] إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، مصر، 1969، ص 239 نقلا عن : في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 66.

موضع المحاجج. (أما الخطابة في موضوعات المشاركة الوجدانية فإن وضع الخطيب فيها أشبه ما يكون بوضع الشاعر، فالاستمالة فيها مقدمة على الحجة في الغالب)[305].

ومما تقدم ذكره عن مقامات الخطابة (دينية، سياسية، اجتماعية) نجد أن "العمري" ينقلنا نقلات نوعية في مطلع حديثه عن كل لون من ألوان الخطابة، مشيرا إلى أن الحجاج يسجل حضوره بقوة في بعض الخطب ليغيب تماما في بعضها الآخر. وهذا يرجع أساسا إلى طبيعة وخصوصية كل جنس من أجناس الخطابة.

3 صور الحجاج:

3-1 القياس:

يعد القياس آلية من الآليات التي تستعمل في شتى العلوم والمجالات، وذلك للوصول إلى حقائق الأشياء، أو اكتشاف خاصية من الخصائص التي تميز علما من العلوم، أما في المجال البلاغي الخطابي فإن كلمة "القياس" لا يمكن حصرها في قياس واحد، وذلك لتباين الخطابات من جهة، واختلاف طرق البرهنة والاستدلال من جهة ثانية. وعلى هذا الأساس نجد أنفسنا أمام أقيسة كثيرة، حيث كل قياس يعنى بخطاب بعينه، إلا أن القياس الذي اهتم به "العمري" هو القياس الخطابي الذي يراه قياسا فضفاضا. (كثيرا ما جمعت الآليات المتعلقة بهذا الجانب تحت عنوان شامل: القياس الخطابي. وهو يتسع ليشمل جميع صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع، قد يضيق ليدل على القياس الذي تضمر نتيجته أو إحدى مقدمتيه)[306].

وبذلك فالقياس لا يكون إلا انطلاقا من مقدمتين. (إنه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق)[307].

كما يؤكد "العمري" على أن نتائج القياس لا تكون نتائج محسومة بصفة قطعية لا تدع للشك مجالا، بل إن نتائجه مبنية على الاحتمال والترشيح. وبذلك عد مجالا خصبا لقيام الحجاج، ولا يحيط بعلمه إلا من أوتي حسنا في استعماله ووقوفا على آلياته ونماذجه. (والحقيقة التي نؤكدها هنا هي أن القياس بجميع أنواعه وتشكلاته هو ركيزة رئيسة من ركائز الخطاب بجميع أجناسه. ولا يوجد خطاب إلا ويستعين بهذه الوسيلة ليقنع المتلقي أو يؤثر فيه، أو ينقل إليه تصوراته وتخيلاته، وأحيانا كي يخدعه ويغالطه. لهذا

---

[305] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 67.

[306] مرجع سابق، ص 71.

[307] ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969، ص 68.

عد القياس وسيلة خطيرة لمن لا يحسن استعماله، أو يسيء فهمه وينخدع نتائجه، بسبب عدم الإحاطة بصوره وتجلياته ومخاتلته)[308].

وبما أن القياس لا يخضع في بنائه إلى شروط علمية دقيقة، فقد حصر "العمري" قيامه على الرأي بما يضعه في دائرة الاحتمال. (ففي حين يقوم القياس المنطقي على الاستنتاج العلمي الصارم، يقوم القياس المضمر، أي القياس الخطابي على الرأي [...] فالقياس المضمر هو قياس يقوم على الاحتمالات)[309].

ويقدم "العمري" نماذج للقياس الخطابي تتمثل في التعارض والتضاد، ويضرب مثالا لذلك عن الحجّاج حين زعم الناس أنه ساحر، والساحر في القرآن الكريم لا يفلح حيث أتى، والحجّاج أفلح. وهذا تعارض وتضارب في القول، فلو أنه كان ساحرا لما أفلح. (قال الحجّاج: زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: "ولا يفلح الساحر"، وقد أفلحت. وتخريجه:

لا يفلح الساحر

أفلح الحجاج

إذن: ليس الحجّاج ساحرا، (أو هم كاذبون، لأن تصديقهم يؤدي إلى تكذيب الله، والله أكبر منهم، فلا مفر إذن من أن ينكسر الأصغر))[310].

فهذا النوع من القياس فيه تعارض لكون قائله يطلق كلاما في حق المتلقي لا يليق به ولا يطابقه، فهو كلام يدخل في دائرة التناقض والتعارض.

وإلى جانب هذا النوع من القياس يورد "العمري" جملة من الأقيسة يمكن أن نمثل لها بهذا التخطيط:

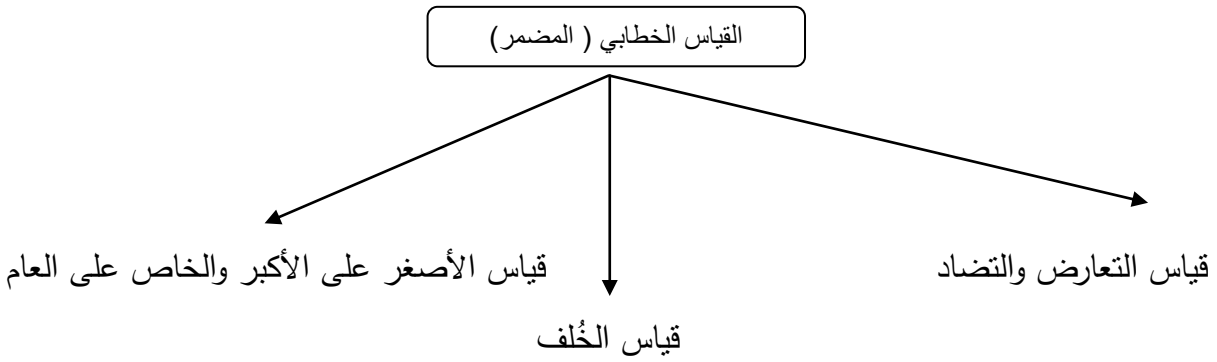

[308] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 175.

[309] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 71.

[310] مرجع سابق، ص 73.

وما أراد "العمري" أن يبينه هو أن مصطلح "القياس" عرف استعمالا واسعا في الخطابة العربية بمختلف أنماطه وأشكاله. (وقصارى ما نريد بيانه، بعد، هو أن الخطابة العربية استعملت أقيسة عقلية متنوعة يدخل أغلبها فيما أحصاه أرسطو، وذلك حتى قبل اتصال العرب بالفلسفة اليونانية اتصال ترجمة ودراسة وتأثر، وهذه البراهين والأقيسة تعود إلى طبيعة العقل الإنساني ومبادئه)[311].

ثم ما يلبث أن ينقلنا إلى أن القياس الخطابي (المضمر) القائم على الاحتمال إنما مجاله الذي يخوض فيه هو مجال الخطابة وخاصة القضائية منها، في إشارة منه إلى "أرسطو". (والقياس الخطابي يقوم على الاحتمال والترجيح، كما سبق، ومجاله الأساسي في نظرية أرسطو المرافعات القضائية. والمعروف أن هذا النوع من الخطابة لم تكن له أهمية كبيرة في العصر الذي ندرسه. على أن الواقع يقتضي الاعتراف بأن بعض المواقف التي يسعى فيها الخطباء إلى دفع التهمة أو التبرؤ من الوشاية أو تبريء ذمة القبيلة لا يمكن فصلها عن الخطابة القضائية إلا لاعتبارات تكاد تكون شكلية)[312].

وبذلك يحصر "العمري" القياس الخطابي في دائرة الخطابة، ليشمل كل أشكال الاستنتاج والاستقراء اللذين تحدث عنهما "أرسطو" في خطابته. (نجد في خطابة أرسطو وسيلتين منطقيتين أساسيتين هما الاستنتاج والاستقراء اللذان تعود إليهما البنيتان المنطقيتان الخطابيتان: الضمير والمثال، [...] فالضمير، حينئذ، إنما هو أقرب إلى مجال الخطابة منه إلى مجال المنطق، فهو يتوفر على إنتاجية استثنائية وخصوبة لافتة قائمة أساسا على الإضمار وعدم التصريح، فعنصره المفقود إنما يبنيه السامع ويستنتجه من خلال تحريك المضمر وكشفه وتعرية الغائب وفضحه)[313].

3-2 المثل:

يعتبر المثل وسيلة من الوسائل التي يجنح لها الخطيب في تعزيز آرائه، والتدليل على صحة ما يقول، وبذلك يكتسب المثل قيمة حجاجية كبرى في قيام جل الخطابات التي تقوم أساسا على صور المشابهة بين حالتين أو أكثر، وقد صور "العمري" المثل وعده صورا من صور الحجاج، كما أشار إلى "أرسطو" وتصنيفه إياه إلى صنفين: تاريخي ومصطنع. (يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي. والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها. وهو عند أرسطو تاريخي ومصطنع)[314].

---

[311] المرجع نفسه، ص ص 79-80.

[312] المرجع نفسه، ص 80.

[313] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1 ، ص ص 953-954.

[314] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 82.

وبهذا الكلام الذي ساقه "العمري" يكون قد أحالنا إلى البعد الحجاجي للمثل في كونه لا يقف عند لون واحد فحسب، بل تتعدد ألوانه وصوره تبعا لتغير المقامات، ليراد به الوصول نهاية إلى نتيجة مشابهة للحالة التي مثل لها الخطيب. (فالتمثيل – إذن– وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من جهات عدة، فهو خطاب للعقل بوصفه ينقل العقل من المعنى في الحالة التصورية العادية إلى الحالة التصديقية؛ لأنه بمثابة إحضار المعنى المدعى ليشاهد كما هو في الواقع، فكأنه – والحالة هذه– يقول لك هذا هو انظر إليه)[315]. (فأنت إذن، مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير مُمَثَّلٍ ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول: " هاهو ذا ، فأبصر تجده على ما وصفتُ").[316]

كما يضيف "العمري" إضافة تضع المثل كعنصر فعال في تحقيق الإقناع، لما له من أثر بالغ جاء على لسان القرآن الكريم، وهذا ما فسح مجالا واسعا لاستثماره في البلاغة العربية.

(وانتبه دارسو النص القرآني والبلاغيون العرب بالممارسة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع)[317].

ونوه "العمري" بأن القدماء قد عرفوا المثل وتجاوبوا معه على ألسنة الإنس والحيوان من كلام نقله عن "ابن وهب" صاحب كتاب "البرهان في وجوه البيان" ما نصه: (وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا، وأقرب مذهبا. ولذلك قال الله عز وجل: " ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل" [318] وقال: " وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم، وضربنا لكم الأمثال" [319] وكذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها)[320].

يستفاد من هذا الكلام أن المثل ليس حديث عهد بالبلاغة العربية، بل هو قديم ويمثل زاوية من زوايا الخطاب. (وإذن، فالعرب في العصور الإسلامية الأولى – سواء كانوا منتجين للخطاب أو متلقين له، أو

---

[315] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 179.

[316] أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص 122.

[317] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 83.

[318] سورة الروم، الآية 58/ الزمر، 27.

[319] سورة إبراهيم، الآية 45.

[320] البرهان في وجوه البيان، ص ص 117–119 نقلا عن: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 84.

باحثين فيه– على علم كبير بما للتمثيل من أهمية خاصة في التأثير في المتلقين من جهة، وفي جماليات الخطاب من جهة ثانية)[321].

وهذا ما دفع بـ "العمري" إلى اعتبار المثل ركيزة أساسية في قيام الخطابة، وقد يتسع معناه ليشمل صور البيان. (والواقع أن المثل يعتبر دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير، وإذا أخذناه بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارة، ولن نفعل ذلك إلا في حدود ضيقة، صار أهم دعائم هذه البلاغة)[322]. وبذلك تتضح معالم المثل كونه لا يحيل إلى وظيفة إقناعية فقط، بل يتجاوز ذلك إلى الخوض في أقسام البيان التي أشار إليها "العمري".

إلا أن وظيفة المثل لا تقف عند البيان فحسب، وإنما تكمن في خاطر الفرد الواحد منا يتمثلها ويستحضرها في كل خطاب، وهذا ما أشار إليه "ابن رشيق". (والمَثَل والمِثْل: الشبيه والنظير، وقيل: إنما سمي مثلا لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبدا، يتأسى به، ويعظ ويأمر ويزجر، والماثل: الشاخص المنتصب، من قولهم: طلل ماثل أي شاخص)[323].

(فهذا الكلام من ابن رشيق يدل دلالة واضحة على أن وظيفة المثل هنا ليست البيان فقط، وإنما أن يميل بخاطر الإنسان أبدا كما هو قارّ عنده، والمثل ينتصب بقوة كالشاخص على القضية المطروحة في الخطاب. فوظيفة المثل – إذن– حجاجية، وهي وظيفة أشار إليها ابن رشيق في ثنايا كلامه، ولم يصرح بها)[324].

ويمكن أن نمثل لأقسام المثل التي تناولها "العمري" بالتخطيط الآتي:

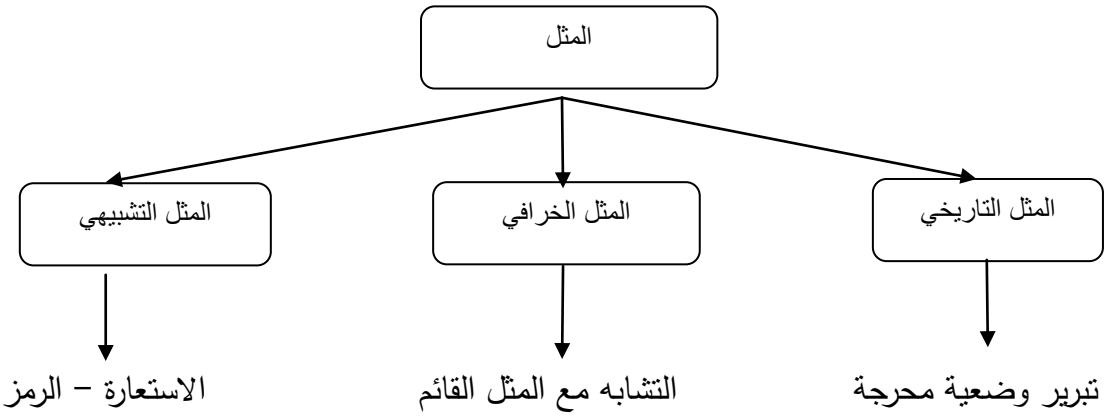

[321] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 181.

[322] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 85.

[323] ابن رشيق: العمدة ، شرح وضبط: عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ط 1، 2003، ص 232 نقلا عن: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 178.

[324] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 178.

3-3 الشاهد:

يكتسي مفهوم "الشاهد" في الخطاب البلاغي والنقدي قيمة عليا، إذ يحصره "أرسطو" في الخطابة القضائية التي تقوم على استحضار الشهود والأقوال. في حين نجده في الخطابة العربية شديد الصلة بالشعر الذي يعد ديوان العرب ولسانهم الناطق، ومع مجيء الإسلام أضحى القرآن الكريم وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم من أجل وأعظم المصادر التي يستشهد بها. (تسمى هذه الوسائل المستعملة في هذا الصدد عند أرسطو الحجج الجاهزة أو غير الصناعية. ويدخل في نطاقها القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، وتختص إجمالا بالخطابة القضائية. ومنها في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والآحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم. وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه)[325].

يستدل من هذا الكلام الذي أورده "العمري" أن طبيعة الشاهد لا يمكن حصرها في قول مخصوص مطلق، بل إن تمثله في الخطاب يعزى إلى أشكال عديدة من القول تمارس سلطة على المخاطَب في إمكانية الرجوع إليها والاحتجاج بها. وبذلك تتحقق الحجاجية في الشاهد. (وهو يتحقق عندما يستند الخطاب إلى أقوال تشكل سلطة مرجعية يعترف بها المخاطب، وتحظى بالنفوذ في مجاله السوسيوثقافي. وتسمى هذه الأقوال عند البلاغيين: الشواهد، وهي تقتبس تحديدا من القرآن والحديث النبوي والشعر والأمثال والحكم. ولهذه الشواهد وظيفة حجاجية مهمة)[326].

إذ تتحدد الوظيفة الحجاجية للشاهد في تحصيل الإقناع لدى المخاطَب، أو دفعه إلى الاقتناع بالتسليم، وذلك مانلمسه في المناظرة.

(لتحقيق الاقتناع، تستند المناظرة إلى أقوال تشكل سلطة مرجعية معترف بها، قادرة على تجاوز ومعارضة الخصم وانتزاع تسليمه. وهذه الأقوال هي الشواهد. وترتبط تحديدا في التراث العربي الإسلامي بالآيات القرآنية والحديث النبوي والأبيات الشعرية والأمثال والحكم. وهي حسب الدكتور محمد العمري " حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها)[327].

إذا ماتأملنا قول " العمري" عن الشاهد نجده قد ألبسه لباسا شعريا، فكثيرا ما اعتمدت العرب قديما على الشاهد الشعري في خطبها ومناظراتها.

---

[325] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 90.

[326] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 446

[327] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص، 233

(وقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم، وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية)[328].

ومن أمثال الخطباء الذين اشتهروا ببناء خطبهم على الشواهد الشعرية، الحجّاج وأمثاله كثر، ولاعجب في ذلك فقد عرفت البلاغة العربية رواجا واستقرارا في تعاطيها مع النص الشعري وهي في عهدة الأمويين.(واعتمد علماء اللغة الشعر مصدرا أساسا للاحتجاج والاستشهاد على صحة وسلامة ما ينقلونه من كلام العرب. وتم يكن اعتمادهم الشعر عبثا، وإنما كان ذلك لما يتمتع به هذا الجنس الأدبي من أهمية تكمن في كونه أصلا من أصول الثقافة العربية الإسلامية [...] والشعر العربي إضافة إلى كونه مصدرا من مصادر الاستشهاد على القواعد الكلية للغة العربية، وأداة لفهم معاني القرآن ومقاصده، هو أيضا شاهد على إعجاز القرآن)[329].

وعلى هذا تتعزز مكانة الشعر لتتصدر كل الشواهد، إذ هو ديوان العرب ومصدر عزهم، ومازاده عزا حسن اقترانه بالقرآن ليكون وثيق الصلة به.

(إن أهمية الشعر في الحضارة العربية الإسلامية باعتباره من أبرز خصائصها ومدخلا ضروريا لدراستها وفهم روحها أمر لا يحتاج إلى دليل. يكاد يجمع المهتمون بها على أن شأن الشعر فيها لا يوجد في حضارة سواها. وأنه قلَّ أن نصادف في تاريخ الإنسانية الطويل قوما اهتموا بأدبهم اهتمام العرب بشعرهم")[330].

(لذلك كانت للشعر قوته في البناء اللغوي والمعرفي والإقناعي داخل هذه الثقافة، وليس أدل على ذلك من اعتماده آلة لتفسير القرآن وكشف مقاصده، هذه المنزلة السامية التي تبوأها الشعر في علاقته بكتاب الله، أكسبته حجية قوية وفعالة في تحقيق الترجيح وفي قطع الشغب، وفي إيقاع التصديق)[331].

وإلى جانب اعتماد الشاهد الشعري كصورة حجاجية، اتجه الخطباء إلى توظيف الشاهد الديني. وهذا مانوه به"العمري" حين أورد كلاما لـ"الجاحظ" هذا نصه:

(وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع. وكان عمران بن حطان خطب خطبة أعجب بها

---

[328] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص، 91

[329] الشاهد الشعري وأسئلة البلاغة والتلقي، ص ص 25-26

[330] التفكير البلاغي عند العرب، ص 23.

[331] بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 234

الناس، ثم إنه مر ببعض المجالس فسمع رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن)[332].

يستفاد من هذا الكلام أن المعيار الذي تقاس به جودة الخطاب هو مدى اقتباسه من القرآن الكريم. (والشاهد القرآني هو أعلى الحجج، فلا يقبل المخاطب خلو الخطاب من الآيات القرآنية. ولو بلغ هذا الخطاب أعلى درجات البلاغة، فإن ذلك لا يعفيه من الاستشهاد بالقرآن)[333].

ثم يضيف "العمري" إضافة لا تجعل الاقتباس حكرا على الخطباء الدينيين، بل هو متاح لكل الخطباء. (ولم يكن الاقتباس من القرآن مقصورا على الخطباء الدينيين بل استفاد من إمكانية تأثير النص القرآني جميع الخطباء، على تفاوت في ذلك)[334].

ثالثا: البلاغة بين التخييل والتداول

1 التخييل والتداول:

1 1 الشعرية:

لقد ارتبطت البلاغة العربية بمسارين شكلا مادتها وجوهرها، مسار شعري قائم على التخييل والتوهيم، ومسار خطابي قائم على التداول(الترجيح)، ويرجع " العمري " مفهوم الشعرية إلى العناية بمحاسن الكلام وزخرفه، وقد ظهر هذا التوجه مع " ابن المعتز" في كتابه البديع الذي عد نسقا يغذيه الطابع الشعري. (من البديهي أن أول تفكير في اللغة كان تفكيرا بلاغيا؛ فقد ظهرت الملاحظات الأسلوبية قبل ظهور العروض والنحو والمنطق، كما روي من تاريخ تلقي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام. أي قبل ظهور المصطلح البلاغي كنسق لعلم. وهذه حقيقة استنبطها البلاغيون الغربيون أيضا من تاريخ بلاغتهم[...] وكان من مظاهر هذا التفكير ربط الشعر بالعوالم غير العادية؛ بالجن والشياطين، والتنبيه إلى العيوب الإيقاعية والحجاجية فيه. كانت هذه الملاحظات هي المصدر الأول للبلاغة العربية حيث جمعت لاحقا تحت اسم البديع ومحاسن الكلام(ابن المعتز)، وقد تطور هذا المسار من خلال الخصومات حول ماهو بديع وماليس كذلك)[335].

وبذلك يمكننا رد الشعرية إلى مجال البديع الذي عد في مرحلة سبقت من مراحل التفكير البلاغي. ممثلا شرعيا للبلاغة العربية التي قامت في بادئ أمرها على الشعر الذي شغل حيزا كبيرا، وكان مرآة

---

[332] الجاحظ، البيان والتبيين ج1، ص 118 نقلا عن: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 92.

[333] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 447.

[334] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 92.

[335] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 28

عاكسة تصور الحياة اليومية للإنسان العربي، وعن هذه القيمة الشعرية يسوق لنا" العمري " كلاما استقاه من " حازم القرطاجني "، هذا نصه:

(لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع... وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده... وكانت علقة جل أغراض الناس وآرائهم بالأشياء التي اشترك الخاصة والجمهور في اعتقادهم أنها خير أو شر... وجب أن تكون أعرق المعاني في الصناعة الشعرية مااشتدت علقته بأغراض الإنسان... فأما بالنظر إلى حقيقة الشعر فلا فرق بين ماانفرد به الخاصة دون العامة وبين ماشاركوهم فيه، ولا ميزة بين مااشتدت علقته بالأغراض المألوفة وبين ماليس له علقة، إذا كان التخييل في جميع ذلك على حد واحد، إذ المعتبر في حقيقة الشعر إنما هو التخييل والمحاكاة في أي معنى اتفق ذلك)[336].

ثم مايلبث " العمري " أن يثير انتباهنا إلى حقيقة الشعر التي تتأرجح بين الإلهام والصناعة. فالوعي الشعري –حسب رأيه– إنما هو في موقع وسط بين الواقع والخيال، وهنا تبرز ملكة الشاعر، ملكة تؤهله بأن يجعل من قوله قوة فاعلة، فهو الوحيد الذي ينسج قوله انطلاقا من شعوره به.(إن الوعي الشعري المرتبط بما وصلنا من القصيد العربي قبل الإسلام كان وعيا ملتبسا بين الواقعي و الخيالي، أي لم يكن مقصديا صرفا ولا خياليا صرف. فالشعر، من جهة، صنعة واعية تقوم على معاناة العمل مع اللغة والمحيط الطبيعي والإنساني لمد الجسور وخلق العلاقات [...] والشعر، من جهة أخرى، وحي من الجان أو من القرين الذي يوحي للشاعر، ويلهمه من القول ماليس له على بال. هناك قوة شعرية سحرية تصل إلى تحويل القول إلى قوة مادية فاعلة. لقد تأكد منذ العصر الجاهلي أن الشاعر لايقول الأشياء المقصدية الجاهزة، بل يقول أشياء قد لا تخطر على بال أحد، لأن الشاعر كما استقر عند النقاد والبيانيين فيما بعد، هو من يشعر بما لا يشعر به غيره، ويبلوره لغويا)[337].

إن " العمري " بكلامه هذا يصف الشعرية وصفا يصنفها بأنها قوة سحرية قادرة على أن تحول أي قول شعري إلى قوة ذات تأثير وفلعلية، وهذا ما يجعل الشعر منطويا على اعتبارات ومقاصد حجاجية. (إن عالم الشعرية يسيج موضوعه الذي يشتغل فيه، وهو شكل النص وجماليته. وهو الشكل الذي يتمتع

---

[336] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ص 19–20 نقلا عن: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص ص 31–32

[337] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 198.

بمفاهيم ومصطلحات ومجال اشتغال متميز. غير أن لا شيء يمنع تدخل عالم الحجاج في نفس حقل الشعر لدراسته باعتبار مقاصده الحجاجية)[338].

1 2 الخطابية:

إذا ما كانت الشعرية تقوم على البعد التخيلي، فإن الخطابية تقوم على البعد التداولي، وكلاهما مسخر لخدمة البلاغة، وتجدر الإشارة إلى أن "العمري" كثيرا ما يستعمل كلمة "خطابية" لتحل محل "فن الخطابة" مستدلا بـ "الشعرية" التي حلت محل "فن الشعر". (فاقترحت كلمة "خطابية" مقابلا "لفن الخطابة"، قياسا على "الشعرية" التي حلت محل "فن الشعر" دون حرج)[339].

وبهذا الاعتبار فالخطابية هي مفهوم واسع تعنى بأشكال الخطاب (السياسي، الاجتماعي، التاريخي...) وبأطرافه (المخاطِب، المخاطَب، الخطاب) وهي عند "أرسطو" ممثلة في (الإيتوس، الباتوس، اللوغوس)، كما تنظر في الأحوال والمقامات التي ترافق الخطاب، ولذلك عدها "العمري" مسألة وظيفية. (إن المسألة الخطابية هي مسألة وظيفية، ولا مجال لترتيب الخطاب ترتيبا قيميا بين الوضاعة والرفعة، بل الترتيب الممكن هو ترتيبه بحسب النجاعة، والنجاعة والفعالية تتم بمراعاة المقامات والأحوال من زاوية الفعالية لا من زاوية القيمة الاجتماعية)[340].

يحيلنا "العمري" بكلامه هذا إلى مسألة في غاية الأهمية، تتعلق أساسا بالخطاب في حد ذاته، إذ تتوقف نجاعته وفاعليته بمدى مراعاته لفكرة المقام، هاته الفكرة التي تناولها البلاغيون العرب القدامى بحرص وإسهاب كبيرين وعلى رأسهم "الجاحظ" الذي ساق لنا "العمري" حديثه في هذا الباب. (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)[341].

وبهذا ترتبط بلاغة الخطابة بعلم البيان الذي يؤسس لفكرة المقام. (فبلاغة الخطابة قائمة على "علم البيان" الذي أرسى الجاحظ دعائمه في فترة كانت فيها الجدالات الكلامية، والبحث عن "الدليل" من القرآن والسنة والمحاورات والنقاشات، محتدة بين الفرق الإسلامية، التي يسعى كل منها إلى إنتاج (خطاب) تكون "بلاغته" كفيلة بكسب أكبر عدد من المؤيدين. لذا فلا غرو أن نجد الجاحظ يطابق بين المعنيين

---

[338] محمد الولي: مدخل إلى الحجاج، عالم الفكر، الكويت، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر– ديسمبر 2011، ص 15.

[339] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 28.

[340] مرجع سابق، ص 137.

[341] البيان والتبيين، ج1، ص ص 138–139 نقلا عن: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 137.

"الخطابي والبلاغي" (تماما مثل مطابقة بيرلمان بين البلاغة والحجاج)، ويهتم بوسائل الإقناع الشكلية والمضمونية (على مستوى الهيئة والخطاب). لذلك اهتم بالمقام وبمحدداته وإمكاناته)[342].

وعلى ضوء تصور "العمري" لفكرة المقام، والتي تمهد الطريق لإمكانية قيام بلاغة إقناعية، نجد أن "برلمان" و "تيتكاه" قد اشتغلا على بلاغة "أرسطو" التي تولي عناية كبيرة للإقناع، ولا يكون ذلك إلا بتحقق المقصدية من الخطاب، فلا يخلو حجاج من مقصد. (وهذا، وقد حدد بيرلمان وتيتيكاه آراء أرسطو حينما حاولا أن يعيدا إليها طابعها الفلسفي الحقيقي؛ لأن البلاغة الأرسطية تحصر البلاغة في الإقناع، فتعدها خطابا حجاجيا بامتياز. وقد استبعدا تصورات أفلاطون والسوفسطائيين لأنها تقوم على الجدل، والسفسطة، والتشكيك، والمنهج المغالطي، والمناورة الواهمة، واعتماد المثل العليا المطلقة. ويعني هذا أن البلاغة في طابعها العام مرتبطة بالمقصدية الحجاجية)[343].

ولا يمكن بأي حال من الأحوال الوقوف على هاته المقصدية إلا بتفعيل دور المقام الذي هو في حد ذاته طريق لإحداث التواصل. (ولا بد من مراعاة المقام الحجاجي أو مقتضى الحال، لأن لكل مقام مقالا، ولا بد من تكييف الخطاب مع مقامات المخاطبين، والإحاطة بمجموع المعارف الخاصة بموضوع المحاجة المتعاقد عليها ضمنيا أو ما يسمى بقاعدة الحجج المشتركة التي تجمع المرسل الخطيب والسامع المفترض، مع تغيير موجهات الخطاب الحجاجي بتغير أنماط مخاطبيه)[344].

ومما تقدم ذكره نلمس بجلاء ووضوح تأكيد "العمري" على الحضور الفاعل للبعد الإقناعي في بلاغتنا العربية. (إن هذا البعد هو أحد الأبعاد "الأساسية" في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في أساسه. وإن تخلي البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها. وتحظى نظرية التأثير والمقال حاليا بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد: التداولية)[345].

2 - منطقة التقاطع بين التخييل والتداول:

2-1 الوصل بين الشعرية والخطابية:

لقد واجهت البلاغة عدة مفاهيم ومصطلحات جعلتها لا تستقر عند مفهوم واحد يضبطها ويحدد ماهيتها، فارتبطت حينا بالخطابة، وحينا آخر كانت وثيقة الصلة بالشعر، ولعل هذا التأرجح الواقع

---

[342] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص ص 884-885.

[343] من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 29.

[344] الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص 33 نقلا عن: من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 33.

[345] البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص ص 292-293.

للخطابة بين فني الخطابة والشعر – على اعتبار أن الخطابة ممثلة في الجانب التداولي، والشعر ممثل في الجانب التخييلي – هو تأرجح تمليه الظروف التي مرت بها البلاغة في تاريخ تطورها. وهذا ما دفع بـ "العمري" إلى البحث عن إمكانية قيام بلاغة عامة تنسق بين ما هو شعري وما هو خطابي، لذلك نجده كثيرا ما يستعمل مصطلحي "خطابية"و "شعرية" في إشارة إلى الجانبين التداولي والتخييلي. (يوضح محمد العمري أن كلمة "بلاغة" لا تطرح في السياق العربي إشكالا في كونها علم الخطاب الاحتمالي بنوعيه التخييلي والتداولي، وذلك نتيجة الدمج الذي مارسه في المرحلة الثانية من تاريخها، كل من عبد القاهر الجرجاني و ابن سنان الخفاجي ثم السكاكي وحازم القرطاجني، وذلك بعد المحاولة التي قام بها العسكري تحت عنوان: الصناعتين. ويقول أنه بالرغم مما أدت إليه عملية الدمج من إقصاء واختزال أحيانا. ومن تحويل المركز أحيانا أخرى (من التخييل إلى التداول خاصة)، فقد ظل شعار الوحدة البلاغية مرفوعا. وينطلق العمري من أن الملاحظات الأسلوبية هي المصدر الأول للبلاغة العربية، وستجمع لاحقا تحت اسم البديع ومحاسن الكلام (ابن المعتز)، وأن الطموح إلى صياغة نظرية عامة للفهم والإفهام أو للبيان والتبيين (الجاحظ) هو المصدر الثاني الكبير للبلاغة العربية)[346].

وهذا ما صرح به "العمري" في كتابه " البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول" والذي ألفه انطلاقا من وعيه بضرورة القيام بمثل هذا النوع من الدراسة، حتى يصل بالطالب الجامعي خصوصا، وبالقارئ العربي عموما إلى درجة من الوعي والفهم، تمكنه من قراءة واستيعاب بلاغة جديدة ذات بعدين: تخييلي وتداولي. وفي ذلك يقول: (فللبلاغة العربية، إذن، مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة. ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي. فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته)[347].

وبهذا الكلام يكون "العمري" قد لفت انتباهنا إلى النسق العام الذي تقف عنده البلاغة، وهو نسق يتمتع بثنائية التخييل والتداول. (وقد نشرنا مقالة في مجلة فكر ونقد (ع، 25، 1999) بعنوان " البلاغة العامة والبلاغة المعممة"، حاولنا فيه رفع اللبس عن موقع الخطاب التداولي والإقناعي من البلاغة، إذ جعلناه أحد وجهي هذه العملة، ووجهها الثاني التخييل، فالبلاغة تضم في جانب منها كل الخطابات التخييلية من شعر وسرد وغيرهما، كما تضم في جانبها الثاني كل مكونات الخطاب التداولي)[348].

---

[346] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 34.

[347] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 29.

[348] في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 6.

وانطلاقا من ذلك فإن إمكانية الوصل بين ما هو شعري وما هو خطابي أمر لا مناص منه، فالعلاقة بينهما علاقة اتصال لا انفصال، وهذا ما عبر عنه "رشيد يحياوي" بقول نقله عن "الجاحظ": (إن العلاقة بين الخطابي والشعري لم تكن أبدا علاقة تضاد، بل كان الوعي بالتقارب بينهما قديما، وقد ذهب بعض النقاد إلى أن بإمكان بعض المبدعين الجمع بين الشعري والخطابي كأن يكون المبدع شاعرا وخطيبا وإن كان ذلك قليلا)[349].

وإذا ما هممنا الوصل بين الشعرية والخطابية، لا بد من التعرض إلى مصطلحات تعد نقطة الالتقاء بين دائرتي التخييل والتداول، وهذا ما عناه "العمري" في مطلع حديثه عن ضرورة الاعتماد على نظام مصطلحي عند الوصل بين ما هو شعري وما هو خطابي، لأن ذلك ضروري لقيام بلاغة عامة. (إن قيام بلاغة عامة يتطلب منظومة مصطلحية تعبر عن المشترك بين التخييل والتداول، من جهة، وتميز بعض الخصوصيات التي لم تأخذ ما تستحقه من اهتمام في الدرس العربي، من جهة ثانية. ومن المصطلحات التي وجدنا حاجة لوضعها أو نفض الغبار عنها مصطلحا المستمَع والإنشاء. وأول ما نحتاج إليه في هذا الصدد كلمة تدل دلالة اصطلاحية على منتج الخطاب بقطع النظر عن كونه خطيبا أو شاعرا (أو كاتبا)، الكلمة التي تقابل لفظ production (أي الإنتاج)، ويشتق منها في الوقت نفسه ما يقابل لفظ (auteur) (أي المؤلف). وقد وجدنا أن اللفظ العربي "الإنشاء" ومنه "المنشئ" يعبر عن هذا المعنى بدقة، فاعتمدناه بعد إعادة تعريفه)[350].

وعن مصطلح "الإنشاء" الذي تكلم عنه "العمري" يسوق "محمد الولي" كلاما لـ "حازم القرطاجني" يصف فيه طبيعة الوصف بين الشعرية والخطابية، وطبيعة المنشئ في كل منهما.

(إن التخيل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية. واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع. وإنما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرا فيما تتقوم به الأخرى، لأن الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه. فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما. فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه، وللخطيب أن يشعر لكن في الأقل من كلامه)[351].

---

[349] البيان والتبيين، ج1، مرجع سابق، ص 45 نقلا عن: رشيد يحياوي، الشعرية العربية، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991، ص 121.

[350] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 22.

[351] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص ص 73-74.

فكلام "حازم" هنا يقودنا إلى مصطلح الإنشاء، حيث يجوز للشاعر أن يعتمد على القليل من المقنعات، كما أن الخطيب هو الآخر مرخص له أن يوظف القليل من التخييلات. (ولهذا نبه الفلاسفة ومعهم حازم إلى أن الخطابة قد تستعمل التخييل، والشعر قد يستعمل الإقناع كل في حدود)[352].

أما عن المصطلح الثاني (المستمَع) الذي رصده "العمري" فقد جاء ليدل على معنى أوسع من فكرة المقام، وفي ذلك يقول: (أما "المستمَع"، على وزن مجتمع فتدل على ما اشتقت منه صيغة وأصواتا: أي مستمعون في سياق مكاني محدد، وهي كلمة دقيقة لا تغني عنها كلمة "مقام" ولا كلمة "سياق"، ولا كلمة "مستمعين" ولا " جمهور"، كما في بعض الدراسات)[353].

(ولعل القارئ يلتقي لأول مرة بكلمة مستمَع، وقد دأبت على استعمالها مقابلا لكلمة auditoire، وهي تعني المقام الخطابي بمكوناته الثقافية والزمانية والمكانية. فبدون التفاهم حول هذه المصطلحات سيتعذر التخاطب في هذا الموضوع)[354].

2-2 الفصل بين الشعرية والخطابية:

إن التداخل الحاصل في البلاغة بين الخطاب التداولي (الخطابة) والخطاب التخييلي (الشعر) من شأنه أن يساهم في الفصل بينهما، وذلك لطبيعة وخصوصية كل خطاب على حدة، وعن إمكانية هذا الفصل يتحدث "العمري" قائلا:

(لا يختلف المدافعون عن النسق البلاغي العام مع المرتابين في إمكانية قيامه في أن التخييل والتداول (أو الحجاج بشكل أدق) يلتقيان في أنهما خطابان قائمان على الاحتمال؛ الاحتمال توهيما أو ترجيحا، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي، فحتى تفريق أرسطو لا يعدو جهة الاحتمال وجودا وعدما: فخطاب الشاعر "كذب" محتمل الصدق، وكلام الخطيب صدق محتمل الكذب. ومع ذلك فمن الدارسين من رجح الخصوصيات النوعية لكل جنس ففصل)[355].

وبناء على هذا الفصل بين ما هو خطابي وما هو شعري. تتحدد المعالم الكبرى والتي تسمح بقيام بلاغة عامة تتقاطع فيها التصورات التخييلية مع التصورات التداولية (المقنعة) وهذا تبعا لتغير وتعدد النصوص.

---

[352] الشعرية العربية، ص 126.

[353] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 22.

[354] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 14.

[355] مرجع سابق، ص 15.

(ومن هنا فإن الخطابين التداولي/الحجاجي والتخييلي/الشعري خطابان احتماليان، وبذلك يكونان موضوعين للبلاغة، ونحن هنا نتحدث عن ثنائية قطبية لضرورة منهاجية، أما من حيث الممارسة فإن التداخل بين الخطابين التداولي والتخييلي حقيقة واقعة تتفاوت مسافتها حسب النصوص والتيارات الخطابية عبر الأزمنة والحضارات (الخطابة العربية القديمة مثلا خطابة شعرية، كما بينا في كتابنا في بلاغة الخطاب الإقناعي). ومن هنا تحدث كل من ريكور و روبول في مناقشتهما لقضية احتمال قيام بلاغة عامة للحجاجي والشعري، وقبول ذلك عند أحدهما ورفضه عند الآخر، عن منطقة التقاطع التي استعملا فيها معا لفظ région ذي الحمولة الجغرافية، أي الإقليم. وفي هذا النطاق يدخل جهد بعض الباحثين في بيان شعرية الحجة وحجية الصور. وهذا مبحث في غاية الأهمية والعمق)[356].

إن هذا التداخل والتفاوت بين الخطابين : (التداولي والتخييلي) ينبئ عن الخصوصية التي ينفرد بها كل منهما، إذ يظل مجال اشتغال كل خطاب ضمن حقل التخاطب مباينا لمثيله وقرينه، واعتمادا على هذه الخصوصية التي تميز بين الخطابين، فقد اقترح "العمري" لفظين يشير كل منهما إلى الخصوصية النوعية لكل خطاب.

(وللدلالة على الخصوصية النوعية لكل من المجالين التداولي والتخييلي ومدى التداخل والتخارج بينهما احتجنا إلى لفظين يدل كل منهما على الخصوصية الجوهرية لأحد المجالين، لفظين يقابلان المصطلحين اللاتينيين figure و argument . فاستعملت كلمتي صورة وحجة. وقد اجتهد التداوليون، لسانيين ومناطقة، في بيان الأبعاد الحجية للصورة، (الاستعارة والسخرية خاصة) كما اجتهد البلاغيون في بيان الأبعاد الصورية (أي التخييلية) للحجة)[357].

وعن خصوصية كل خطاب يسوق لنا "العمري" حديثا نقله عن " حازم القرطاجني" هذا نصه: (وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة، الواقعة في الشعر، تابعة لأقاويل مخيلة، مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة. وكذلك الخطابة، ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة، مناسبة لها، مؤكدة لمعناها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة)[358].

---

[356] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 121.

[357] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 22.

[358] الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 123.

كما أن لكل من الخطابين (التخييلي والتداولي) خصائص بلاغية يقومان عليها، (إن الإقناع والتخييل غايتان تميزان الشعر والخطابة. فالقصد من الإقناع إيقاع الظن والقصد من التخييل بسط النفس للقيام بعمل ما أو قبضها عنه. ولكل من الغايتين خصائص أسلوبية وغير أسلوبية يقومان عليها)[359].

وإذا ما أردنا الوقوف على طبيعة الفصل القائمة بين الشعرية والخطابية، فإن ذلك يتطلب معرفة واسعة تستند إلى تمحيص وتدقيق للمنطقة التي يتقاطع في التخييل مع التداول، وذلك ما أشار إليه "العمري" بقوله: (إن ظهور مفهوم الخطاب في المجالين: اللساني (التواصلي) والفلسفي (الحواري)، ومحاولة تعميم نظرية شاملة، سواء تحت مفهوم علم الخطاب أو علم النص أو السيميائيات لم يحل المشكل، ذاك أن جاذبية القطبين نحو الخارج (الانفصال) والداخل (الاتصال) ما انفكت تتقوى، ولذلك تطلب الأمر فحص المنطقة التي يتقاطع فيها التخييل ممثلا بالشعرية، والحجاج ممثلا بالخطابية (الخطابية : ترجمة لكلمة Rhétorique بالمفهوم الأرسطي الضيق الذي يجعلها مقابلة للشعرية (Poétique) ومعارضة لها))[360].

ويعد "بول ريكور" من الذين استعملوا لفظ Région في سياق فصله بين الشعرية والخطابية، إذ تختص كل واحدة منهما بهدف ووظيفة معينة على خلاف نظيرتها. (وبرغم اعتراف الباحث بوجود منطقة تقاطع واسعة؛ تستحق لفظ région ذا الدلالة الجغرافية القوية، فإن ذلك لا يكفي، في نظره، لجعل هذا الإقليم المشترك عاصمة فيدرالية للشعرية الخطابية؛ مع كل ما تضمنه هذه الفدرالية من حرية في معالجة خصوصيات الطرفين. ويعلل هذا الرفض باختلاف المبحثين في المنطلق والهدف [...] من الأكيد أن هناك خطابة في الشعر وشعرا في الخطابة، غير أن الأمر ليس بنفس القوة في الحالتين؛ فالشاعر لا يحاجج بمعنى الكلمة، حتى وإن كانت شخصياته تحاجج؛ فالحجاج عنده يساهم في حدود تنمية الحبكة، والخطيب لا يخلق حبكا للحكاية حتى وإن ضمن خطابه عنصرا سرديا. إن نواة الشعرية تتبلور في العلاقة بين كلمات مفاتيح هي : الإنتاج (poiesis) والحكي (Muthos) والمحاكاة (mimesis) والحبكة (intrigue)، وبهذا يعارض نواة الخطابية التي هي الحجاج، أما من حيث الهدف والوظيفة فإن الشعر يستهدف التطهير في حين تستهدف الخطابة الإقناع)[361].

---

[359] الشعرية العربية، ص 125.

[360] التحاجج طبيعته ومجالاته، ص 10.

[361] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص ص 17-18.

ومما تقدم ذكره فإن الفصل بين الشعرية والخطابية، فصل في المكون المميز لكل منهما، إذ يظل مجال الشعر التخييل، ومجال الخطاب التداول، لتصبح البلاغة بذلك علما يشمل كل الخطابات، وهذا ما يصطلح عليه "البلاغة العامة".

3 البلاغات الجزئية:

3-1 بلاغة السخرية:

لم يشهد مفهوم السخرية استقرارا في الماهية والمصطلح، وذلك لتباين تناوله من قبل الدارسين والباحثين على مر العصور، فهناك من ربطه بالمعنى اللغوي بتقليبه لصفحات المعجم، في حين هناك من بحث في أصل نشأته، كما ربطه آخرون بأبعاد فلسفية، بلاغية، لسانية، تداولية... (تقلبت السخرية بين تحديدات عديدة، وخضعت لمقاربات متنوعة بتنوع التنظيرات التي انبثقت عنها، منذ نشأتها الأولى في حقل الفلسفة الإغريقية)[362].

وهذا ما دفع بـ "العمري" إلى التنويه بإشكالية التعريف بمصطلح السخرية. (إن الشروع في الحديث عن السخرية (ironie, irony) قبل تعريفها وتحديد مجالها سيؤذي حتما إلى سوء تفاهم. كما أن البداية بأي تعريف سيؤدي لا محالة إلى الدخول في تعريف خاص؛ له بدايته ونهايته وحدوده التي تتجاهل، في كثير من الأحيان، الاجتهادات والتصورات الأخرى. فهناك من يشتغل بالمعنى المعجمي للكلمة في اللغة العربية ثم يستدعي الموقف الأخلاقي أو الديني من ذلك المفهوم فيقع في الحرج، وقد يعترض على الموضوع برمته قبل الخوض فيه. وهناك من يأخذ كلمة "إيروني" من أصولها الإغريقية واشتقاقاتها في البلاغة الأوربية القديمة فيقف عند فهم لساني ضيق [...] وهناك من يأخذ الكلمة من زاوية فلسفية عدمية معتبرا الأدب مجرد مجال للتجارب، والبلاغة مجرد عرض لا يمس الجوهر...إلخ)[363].

وبذلك تتضح رؤية "العمري" الجلية للسخرية فهو لا يربطها بتعاريف مبثوثة هنا وهناك، كون هذه الأخيرة مفهوما فضفاضا لا يقف عند نسق واحد، فهو لا ينظر إلى السخرية كمصطلح يحتاج منا إلى البحث عن أصله ومن ثم إقامة تعريف له، بقدر ما تكون السخرية موظفة في الحجاج كآلية من آلياته، أي البحث عن الوظيفة الحجاجية للسخرية. (لا نجد في التراث العربي لفظا عاما مولدا لمعان تستوعب المفهوم الحديث للسخرية. وذلك برغم وجود ألفاظ كثيرة تصف تجليات عديدة "للهزل" باعتباره الخلفية الفلسفية للسخرية البلاغية. وهي ألفاظ ترتبط بمتن غني من النصوص الساخرة في كل مستويات السخرية. ولذلك لن نقحم أنفسنا في البحث عن أصل عربي للمفهوم الحديث للسخرية، ولن ننكر على

---

[362] الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص 25.

[363] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص ص 83-84.

غيرنا فعل ذلك. ولن نتتبع – خلافا لما درج عليه الدارسون الغربيون– تطور مفهوم كلمة "إيرونيا" اليونانية ومشتقاتها في اللغات الغربية الحديثة إلا حين ترتبط بمفهوم السخرية كمنهج حجاجي)[364].

وبذلك تتحدد القيمة الحجاجية للسخرية، كونها تنبني على آراء يراد بها الانتقاص من شخص المرسل إليه، أو من أفكاره واعتقاداته. (لا شك أن السخرية تختزن حمولة حجاجية بما أنها تنبني على المناقضة لقيمة أو رأي، وتطرح بديلا عنهما من خلال صيغتها الاعتراضية)[365].

كما ينقلنا "العمري" في مطلع حديثه عن السخرية إلى كونها مشتملة على بعد تأثيري، قوامه الاستخفاف الذي كثيرا ما يلتبس على المرسل إليه، فيجد عسرا في فهمه وتلقيه، أهو نقد مباشر موجه لشخصه وهيأته، أم تراه ضحكا يدخل في إطار الاستهزاء والاستخفاف.

(ويمكن تبسيط ذلك بأن نقول: إن الحديث عن الاستخفاف هو حديث عن نقد ملتبس، والحديث عن الالتباس هو حديث عن المفارقة الدلالية (أو المقامية). والحديث عن الضحك هو حديث عن ضحك الاستخفاف، أي حديث عن الانتقاد)[366].

وتجدر الإشارة إلى أن المفارقة الدلالية التي كثيرا ما تصاحب السخرية قد تنفصل عنها تدريجيا، وهذا ما نوهت به "أمينة الدهري" في قولها(إذا قمنا بعملية تركيبية لما سبق، لاحظنا أن السخرية انفصلت تدريجيا عن المفارقة الدلالية، وعن بلاغة الصور في القرن الثامن العشر، لتحضنها تيارات معاصرة منشغلة بالفعل الكلامي للمتخاطبين وبدينامية تفاعلاته وعلاقته بالسياق. هذه المقاربات التي تؤدي في جزء منها إلى صميم العملية الحجاجية، من حيث اعتبار السخرية ظاهرة للخطاب، ومن حيث إعادتها الأواصر مع قوة الكلمة في بعدها التواصلي، ونشدانها التأثير في مستمعيها والإقناع بطروحاتها. ومن ثمة يأتي التفكير في التوجه الإقناعي للسخرية)[367].

إذا ما سلمنا بالبعد الإقناعي للسخرية فإن ذلك يستلزم البحث عن أهم المكونات التي تقوم عليها، حيث يحصرها "العمري" في المكونين: الانفعالي والدلالي. فيشتغل الأول بصور الاستخفاف والضحك والاستهزاء، في حين يعنى الثاني بدرجات الوضوح والجلاء أو الغموض والالتباس. ويشير إلى أن هذين المكونين من أهم مكونات الخطاب الساخر.

---

[364] المرجع نفسه، ص 85.

[365] الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص 23.

[366] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 88.

[367] الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص 30

(نقترح تشخيص موقع السخرية في بؤرتها وامتداداتها في اتجاه هذا المكون أو ذاك بالخطاطة التالية التي نأمل أن تستعمل كمساعد على تأمل الموضوع، وإدراك تعقيداته ولطف مأخذه.

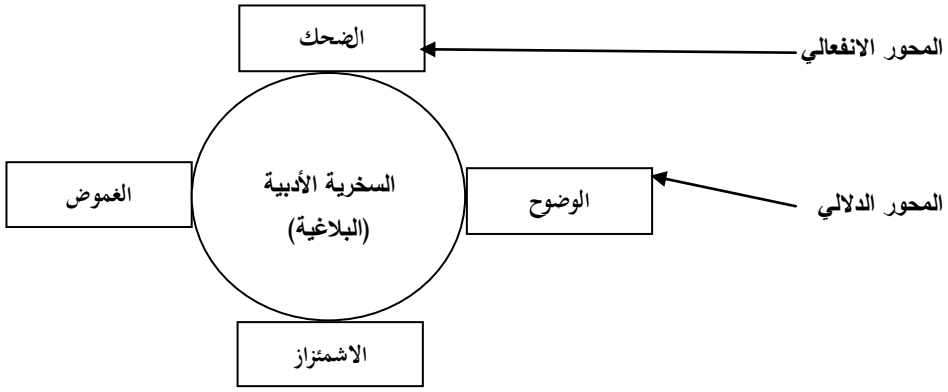

)[368].

إذا ما تأملنا هذه الخطاطة التي اقترحها "العمري" نجدها ذات مسارين متقاطعين: مسار أفقي ممثل في جانب دلالي يمتد من الوضوح ، ليتدرج شيئا فشيئا وصولا إلى الغموض، ومسار عمودي ممثل في جانب انفعالي (وجداني) يمتد من الضحك في أبسط صوره، وقد تزيد شدته ليصل إلى درجة الاشمئزاز، وينتج عن هذا التقاطع تولد السخرية الأدبية التي تقف في نقطة المنتصف لتكون بذلك محل نزاع بين المحورين (الانفعالي والدلالي)، وقد تنحاز إلى أحد المحورين على حساب الآخر، وبذلك فإن الحكم على السخرية يظل نسبيا في ظل تجاذبها بين المحورين السابقين. (في هذا المركز توجد السخرية الأدبية الصرف داخل مربع تقاطع المحورين، وهذه حالة نظرية افتراضية. أما الأحوال المحتملة فهي التي تمثلها الدائرة؛ حيث يمكن اتساع دائرة السخرية في اتجاه هذا الطرف أو ذاك. فتكون أكثر غموضا أو أكثر وضوحا، أو أميل إلى الإضحاك، أو أميل إلى إثارة الاشمئزاز أو الاستهجان)[369].

وعلى هذا الأساس تتجه السخرية في البلاغة الحديثة نجو مفارقات عديدة، ميز "العمري" ثلاثة اتجاهات منها تمثلت في: (السخرية مفارقة– السخرية استرجاع – السخرية مفارقة استرجاعية)[370].

ويمكن أن نمثل لها بالتخطيط الآتي:

---

[368] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 88.

[369] المرجع نفسه، ص ص 88–89.

[370] المرجع نفسه، ص 103.

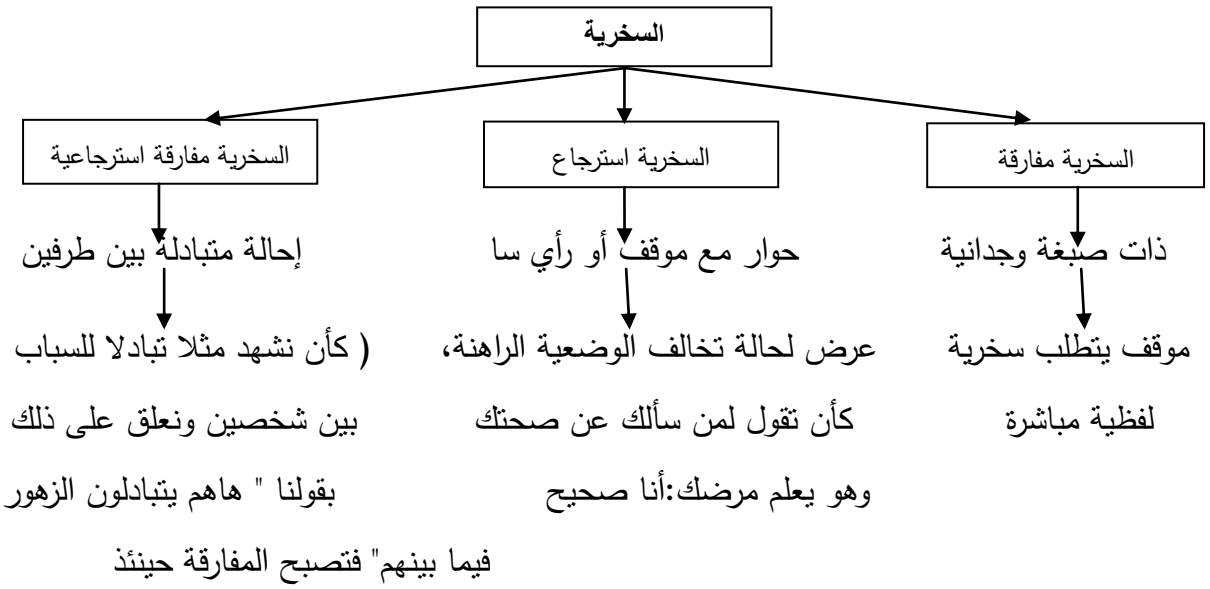

حالية)[371].

كما يحيلنا "العمري" إلى أن البلاغة العربية برغم غناها بمصطلحات كثيرة، تدل دلالة واضحة على معنى السخرية، إلا أن هذا المعنى ظل مشتغلا به في إطار محصور تمثله كلمتا: الهزل والاستهزاء، إذ تحمل الأولى دلالات ترمز إلى الضحك، في حين تقوم الثانية على جملة من المعاني القدحية. (أما كلمة سخرية، في حد ذاتها، فقد قويضت في التراث العربي بكلمتين على الأقل، وهما الاستهزاء والهزل. فالاستهزاء يقايضها في الجانب النقدي بمعنى قدحي، كما ورد في الآية القرآنية: " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون" (الأنعام 10) [...] أما الهزل فإنه وإن كان يحيل على القطب المقابل للنقد حيث يهيمن الإضحاك، وربما الاستخفاف العابث، فإنه يمثل الأساس المعرفي للسخرية باعتباره آلية حجاجية وبيداغوجيا تعليمية متصلة بطبيعة النفس الإنسانية حيث تتجاذب طاقتان : الجد والهزل. واعتبارا لذلك فالهزل بعيد عن العبث واللامسؤولية. بل هو على العكس من ذلك وسيلة لشحن النفس بالطاقة وتجديد نشاطها لتعيد سعيها الجاد)[372].

ومن خلال كلام "العمري" يمكن أن نستشف البعد الحجاجي للسخرية، والذي يتمركز بعمق في جانبها الهزلي.

---

[371] بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 95.

[372] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 110.

2-3 بلاغة السيرة الذاتية:

تعد بلاغة السيرة الذاتية من الأجناس الأدبية التي شهدت حضورا دائما في التاريخ الإنساني، فهي مبثوثة في كل مجال، وتسجل حضور صاحبها وإن غاب، كما أن ضبطها بتعريف دقيق هو أمر في غاية الصعوبة، وذلك لتداخلها مع أجناس مجاورة لها، وذلك حسب قول "العمري": (برغم النقد الذي يوجه عادة إلى التعريفات في المجال الإنساني عامة والفني خاصة، فإن الحديث عن بلاغة السيرة الذاتية سيظل متعذرا في غياب تحديد للمقصود بها ولو بشكل حدسي؛ يرصد موقعها بين الأجناس المجاورة لها المتداخلة معها فنيا وتاريخيا، مثل الرواية والسيرة والمذكرات واليوميات، بل والتاريخ والخطابة والشعر أيضا)[373].

وبذلك فإن السيرة الذاتية كمفهوم عام لا تستقر عند جنس مخصوص بعينه، ما لم نبحث عن أهم التقاطعات التي تشكل جوهرها ومادتها، فذلك يفسح لنا المجال واسعا لتحديد الفضاء الذي تشتغل فيه، وقد رجح "العمري" هذا المجال في ذلك التقاطع الذي يقع بين محور الحدث الذي يمتد من التاريخ إلى الرواية، ومحور الوجدان الذي يمتد من قطب الشعري إلى قطب المدهش. (وحسب هذا التصور فإن السيرة الذاتية تُحدس على محور يمتد من التاريخ إلى الرواية (أو من التاريخي إلى الروائي). ونقترح تسمية هذا المحور محور الحدث (أو الخبر)، ويتقاطع هذا المحور مع محور آخر ندعوه محور الوجدان (أو محور الأثر)، ولا مشاحة في الاصطلاح، ويمتد بين الشعري والمدهش.

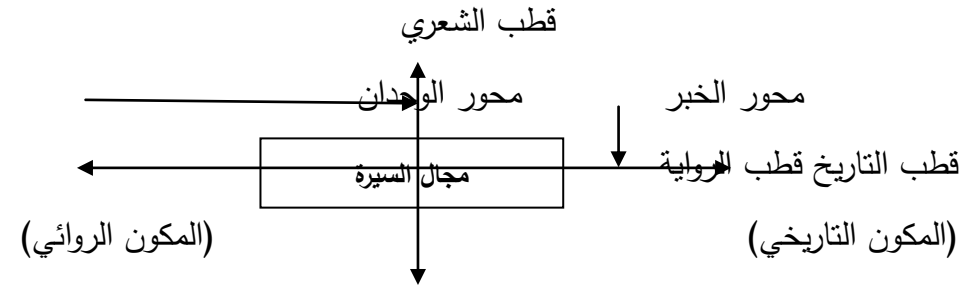

[374].

انطلاقا من هذا المخطط الذي قدمه "العمري" تتمركز السيرة الذاتية أفقيا بين قطبي التاريخ والرواية، فالتاريخ يقدم وقائع قابلة للتصديق، ذات طبيعة توثيقية فهي واقعية لا دخل للخيال في استحضارها وتمثلها، في حين تعد الرواية مجالا واسعا لبسط الخيال، فهذان القطبان (الرواية والتاريخ) يشتركان ويلتقيان في كونهما يمدان السيرة بجملة من الأخبار والأحداث، في حين يختلفان في كيفية المدد، وهذا ما

---

[373] مرجع سابق، ص 139.

[374] المرجع نفسه، ص ص 141-142.

نوه به "العمري"، إذ تعتمد الرواية على عنصر الخيال، والتاريخ على عنصر التوثيق. (تصورنا الحالي مبني على أن الروائي والتاريخي يوجدان على محور واحد لأنهما يحكيان أو يسردان؛ يقدمان خبرا. ويتعارضان في كون أحدهما يحكي ما وقع موثقا؛ مرجعيته خارجية، والثاني يحكي عالما متخيلا مرجعيته فيه. التاريخ يمنح من الوثيقة، والرواية تمنح من المخيلة، والسيرة الذاتية تمنح من الذاكرة، والذاكرة توثق وتخيل بدون حرج. والاستعانة أو الاقتراض واردان، كل بملابساته)[375].

أما الارتكاز الثاني للسيرة الذاتية فيكون عموديا، يبدأ أعلاه بما يحس به الشاعر من مشاعر وانفعالات، وصولا إلى الاندهاش والتعجب أسفله، وهذا كله يقع ضمن محور الوجدان. (والثاني "الوجدان" الذي نأخذه هنا بالمفهوم الذي نسبه محمد مندور للعقاد وجماعة الديوان (كل ما يجده الشاعر في نفسه). فهو، عندنا هنا، كل ما يجده السارد الذاتي في نفسه من انفعال شعري أو اندهاش عجائبي أو تأمل فكري فلسفي مرتبطا بالذات. هذه الثلاثية منطقة تتهدم فيها الحدود مع كل سيل عارم، ثم تعود الحدود بعد هدوء العاصفة. أردنا بهذا المحور الثاني الخروج من ثنائية "الأدبي التخييلي والتاريخي الواقعي" التي لا تسعف في وصف الظاهرة في كل تحققاتها)[376].

وبذلك يحيلنا "العمري" إلى نقطة تبدو في غاية الأهمية، تتمثل أساسا في تراجع وقصور الجانبين التاريخي والروائي عن أداء دورهما في تفعيل السيرة الذاتية وتجاوبها مع سير الأحداث، فتعرف بذلك فراغا وفجوة لا سبيل إلى سدها إلا بالاستعانة بالجانب الوجداني الذي يتبلور أساسا في الشعر. (وما دام التاريخ والرواية يلتقيان في النواة الأولية لهويتهما وهي سرد أحداث؛ واقعة ومستنبطة (في التاريخ)، ومتخيلة (في الرواية)، فإن هوية السيرة الذاتية الموجودة عند التقائهما هوية سردية. ولا بد حينئذ للشعر، إن هوة دخل مغامرة السيرة الذاتية للبناء لا للتحلية أن يخضع لرقابة السرد؛ أي أن يحكي، كما هو حاله حين يدخل تجربة المسرح معتمدا الحوار)[377].

ومما تقدم ذكره فإن بلاغة السيرة الذاتية هي بلاغة سردية، تستحضر كل ما هو تاريخي وروائي وشعري، لتكون بذلك صالحة كأداة يحتج بها في موقف من المواقف، أو التطرق إلى موقعة من المواقع.

---

[375] مرجع سابق، ص 142.

[376] المرجع نفسه، ص 143

[377] المرجع نفسه، ص 144.

4- المجاز آلية بلاغية:

4-1 البعد التخييلي للمجاز:

كثيرا ما قد تعيق الحقيقة سيرورة الخاطب وفاعليته، فيظهر باغتا وقاصرا عن أداء وظيفته، فيغدو بحاجة إلى ألفاظ تطلق على سبيل المجاز، لتراد بها معان ودلالات غير التي تظهر للعيان، وهذا ما جعل المجاز يعد يحق آلية من الآليات الحجاجية التي يجنح بها في تبين المقاصد التي تطبع الخطابات لإزالة الغموض عنها وإلباسها ثوبا حجاجيا يقوم على القوة في الكلمة، والإحالة إلى المعنى المقصود، ولذلك عده "العمري" مبحثا بلاغيا متداخلا. (المجاز مبحث بلاغي معقد وشائك يوصل إلى حدود الحرج، يمتد من التخييل الأدبي (الشعري والسردي) إلى الخيال باعتباره ملكة تشاكس التقنينات والثوابت والمعايير، سواء كان مصدرها العقل أو المعتقد.فكلما حاولت تلك الثوابت والمعايير أن تأخذ صفة خطاب قار، وتتحول إلى لغة للتواصل المقنن، كلما ثار في وجهها سؤال النسبية، يحدث ذلك عند تقنين اللغة ويحدث عند تعقيل الدين، والبعدان التخييلي والخيالي متداخلان يصب أحدهما في الآخر. ولذلك يجد الخيال مقاومة شديدة من النزعات اليقينية. وقد اشتغلت البلاغة في المجالين الخيالي والتخييلي من خلال آلية التأويل)[378].

فالتأويل الذي أشار إليه "العمري" هو ما يتيح للشاعر أن يأخذ بعين الاعتبار النسق الكلامي الذي هو بصدد بنائه على جملة من المجازات التي تمكنه من تحقيق مراده ومقصده، وإن كان منحازا في سبيل ذلك إلى الكذب، وعلى هذا يرى "العمري" أن "ابن جني" اعتبر ما يقوم به الشاعر يدخل أساسا في باب المغامرة. (يرى ابن جني أن عمل الشاعر مغامرة، فهو يتوسع في اللغة لا عن ضرورة، بل عن اختيار، حاله أشبه براكب فرس جموح بلا سرج ولا لجام (أي بدون كوابح)، وهو يعلم أن وجودهما أسلم له، وبذلك يكون الشاعر ممارسا لشذوذ هادف، فالأمر شجاعة لا مجرد مراوغة لفظية)[379].

إن هذه المغامرة التي يخوض الشاعر غمارها، قد يعتمد في جانب منها على الكذب – كما أسلفنا في الحديث عن ذلك– والمراد بالكذب هاهنا هو الكذب المجازي من وجهة نظر شعرية، وهذا ما نوه به "الجرجاني" ونظرته للمجاز حين عده كذبا بالمعنى الشعري، (ومن قال: "أكذبه" ذهب إلى أن الصنعة إنما تمدُّ باعها، وتنشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعي الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف والنعت والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد

---

[378] مرجع سابق، ص ص 163-164.

[379] المرجع نفسه، ص 172.

الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد، ويبدي في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطربا كيف شا ء واسعا، ومددا من المعاني متتابعا، ويكون كالمغترف من عِدٍّ لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهي)[380].

(نفترض أن مسألة "المجاز والكذب" تتخذ طابعا إشكاليا في إنتاج الجرجاني، فالمجاز ليس كذبا كله، وليس صدقا كله، وقد يكون استعماله مقرونا بالصدق كما قد يكون مقرونا بالكذب، والأكثر من ذلك، يمكن أن يكون المجاز كذبا، ليس بالمعنى الذي يعارض الصدق، بل بالمعنى الشعري والبلاغي)[381].

كما ينقلنا "العمري" إلى الحدود الفاصلة في تأويل المجاز، والتي استنبطها عن "الجرجاني"، إذ حد المجاز هو التوسط فيه، دون تهميش له، أو مغالاة فيه. (ومن قدح في المجاز ، وهمَّ أن يصفه بغير الصدق، فقد خبط خبطا عظيما، و يهرف بما لا يخفى[...] فمن مغرور مُغرًى بنفيه دفعة، والبراءة منه جملة[...] وآخر يغلو فيه ويفرط، ويتجاوز حدَّه ويخبط، فيعدل عن الظاهر والمعنى عليه، ويسُوم نفسه التعمق في التأويل ولا سبب يدعو إليه)[382].

وبذلك تتضح الخيوط الرفيعة التي تربط بين المجاز وإمكانية تأويله، إذ يظل كامنا في تلك الإحالة التي ينتظر منها نقل ذهن السامع إلى معنى غير المعنى الذي يحيل إليه ظاهر اللفظ، فالمجاز هو : (اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاحٍ به التخاطب، على وجه يصح ضمن الأصول الفكرية واللغوية العامة، بقرينة صارفة عن إرادة ما وضع له اللفظ. فالقرينة هي الصارف عن الحقيقة إلى المجاز، إذ اللفظ لا يدل على المعنى المجازي بنفسه دون قرينة)[383].

فالقرينة هي التي تتيح إمكانية بروز عنصر التأويل. ويورد "العمري" كلاما لطيفا عن المسافة التي تربط بين المجاز والتأويل، استنتجها من قراءات للجرجاني. (رد الجرجاني، كما سبق، مسلك الرافضين للمجاز جملة بقدر ما رد مسلك المغالين المؤولين بدون ضوابط، وحاول تقديم تصور يسمح بتبين المجاز ويساعد على تأويله،[...] يفهم من كلام الجرجاني أن المجاز هو تعدِّيٍّ موقع إلى غيره، أو العدول عن طريق إلى غيره، في حين أن التأويل هو محاولة العودة إلى ذلك الموقع)[384].

كما يحيلنا "العمري" إلى ضرورة المعرفة بعنصري "الأصل" و"الادعاء" في مجال تأويل المجاز، لأن ذلك سبيل إلى فهم المعاني المجازية المتضمنة في الشعر.

---

[380] أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص 272.

[381] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 264.

[382] أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص 391.

[383] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية: أسسها، وعلومها وفنونها، الطبعة الأولى، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، 1996، ج2، ص 218.

[384] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 177.

(لقد أدت ملاحظة الاعوجاج في مجال تأويل المجاز بالجرجاني إلى التشديد على الأصل وقواعد النقل[...] ليستأنف هذا الرأي ملاحظا أن الأصل غير متوفر ولا مستقر في كثير من الأمثلة الشعرية وأن الأساس هو الادعاء)[385]. حيث يراد بالأصل البحث عن معنى اللفظ الذي وضع أولا، ثم عُدل به ليحيل إلى معنى مجازي ثانيا. أما الادعاء فيراد به ادعاءان: ادعاء الواقع وادعاء القيمة. (فالادعاء هو في أصله ادعاءان: أحدهما ادعاء المعنى الواقعي والثاني ادعاء المعنى القيمي) [386]. حيث المعنى الواقعي هو المعنى الظاهر للحقيقة، في حين يعد المعنى القيمي معنى مجازيا.

4-2 البعد التداولي للمجاز:

لا يقف المجاز عند البعد التخييلي فحسب، بل هو شديد الصلة بالدراسات اللغوية والدينية التي نحت به منحى تداوليا. (نفترض أن لمفهوم المجاز دلالة تداولية تسمح له بأن يكون لا موضوع الشعريات فقط، بل وموضوع التداوليات أيضا، ذلك أن البلاغيين عندما يضعون المجاز في مقابل الحقيقة، فهم لا يقصدون أن المجاز يعني الكذب أو الباطل، بل يقصدون أن الدلالات المجازية دلالات تداولية، لأنها دلالات إيحائية المتلقي هو المكلف بفهمها)[387].

ويشير "العمري" إلى أن علم النحو لا يستوعب كل القواعد العامة للغة العربية والتي ارتبطت بمصدرين مهمين: مصدر يعزى إلى القرآن الكريم، وآخر إلى الشعر القديم، ولذلك كانت الحاجة ماسة إلى إجراءات تأويلية تسمح بتناول هذين المصدرين من زاوية مجازية ذات بعد تداولي.(حين تصدى علماء العربية، مع الرواية والتوثيق، إلى تمحيص العربية واستنباط قواعد عامة تجمع شتات المتن المنجز، عن طريق القياس، تبين لهم، بعد تكشف البنية النحوية (الصورية)، أن هناك استثناءات كبيرة لا يستوعبها النسق النحوي إلا عبر إجراءات تأويلية[...] أضف إلى ذلك أن هذه الاستثناءات ترجع إلى نصين مسلم بفصاحتهما، بل هما مرجع العملية التقعيدية: الشعر القديم (الجاهلي)، والقرآن الكريم الذي جاء على لسان القوم، فظهر فيه ما في كلامهم من طرق تعبيرهم)[388].

يفهم من هذا الكلام الذي ساقه "العمري" أن باب المجاز باب عظيم الشأن في البلاغة العربية، وبالخصوص في جنبها التداولي الدلالي، فبه يزال الغموض وينجلي المعنى الذي يراد من وراء اللفظ،

---

[385] مرجع سابق، ص ص 179-180

[386] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 232.

[387] محمد سويرتي: اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 3، يناير/مارس 2000، ص 49 نقلا عن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 263.

[388] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 165.

ويضرب مثالا عن "مجاز القرآن" لـ "أبي عبيدة" الذي يراه كتابا ذا بعد بلاغي صرف، بناه صاحبه على سؤال أحدهم عن وجه تشبيه المعلوم بالمجهول، وهذا يناقض أصل التشبيه الذي يقوم على تشبيه المجهول بالمعلوم. وفي ذلك يقول "العمري" :(روي أن سائلا سأل أبا عبيدة عن وجه تشبيه المعلوم بالمجهول في قوله تعالى متحدثا عن شجرة الزقوم: "طلعها كأنه رؤوس الشياطين" [389] فالعادي من وظيفة التشبيه الذي انطلق منه السائل أن يلحق المجهول بالمعلوم ليكتسب صفته، أي "المعلومية". فما وجه الخروج من هذا الطريق السيار إلى طريق ثانوي (طريق المجاز)، أو من طريق "الوجوب" إلى طريق"الجواز"؟ فعلى إثر هذا السؤال قرر أبو عبيدة، كما روي عنه، تأليف كتاب يرفع كل الإشكالات التي صار الناص القرآني يثيرها في البيئة المعرفية الجديدة)[390].

كما يقدم "العمري" تخريجا آخر هذا نصه: (إن هناك بعدا آخر للخطاب القرآني، ومرصدا آخر ينبغي رصده منه. انطلاقا من كونه مخاطبة لقوم بلسانهم وحسب ما يفهمون من كلامهم "إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم" كانت هذه الحجة الأولى، أما الحجة الثانية فتقوم على تفسير فاعلية الصورة التعبيرية وبيان وجه تلك الفاعلية، على وجه العموم. فهنا نظر أبو عبيدة نظرة ثاقبة حيث بنى الصورة على المتخيل لا على القائم في الوجود. فالناس يتأثرون بما يخيل إليهم، ويقع في أذهانهم أحيانا أكثر مما يتأثرون بالواقع [...] فالمسألة عند أبي عبيدة ليست، كما تصورها السائل، مسألة إفهام أو تعليم، بل هي مسألة تأثير عن طريق الصورة المختزنة في المخيلة)[391].

ومما تقدم ذكره، فإن أي خطاب بلاغي كان، يمكن أن يعرف انزياحا في قيمته الدلالية والتداولية، فيظهر على صيغة من اللفظ والهيئة مغايرة تماما للشكل الذي تم التعارف عليه تداوليا، مثلما حصل مع "أبي عبيدة" حين سأله السائل عن وجه تشبيه المعلوم بالمجهول، لأن ذلك ينافي الروح المنهجية للتشبيه الذي يعقد على إكساب المجهول صفة المعلوم.

(المناسب تداوليا أن يشبه المجهول بالمعلوم، ولكن الآية القرآنية انزاحت عن هذه القاعدة العملية لمزية بلاغية (إثارة انفعالات خاصة)، فشبهت المعلوم بالمجهول)[392].

---

[389] سورة الصافات، الآية 65.

[390] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 166.

[391] أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص ص 120-121.

[392] المرجع نفسه، ص 120.

وإلى جانب ذلك يحيلنا "العمري" إلى الجهود التي بذلها "الجرجاني" في سبيل ضبط المجاز وبنائه على نسق من التداول، يسمح بتشييد صرح للخطاب الحجاجي الإقناعي، يتيح للمتلقي التفاعل معه، في إطار التوظيف المحكم للألفاظ.

(استنكر استكراه الألفاظ حسب السجية وتحميلها ما لا تحتمل، فهذا مذهب يجافي حتى منطق أصحاب الألغاز والأحاجي إذ لا يترك للمؤول إمكانية للتواصل معه)[393].

وعلى هذا فإن "الجرجاني" يربط الوظيفة التداولية للمجاز بمدى الاستعمال (أي استعمال اللفظ في سياق النص).(فالكلمة لا توصف بالمجاز إلا عند استعمالها في سياق نصي معين)[394].

والخلاصة أن المجاز يلعب دورا بالغ الأهمية في أداء وظيفة تداولية حجاجية.

[393] البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 179.

[394] بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 242.

خاتمة

خاتمة

إن عرضنا لماهية الحجاج قديما عند الغرب، ومحاولة ربطه بتراثنا البلاغي العربي ضرورة وحتمية لا مناص من تداولها، وذلك للوقوف على أهم القضايا البلاغية الحجاجية العربية، وبعثها من جديد لتساير جل الدراسات الحديثة التي بات الحجاج سمة بارزة فيها. أما فيما يخص تناولنا للمشروع البلاغي العمري فقد كان نعم المعين لنا في استقراء الحجاج، وأهم الركائز التي قام عليها، فكان مرآة عاكسة لبلاغة الحجاج ، وللوصول إلى النتائج المتوخاة، والتي نوجزها فيما يلي:

1 -إن تتبع الحجاج في التراث الغربي القديم يؤكد على حضوره الفاعل في بنية الكلام.

2 -ارتباط الحجاج الغربي بالخطابة التي خضعت لسلطة القول.

3 -اتخاذ الحجاج صنعة يروج لها، لا غاية في حد ذاته.

4 -انتقال الحجاج من المغالطات التي أقرها السفسطائيون، إلى اعتماد آليات الإقناع التي جاء بها "أرسطو".

5 -إن تناول "أرسطو" للحجاج كان تناولا منطقيا بالأساس.

6 -جعل "أرسطو" مركز الثقل في صناعة الخطابة يقوم على دلالات القول، فأقام بذلك توازنا يكون التأثير بمقتضاه خادما للإقناع وتابعا له.

7 – ميز "أرسطو" بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطبي، إذ الأول يقوم على فحص قضايا الفكر والأحكام المتعلقة بالسلوك، أما الثاني فمجاله توجيه الفعل وتثبيت الاعتقاد.

8 -إن ما جاء به "الجاحظ" من النصوص البلاغية، واهتمامه بأطراف العملية الخطابية من متكلم وسامع ونص، ليحيلنا إلى منطلق حجاجي يهدف إلى إقامة بلاغة الحجاج.

9 -عمل "برلمان" وزميله على إخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل معا.

10 -تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال.

11- الحجاج عن "برلمان" و"تيتكاه" معقولية وحرية، فهو وفاق بين الأطراف المتجاورة.

12- استطاع "ميشال مايير" أن ينظر لبلاغة الحجاج من خلال نظرية المساءلة والتي تعد منهجا تساؤليا تتم ممارسته بين الأشخاص، غايته الإقناع.

13- تميزت نظرة "ديكرو" و "انسكومبر" للحجاج بكونه قائما في جوهر اللغة، وهدفه هو التوجيه والتأثير على المتلقي، إما لتعزيز رأيه، أو إبعاده عن الرأي النقيض.

14- ربط "طه عبد الرحمن" الحجاج بما يحققه من التواصل، الذي هو أصل الكلام، وبذلك فالحجاج عنده أصناف ثلاثة: الحجاج التجريدي، التوجيهي والتقويمي. كما أنه يقوم على اعتبارين: اعتبار الواقع، اعتبار القيمة.

15- انطلق "أبو بكر العزاوي" من منطلق اللغة في حد ذاتها، فهي جملة من الأقوال – على اختلاف أنواعها- ذات صبغة حجاجية، وتعد الاستعارة النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين، وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية.

16- لقد بين "العمري" البعد الإقناعي للبلاغة العربية والذي جسده بعمق عند "الجاحظ".

17- استطاع أن يكشف عن الآليات الإقناعية التي تميز الخطابة عن الشعر.

18- بين مقام الخطب واستخرج صور الحجاج منها.

19- نقل الرصيد البلاغي العربي من مرحلة الجمود إلى مرحلة التجديد في النسق.

20- اعتمد في توضيح الحجاج على النصوص الأرسطية.

21- إن "العمري" بهذا المشروع يكون قد أسس لبناء نموذج حديث للبلاغة العربية.

22- لقد كسر الهوة بين الباحثين في القديم والحديث، وبيّن أن العبرة بالجدية في البحث.

23- رسم الباحث أفقا خاصا به، وذلك بفضل تشبعه بالتراثين الغربي والعربي، إضافة إلى تحكمه في آليات الترجمة التي أمدته بالكثير في مجال البحث.

24- كانت بلاغة "العمري" منفتحة على الخطاب التداولي.

25- وفّق البلاغي "محمد العمري" في إثراء وتزويد الطالب العربي بمصطلحات جديدة يقوم عليها البناء الهرمي للبلاغة الحديثة. ومن هذه المصطلحات نذكر:

- الخطابية: وهي مصطلح يقابل الريطوريقا الأرسطية.
- المستمَع: وهو المقام الخطابي بمكوناته الزمانية والمكانية والثقافية.
- البلاغة العامة: وهي المنطقة المشتركة بين الشعرية والخطابية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع

- **القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.**

-أولا: الكتب باللغة العربية

1 -إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، مصر، 1969.

2 -أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، مطبة مصطفى البابي وأولاده، مصر، ط1، 1933.

3 -أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1980.

4 -أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973.

5 -أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011.

6 -بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلومصرية، ط2، 1958.

7 -أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

8 -أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مطبعة العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.

9 -جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992.

10 -الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ، ط 7، 1998.

11 -الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 2، 1965.

12 -جميل لحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، المغرب،2014.

13 -حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

14 -حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2014.

15 -حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية، 1981.

16 -حمو النقاري، التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 1، 2006.

17 -الخطيب الفزويني، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، تقديم ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2002.

18 -رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2014.

19 -رشيد يحياوي، الشعرية العربية، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1991.
20 -ابن رشيق، العمدة، شرح وضبط: عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ط1، 2003.
21 -الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1998.
22 -سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 2، 2011.
23 -السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، 1982.
24 -السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 ، 1999.
25 -شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
26 -شوقي ضيف،البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، د ت.
27 -صابر حباشة، التداولية والحجاج، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2008.
28 -صابر حباشة، لسانيات الخطاب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 2010.
29 -صابر حباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، ط1، 2011.
30 -صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992.
31 -طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2014.
32 -طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2012.
33 -عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية: أسسها، وعلومها وفنونها، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، 1996.
34 -عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، ط1، 2006.
35 -عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: هـ. ريتر. إستانبول، 1954.
36 -عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، وجدة، ط1، 1991.
37 -عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984.
38 -عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2013.
39 -عبد الله الرشدي، الشاهد الشعري وأسئلة البلاغة والتلقي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط1، 2014.

40 –عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007.

41 –عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 2011.

42 –عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط 2، 2015.

43 –عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط 1، 2011.

44 –فريق البحث في البلاغة والحجاج، الحجاج عند أرسطو ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم"، منشورات فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس ا، 1998.

45 –ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار ابن هيثم، القاهرة، ج4، ط1، 2005.

46 –مجموعة من المؤلفين، الحجاج مفهومه ومجالاته"، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.

47 –محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، 2013.

48 –محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012.

49 –محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999.

50 –محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري ، البنية الصوتية في الشعر، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 1990.

51 –محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.

52 –محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا للشرق، المغرب، ط2، 2002.

53 –محمد العمري، الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، إفريقيا الشرق، المغرب،2001.

54 –محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

55 –محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010.

56 –محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990.

57 –محمود عكاشة، تحليل الخطاب، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2013.

58 –مصطفى هدارة، في البلاغة العربية، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1989.

59 –نعمان بوقرة، لسانيات الخطاب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012.

60 –أبو الوليد الباجي، كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1987.
61 –ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969.

-ثانيا: الكتب المترجمة

1 –آن روبول، جاك موشلير، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد شيباني،
مراجعة: أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة محمد العمري، مجلة علامات في النقد، جدة، 1996.
2 –فان دايك، السياق والنص، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000.
3 –مانويل ماريا كاريلو، خطابات الحداثة، القسم السابع عن " بلاغة بيرلمان الجديدة"، ترجمة: إدريس كثير و عز الدين الخطابي، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2001.
4 –ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، التنوير.

-ثالثا: المقالات

1 –أبو بكر العزاوي، "نحو مقاربة حجاجية للاستعارة"، مجلة المناظرة، المغرب، السنة الثانية، العدد 4، ماي 1991.
2 –حسان الباهي، تحليل الخطاب، م جلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد 4، 2014.
3 –محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، الكويت،
المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث، يناير/مارس 2000.
4 –محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 3، يناير/مارس 2000.
5 –محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات، ع 5، خريف– شتاء 1991.
6 –محمد الولي، بناء الخطبة وترتيب الحجج عند أرسطو، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد 4، 2014.
7 –محمد الولي، مدخل إلى الحجاج، عالم الفكر، الكويت، المجلد 40، العدد 2، أكتوبر – ديسمبر 2011.

-رابعا: مواقع الإنترنت

1 –موقع الأستاذ محمد العمري : www.medelomari.net

فهرس الموضوعات

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ – د
مدخل : العُمري أديبا وناقدا	**10-6**
الفصل الأول: ماهية الحجاج قديما	**46-12**
أولا: بلاغة الحجاج عند الغرب	**28-13**
1 -الرؤية السفسطائية للحجاج	**19-13**
1 1 السفسطائيون وتعليم الناس الحجاج	**14-13**
1 2 الممارسة السفسطائية للحجاج	**15-14**
1 3 سلطة القول	**16-15**
1 4 التسلط بالقول	**18-17**
1 5 علاقة القول بالوجود	**19-18**
2 -الحجاج عند أفلاطون	**23-19**
2-1 القول الخطبي	**20-19**
2-2 حدود الخطابة وأركانها	**21-20**
2-3 القول الحجاجي وصناعة القول	**23-22**
3 -النظرة الأرسطية للحجاج	**28-23**
3-1 الخطابة عند أرسطو وأجناسها	**24-23**
3-2 أصناف الحجاج	**26-25**
3-3 الوحدات الحجاجية	**27-26**
3 4 الأقاويل الحجاجية	**28-27**
ثانيا: بلاغة الحجاج عند العرب	**46-28**
1 -الجاحظ والبيان العربي	**35-28**
1 1 تصوره للبلاغة	**30-28**
1 2 صور البيان عنده	**34-30**
1 3 صور الحجاج	**35-34**
2 -الجرجاني وبلاغته	**39-36**
2-1 نظرية النظم	**37-36**
2-2 الآليات الحجاجية للاستعارة	**39-38**

3 ـ البلاغة عند السكاكي	**46-40**
3-1 مركز البلاغة	**42-40**
3-2 مقامات الكلام	**44-42**
3-3 مقتضى الحال (فكرة المقام)	**46-44**
الفصل الثاني: ماهية الحجاج حديثا	**81-48**
أولا: بلاغة الحجاج عند الغرب	**64-48**
1 ـ النموذج الحجاجي عند برلمان و تيتكاه	**53-48**
1 1 ـ معقولية الحجاج	**51-48**
1 2 ـ ملامح الحجاج	**53-51**
2 ـ آراء ميشال مايير حول الحجاج	**58-53**
2-1 طبيعة الكلام	**54-53**
2-2 نظرية المساءلة	**56-54**
2-3 بنية الصور البلاغية	**57-56**
2-4 العلاقات الخطابية	**58-57**
3 ـ الحجاج عند ديكرو و انسكومبر	**64-58**
3-1 مكمن الحجاج	**61-58**
3-2 مراتب الحجاج (السلم الحجاجي)	**64-61**
ثانيا: بلاغة الحجاج عند العرب	**81-65**
1 ـ النظرة الفلسفية للحجاج عند طه عبد الرحمن	**71-65**
1 1 ـ طابع الحجاج عنده	**67-65**
1 2 ـ أصناف الحجاج	**70-68**
1 3 ـ اعتبارات الحجاج	**71-70**
2 ـ الحجاجية عند أبي بكر العزاوي	**76-72**
2-1 الدلالات الحجاجية	**74-72**
2-2 الحجاج في أنماط الخطاب	**76-74**
3 ـ محمد العمري ورؤيته للحجاج	**81-77**
3-1 بلاغة الحجاج عند العمري	**78-77**
3-2 اتجاه الحجاج	**81-79**
الفصل الثالث: الرؤية البلاغية الحجاجية للعمري	**139-83**
أولا: المشروع العمري	**96-84**

1 ـ الآراء التي حملها الباحث	87-84
1 ـ 1 الآراء الأرسطية	85-84
1 ـ 2 الآراء التراثية العربية	87-86
2 ـ فكرة المشروع	89-88
3 ـ أبعاد المشروع	96-90
3-1 دراسة الخطاب الشعري	92-90
3-2 دراسة الخطابة (الخطاب الإقناعي)	94-92
3-3 دراسة البلاغة بين الشعرية والخطابية	96-94
ثانيا: البحث في بلاغة الخطاب الإقناعي	119-97
1 ـ بلاغة الخطاب الإقناعي	103-97
1 ـ 1 بلاغة الإقناع	99-97
1 ـ 2 البعد الإقناعي للبلاغة العربية	101-99
1 ـ 3 فاعلية الخطاب	103-101
2 ـ مقام الخطب	112-104
2-1 الخطابة الدينية	106-104
2-2 الخطابة السياسية	109-107
2-3 الخطابة الاجتماعية	112-109
3 ـ صور الحجاج	119-112
3-1 القياس	115-112
3-2 المثل	117-115
3-3 الشاهد	119-117
ثالثا: البلاغة بين التخييل والتداول	139-120
1 ـ التخييل والتداول	123-120
1 ـ 1 الشعرية	121-120
1 ـ 2 الخطابية	123-121
2 ـ منطقة التقاطع بين التخييل والتداول	128-123
2-1 الوصل بين الشعرية والخطابية	125-123
2-2 الفصل بين الشعرية والخطابية	128-126
3 ـ البلاغات الجزئية	134-129
3-1 بلاغة السخرية	132-129

3-2 بلاغة السيرة الذاتية	**134-133**
4 المجاز آلية بلاغية	**139-135**
4-1 البعد التخييلي للمجاز	**137-135**
4-2 البعد التداولي للمجاز	**139-137**
خاتمة	**142-141**
قائمة المصادر والمراجع	**147-144**
فهرس المحتويات	**152-149**

ملخص المذكرة

يُعدّ البحث في طبيعة الكلام البشري وما ينطوي عليه من المقاصد والدّلالات من المباحث والدّراسات التي شغلت البلاغيين منذ القديم . وإذا ما تأملنا البلاغة القديمة عند اليونان وجدناها قد نشأت ضمن فضاء سياسي خطابي.

أما "أرسطو" فقد نظر للبلاغة كونها خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتي التأثير والإقناع، وبهذا يُعد "أرسطو" المؤسس الحقيقي للبلاغة بما قدمه من آراء في مجال الحجاج والإقناع.

أما عن البلاغة العربية القديمة فقد عرفت حضورا بارزا للحجاج، وإن ظهر بتسميات مختلفة. فظهر عند الجاحظ وربطه بالخطاب الإقناعي الشفوي. أما "الجرجاني" فقد جعل البلاغة وثيقة الصلة بنظرية النظم والمعنى، كما استخدم آليات حجاجية لوصف الاستعارة. في حين أن "السكاكي" أشار إلى أدوات إدراك الحجاج في البلاغة العربية وأكّد على أن الحَسن من الكلام هو المطابق لمقتضى الحال، وأهم ما ركز عليه البلاغيون العرب القدامى في تناولهم للحجاج هو فكرة المقام الذي يستدعي مراعاة حال المتلقي.

أما عن الدارسين الغربيين المحدثين فقد اعتبروا البلاغة القديمة بلاغة محدودة نظرا لاعتمادها على المحسنات البديعية ورونق الكلام، وأوردوها موردا حجاجيا يقوم على وسائل الإقناع الذي بات مطلبا أساسيا في كل عملية فكرية معينة، وأبرز من تناول بلاغة الحجاج "برلمان" وزميله "تيتكاه" إضافة إلى أعمال باحثين آخرين كـ "ديكرو" و "مايير".

أما عن الباحثين العرب فنجد أسماء كثيرة من أمثال : "طه عبد الرحمن"، "أبو بكر العزاوي". إلا أن اسم البلاغي "محمد العمري" هو من يقف في الصدارة وذلك لما أضافه للدرس البلاغي العربي حيث أعاد الاعتبار لخصوصيات التراث البلاغي، وكشف الستار عن جماليات شكلية ومضمونية احتجبت بين طيات الكتب، وانتقل بالبلاغة إلى وضعها الطبيعي كنظرية في الكتابة، وسلطة إبداعية حجاجية، ونظرية في القراءة وتحليل الخطاب.

إن ما قام به الباحث البلاغي "محمد العمري" في ميدان البلاغة والحجاج، وما أسس له من المفاهيم والتصورات لَيَدْفع بكل باحث إلى الغوص في أعمال هذا الرجل لاستخراج الدُرر الكامنة التي حوت مؤلفاته. ومن هنا كانت فكرة موضوع البحث تدور حول المشروع البلاغي لـ "محمد العمري"، هذا المشروع الذي يعد من صميم الدراسات البلاغية الحجاجية المعاصرة التي قنّنت واستحدثت مفهوما جديدا للبلاغة يقوم على الإقناع وإقامة الحجج والبراهين.